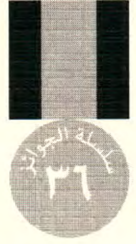
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



رواية

خوسيه ميجيل باراس

بريد بغداد

ترجمة: صالح علماني

خوسيه ميجيل باراس. كاتب تشيلي.

ولد في العاصمة التشيلية "سانتياجو" ١٢ مارس ١٩٢٨.
كتب الرواية والقصة القصيرة والنقد الأدبي والمقالة.
من أعماله: "خف ستالين"، "جالفارينو وإيلينا"، "نيرودا السري"، "أحلام الرسام".
حصل على الكثير من التكريم في بلاده وفي الخارج قبل أن ينال في عام ٢٠٠٦ أعلى جائزة أدبية في تشيلي وهي الجائزة الوطنية للآداب.

الجائزة: الجائزة الوطنية للآداب "تشيلي"

أهم جائزة تشيلية، تأسست عام ١٩٤٢ بتوقيع رئيس التشيلي "خوان أنطونيو ريوس" بناء على توصية من جمعية الكتاب التشيليين تدعمها جماعة برلمانية متنورة وعدد من المثقفين ذوي المناصب في الحكومة التشيلية.
ونصت على تقديم جائزة وطنية للآداب كل عام لأديب كرس حياته للأدب وتلقت أعماله اعتراف الجمهور والرأي العام.
تتألف لجنة تحكيم الجائزة من ثلاثة أعضاء، يترأسها رئيس جامعة تشيلي وتضم ممثلاً عن وزارة التعليم العام. ومندوباً عن جمعية كتاب تشيلي. وفي عام ١٩٩٢ أدخلت تعديلات أخرى على أنظمة الجائزة شملت لجنة التحكيم وطرق التقدم لنيلها ورفعت قيمة الجائزة المالية إلى ستة ملايين ونصف مليون بيزو.

بريد بغداد

باراس ، خوسيه ميجل
بريد بغداد / خوسيه ميجل باراس ؛ ترجمة صالح علمانى. ــ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٤٧٢ ص ؛ ١١ × ٢١ سم .
تدمك ١ ٤٠٨ ٤٢٠ ، ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإسبانية
(أ) علمانى ، صالح (مترجم)
(ب) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٦٥٩ / ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 408 - 1
ديوى ٨٦٣

بريد بغداد

رواية

تأليف : خوسيه ميجيل باراس

ترجمة: صالح علماني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

- الكتاب: بريد بغداد — EL correo de Bagdad
- تأليف: خوسيه ميچيل باراس — José Miguel varas
- ترجمة: صالح علمانى
- يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

مدخل إلى المخطوطة

فـى شهـر مـايو١٩٧٢ اسـتدعـانى مـدير الجـريدة وقال لى:

ـ لدى مهمة لك.

ـ شكراً، لدىّ ما يكفى ـ أجبته.

ـ لا، أيها النذل ـ قال لى بلطافته المعهودة ـ إنها من المهمات الإضافية التى تروق لك. ويمكن لها أن تنفع للمنشورة.

لم أدر قط من أين خرجت تسمية «منشور» هذه. فليس هناك أية صحيفة أخرى فى سانتياجو دى تشيلى ـ على حد علمى ـ أطلقت هذه التسمية على ملحق يوم الأحد. ورييس، أقدم الرفاق، وكان عامل سكة حديد من قبل، يسميه «المنشورة».

دفع المدير إلىّ مغلفاً كبيراً، سميكاً وأصفر:

ـ وجدتُ هذا المغلف وأنا أقوم ببعض التنظيف والترتيب فى هذه الزريبة. إنه هنا منذ زمن طويل، يقبع فى أحد الأدراج، بين رسائل لم يُرد عليها. بعضها لم يُفتح. أقدّر أنه هنا منذ نحو عشر سنوات.

نظرت إليه نظرة لا تعبير فيها:

- هذا يعنى، قبل حوالى ستة مديرين.

- بالضبط.

لم أُبدِ اهتماماً كبيراً. فأنا لا أريد أن ألزم نفسى، ولم تكن لدى ثقة كبيرة بلُقى من هذا النوع. ربما هى أصول رواية «اجتماعية» أو قصيدة ملحمية عن ريكابارين فيها من الشعارات أكثر مما فى الأول من مايو، أو هى دراسة عن كيفية جعل نهر «لوا» صالحاً للملاحة. فالصحف تجتذب على الدوام كمية من الكتبة الخطرين. ويبدو لى أن عددهم يكون أكبر إذا كانت الصحيفة هى «السيجلو». فهناك مصلحون اجتماعيون وجنسيون، ومالكو حقائق غير قابلة للدحض، ومهندسون يجدون حلولاً للمشاكل الإثنية بأنظمة حسابية، وقارئون تلموديون لأعمال ماركس وإنجلز الكاملة يحللون تقاعد عمال الطباعة على ضوء «الصراع الطبقى فى فرنسا» ولا يتنازل أحدهم عن عشر صفحات مطبوعة على الآلة الكاتبة بأسطر متراصة، عندما لا تصل فى رزم تسبب مجرد مراجعتها التهاب الملتحمة. أضف إلى ذلك الشعراء المكرورين حتى البحر. كل هؤلاء غير المنشورين يتمسكون بأفكارهم بصورة يمكن معها لأشد أشكال الرفض مجاملة وتهذباً أن تغضبهم غضباً قاتلاً وتحولهم إلى ممسوسين.

قال المدير:

- «هويركيو» هل تتذكر هذا الاسم؟

أحسست بصدى ناقوس ناءٍ:

- أجل، أتذكر شيئاً. أليس رساماً مابوتشياً أو شيئاً من هذا القبيل؟

- لقد كان كذلك، بالرغم من أن الأمر لم يتضح تماماً. يبدو أنه قُتل أو اختفت آثاره فى القاهرة. أتذكر أنه جرى تداول قضيته منذ عدة سنوات. لقد طُلب من حكومة الرئيس أليساندرى أن تفعل شيئاً للعثور عليه. لكنها لم تفعل شيئاً. وبعد ذلك، فى زمن الرئيس فراى، جرت بعض الاتصالات الدبلوماسية دون أن تؤدى إلى نتيجة.

- صحيح. إننى أتذكر الآن بعض الأمور. أعتقد أنه كان رساماً جيداً. أقيم معرض لأعماله هنا فى سنتياجو، وأثار ضجة كبيرة. وقد أطرى عليه روميرا كثيراً.

- أجل، ونحن نتفنا ريشه.

- صحيح؟ لماذا؟

هز المدير كتفيه. إنه يفعل ذلك بكثرة فى الفترة الأخيرة. («هذه إشارة خبيثة»، يقول سانتشيث، أمين الحزب فى الجريدة).

- خصومات أبدية بين الفنانين. حسد وضغائن شخصية مغلفة بمصطلحات ماركسية لينينية. حجج من نوع: «كيف يمكن مساندته وهو لا يشارك فى أى شىء بينما أنا أذهب إلى كل...» هذه الحجج.

نظرتُ إلى المغلف.

- وما الأمر؟ هل فى هذا المغلف شىء له علاقة به؟

- أجل. هذه الرزمة أرسلها إلى الجريدة فى العام ٦٣ أو ٦٤ بروفيسور تشيكى كان يعرف المدعو هويركيو. إنها مجموعة رسائل أرسلها إليه الرسام من دمشق أو لست أدرى من براز أى مدينة فى الشرق الأوسط. ومعها أيضاً تعليقات من البروفيسور نفسه.

- وهل قرأت كل هذا؟

- فلينجنى الله. لقد ألقيت عليه نظرة سريعة، قرأت شيئاً من الرسالة الأولى. والبروفيسور متضايق، أو أنه كان متضايقاً منذ عشر سنوات، للطريقة التى تعاملنا بها مع الرسام هنا فى الجريدة. ويريد شيئاً من تكريم ذكراه.

- وماذا بعد؟

- أريد إعطاءك المخطوطة كى تراها. ربما تنفعك، فجأة، فى شىء ما.

أحسست بقليل من الفضول، وفى الوقت نفسه بالخوف من تولى مهمة جديدة:

- لست أدرى إذا ما كان لدى متسع من الوقت.. أنت تعرف كم أنا مشغول.

- ليس هناك موعد محدد أو عجلة فى هذا الشأن. إذا كانت الرزمة قد انتظرت عشر سنوات،

فليس هناك ما يمنع أن تنتظر لوقت أطول. ولكن، لست أدرى، لدى إحساس غريب.. من يستطيع القول إنها ليست أمراً مهماً. القِ عليها نظرة عندما يتاح لك الوقت. انتهز أحد أيام الآحاد، مثلاً.

كان المغلف ثقيلاً وتنبعث منه رائحة القِدم. ضربت عليه براحة يدى، فأطلق سحابة من الغبار. عطس المدير:

ـ لا تفعل هذا هنا، أيها النذل.

ـ حسن ـ قلت له ـ سآخذه. دون أى التزام. سأقرؤه عندما أستطيع.. إذا استطعت. وبعد ذلك سأخبرك.

عدت إلى مكتبى وربطتُ الرزمة، مثلما هى، فى مغلفها الأصفر، برباط مطاطى أحمر. ثم دسستها بعد ذلك فى الدرج السفلى. ولم أعد إلى تذكرها فى الأسبوع التالى، لأن «الأحداث»(*) مثلما يقول ميياس، تسارعت فى تشيلى بطريقة لا تُحتمل.

(*) لابد أن يتذكر القارئ أن هذا الحديث يدور قبل شهر من انقلاب بينوشيت العسكرى ضد الرئيس سلفادور الليندى. وأن الجريدة التى يدور فيها الحديث هى السيجلو، صحيفة الحزب الشيوعى التشيلى.

رسالة إلى المدير

السيد مدير جريدة السيجلو

سانتياجو دى تشيلى

أميركا الجنوبية.

السيد المحترم(*).

بتأخير بالغ وحزن لا يقل عنه، علمتُ مما جاء فى الغراء جريدتكم، باختفاءٍ ومصيرٍ مشئوم مفاجئ لقيه رسام تشيلى من الأمة الأراوكانية، هويركيو (آخرون يكتبونه هويركين، أو حتى فيركين) وهو صديق أنا، بل يمكن قول إنه قريبى بالدم. لم أعرف

(*) سيجد القارئ فى هذه الرسالة، وفى ملاحظات وتعليقات البروفيسور جوزيف التالية على رسائل الرسام، نوعًا من الركاكة والتراكيب اللغوية والأسلوبية الخاطئة، والمضحكة أحيانًا، وهى نتيجة معرفته المحدودة باللغة الإسبانية، بالرغم من أنه يدرِّس لغات الرومنس، لكن تخصصه يقتصر على الإيطالية والبرتغالية.

عنه شيئاً مؤكداً منذ حوادث بغداد التى تلت سقوط وإعدام من كان فى ذلك الحين السيد الرئيس عبد الكريم قاسم، ولم تحصل على أخبار عنه كذلك ابنة أخى، زوجته إيفا بيفانوفا، وكان فى وقت انقلاب منفصلاً عنها، ولكن جغرافياً فقط.

من الغريب أن متأخرة أخباره تصل إلينا ومن مصدر بعيد مثل جريدة أمريكية جنوبية **السيجلو**. أوه، أجل، **السيجلو (العصر)** وعصر نحن هذا الذى هو عصر ثورات اجتماعية اقتصادية وعلمية تقنية، هو أيضاً عصر اتصالات، أحياناً، ولكنها اتصالات غير متقنة. (أرجو منك أن تتجاوز أخطاء وأهوال كتابتى الإسبانية، فمن دراسة ذاتية منفردة، نتائج يرثى لها، وبعض مزيج من إيطالية وبرتغالية، وهما لغتا رومنس أوليتان فى اهتمامى، دون نسيان اللادينو، لهجة سفارديم إسبانية التى أعرف أنا منذ طفولة).

هكذا إذاً، هويركيو لم يعد بيننا، هذا يبدو غير قابل للتصديق. «حياة كلبة ونحن جراؤها» هكذا يقول مثل شعبى فى أراضى تشيكية. عجوز مثلما هو من يكتب، اختفاء الصديق الشاب يحزن أيضاً، وإن يكن موته غير مؤكد. لماذا هو وليس آخرين أسوأ مازالوا أحياء، لماذا هو وليس أنا، أسأل نفسى.

أنا المحروم من ثروة معتبرة صادرها فجأة محتلون ألمان لبلدنا، وحالفنى الحظ أيضاً بالهرب من

معسكرات اعتقال، أنا كنت محكوم إعدام ناج. لماذا؟ لأن لدى إفلات من تنفيذ حكم، كنت أُصعب «حل دائم لمسألة يهودية» حسب سخرية جيرمانية (غير إرادية) من محكمة عليا. الآن يفكر الواحد وحتى يشكك بكل هذا إصرار على بقاء فى الوجود، بينما آخر، أفضل بكل تأكيد، يذهب.

لكننى إذ أكتب لجريدتكم موقرة، فليس ذلك لحسرة متأخرة ولا سعياً إلى حديث عن موت. أنا لحضرتكم يجب أن أكتب قبل وقت طويل، عندما معرض هويركيو فى سانتياجو دى تشيلى سنة ١٩٦٢ عند أخذ مواقف قاسية جداً، يمكن قول إنها غير مفهومة أو غير عادلة، مؤلمة جداً لفنان نفسه، من قبل السيد المحترم مالالايت، ناقد فنى فى جريدتكم. لم يجعل هذا أمس أكثر من اليوم، يأسف له من يكتب هذه سطور.

وأريد الآن، من جهة، إصلاح خطأ وذنب، وربما تقديم عناصر جديدة غير معروفة، أو معروفة مشوهة، تسمح أو تساهم فى تبدل مفاجئ فى تقدير عمله فنى.

مباشرة أريد أن أقول الآن إن هويركيو عرف دائماً تناقضات حادة على امتداد طريقه منحوت فى عذاب، وربما بسبب أيديولوجية غير متماسكة ـ ليس لأننا يجب نعطى أهمية بالغة لوعى أيديولوجى فى موقف فنان، وعند نوع منهم بصورة خاصة، ضرورى أن لا تتناقض إيديولوجيا مع عمله، وليس مهماً كثيراً

حرفية ما يعتقدون أو يقولون وإنما رصد سلوك ممارسة عملية طويلة فى حياتهم وانعكاسه فى عملهم؛ حسن إذاً، هويركيو يستند، فى رأيى، إلى مواقف إنسانية قيمة جوهرياً، ومدافع عن ما كانت هواجس جوهرية بنسبة له: حقوق أقليات، حل صحيح مسألة قومية، إنهاء ظلم. وإن كان ذلك كله، كما هو واضح، ليس يظهر لديه فى نصوص نظرية وإنما أساساً فى رؤية تصويرية. وقد جسده بعد ذلك بوهب حياته. وهل يمكن طلب أكثر من هذا؟

إذاً بحماسة ثأرية أبعث إليكم صوراً أمينة بالدكتلسكوب من رسائل أرسلها هويركيو لخادمكم. إنها وثائق لا تقدر بثمن حول موقفه مثالى ووقائع من سيرة من سيُعترف به غداً على أنه الفنان الوطنى الأكبر. وإلى ما سبق أضيف إن هذه رسائل لها أهمية تاريخية - طرائفية - حيوية نظراً لحيوية أسلوب صاحبها وقدرته أدبية.

قد يسأل السيد مدير جريدة: كيف توصلتُ إلى معرفة الرسام؟ مستفيداً من منحة أو مكافأة دراسية من جامعة كارولين براغ لدراسة فنون جميلة، أقام هويركيو ثلاث سنوات فى براغ. وأقام صداقة، وبعد ذلك أسرة، مع إيفا بيفانوفا، وهى تشيكية، وفوق ذلك ابنة أخى، وتدرس الفن كذلك، ولكن فى فرع تطبيقى هو تصميم المنسوجات. وهذا زواج قوبل بشىء من معارضة (ليست قاسية ولا عنيدة، يجب الاعتراف) من قريبها الذكر الوحيد. أى منى أنا.

فى بيت أم إيفا، أرملة أخى العزيزة ريبيكا، أنا سافرت فى قطار من مسقط رأسى، مدينة أوستى ـ ناد ـ لابيم إلى براغ بمناسبة مهرجان موسيقى «ربيع براغ ١٩٥٩» عملاً بتقليد عريق وعادة سنوية بدأت منذ شباب ولم تنقطع إلا فى سنوات حماية نازية مظلمة، وهناك ظهر أمامى الشاب، وكان عمرة، على ما أذكر، ٢٩ عاماً. أسمر، متين البنية، حاجبان أسودان كثيفان، عينان قاتمتان واسعتان لهما شكل حبة اللوز، وجنتان بارزتان، هادئ الجأش، يوحى بأن له أسلافاً منغوليين. ثاقب الفكر بصورة شيطانية، يرد على ارتباكى القلق من علاقته الظاهرة مع إيفا (التى لم يكن فى أى لحظة، بصورة غير مريحة لى، يفلت يدها يمنى)، وسلوكى الناشئ (أى، لا بد من الاعتراف) عن أفكار مسبقة، بقوله: «أجل يا بروفيسور، أنا مابوتشى. ونحن المابوتشيين فى تشيلى مثل اليهود فى أوروبا الوسطى».

إننى أورد كلماته من الذاكرة. ولست أنوى الحكم على دقة رأيه الذى يتفق، كما أعتقد، مع رؤيته للعالم. ومن خلال رسائله سترى كيف يجرى الأمر.

ويمكننى أن أؤكد أننا صرنا صديقين منذ ذلك يوم. صداقة غريبة بين ناس مختلفى مزاج جداً وبالتالى بدأ هو بحوار ثقافى بين ندين بتلقائية ودون انزعاج من جانبى. تقديرى لشخصه أولاً، ولفنه بعد ذلك، لم يكن إلا بعد مرور وقت. إنه رجل صعب

أحياناً بسبب صراحته، وأخشى أنه ساخر بكثرة، متوحد لكنه هزلى، أريد أن أعتقد أن صداقتى عن بُعد كانت ذات فائدة له، محتمل أنها دفعته إلى تثبيت أفكار مكتوبة ما كان سيصوغها بطريقة أخرى. وبحد ذاتها، صداقته ومراسلاته ليست إنسانية التوجه عموماً فقط، وإنما بتحديد أشد كذلك، قدمت لى ثروة كبيرة فى جهدى لدراسة القارة جنوب أمريكية المدهشة.

أنتظر أن هذه رسائل مرفقة، ومرتبة وفق تسلسل زمنى، أن تنال اهتمامكم واهتمام زملائكم، كقاعدة دراسة وإعادة تقويم عادل لهويركيو من قبل ناقدكم فنى محترم السيد مالالايت وغيره من المهتمين المحتملين.

تقبل أحر تقدير واحترام وتحية

البروفيسور جوزيف بيران (أستاذ كرسى)

كرسى لغات الرومنس.

جامعة شرق بوهيميا.

مدينة أوستى ناد لابيم، تشيكوسلوفاكيا.

ملاحظة: بعد كل رسالة من رسائل رسام أضفتُ ملاحظات: إنها مهمة جداً من أجل توضيح تفاصيل أو مفاهيم، وإضافة أمور لا تتضمنها رسائل. عملياً، تعليقات ورواية وقائع متفرعة. ربما ضرورية. لقد كتبتُ كل شىء بصراحة، بتفصيل كثير حتى عن

أشخاص مقربين، أو فى أمور سياسية يمكن لمعرفتها بهذه الطريقة أن يساء فهمها فى بلادى من قبل بعض الناس. المخطوط محمول باليد إلى تشيلى ليُسلم فى جريدتكم من قبل شخص موثوق ثقة مطلقة. وقبل كل رسالة، بواساطة عناوين فرعية، ألخص مضمون كل واحدة منها. الرسائل الأولى مرسلة من براغ إلى أوستى. ورسائل تالية تأتى من بغداد التى يقول رسام نفسه إن القدر قاده إليها.

الرسالة الأولى

زيارة إلى مقهى أوروبا فى براغ وأسباب تفضيله/ لقاء ومحادثة مع ميلينا متقاعدة/ تطور تجربة مبكرة/ مشاريع لوحات وزواج.

عزيزى السيد البروفيسور الدكتور (أستاذ كرسى):

دون نية مسبقة، أنا على وشك اتباع إحدى نصائحك الحكيمة: رسم الناس التشيك. لكننى إذا كنت قد دخلت مقهى أوروبا، فليس للبحث عن شخصيات أو لون محلى، وإنما بحثاً عن فنجان قهوة تركية جيد.

إننى أراك من هنا تقطب أنفك السَّامىّ الذى منحك إياه الرب (حسب بعض النظريات)، ولم ترث مثله ابنةُ أخيك. وهذا من حسن الحظ. أعرف أن هذا المقهى هو مرادف لأدنى ما يروقك: برجوازية أوروبا الوسطى الصغيرة، اللاسامية، الجيرمانية.

ولكنه شىء آخر بالنسبة إلىَّ. فهذه المخامل الحمراء الرمانية المعفرة، والزينات الوافرة حتى

الغثيان (أعنى الغثيان الفسيولوجى وليس المعمارى)[1] وإلهات الحسن الثلاث الذهبيات، والمزهريات الصينية ١٩٠٠ وأشجار النخيل القزمة، وأصص الخزف الإيطالى الضخمة: وكل هذه الأشياء لها «عراقة» تشيلية، شىء مما استطاع أحدنا رؤيته أو تخيله فى بيوت أثرياء لم يدخلها قط، كأن نقول قصر كوسينيو، موضوعات خواكين إدواردز بييز، أجمل جوهرة لدى تاجر، سوق الزيك - زاك القديم، معرض المئوية، قصر تورو ماثوتى، بعض أركان سنتياجو أو بالبارايسو التى صارت غائمة فى الذاكرة، محل حلويات توريس. لست أدرى لماذا أحدثك عن كل هذا الذى يبدو أن له فى نظرك وقع «galimatiash» مثلما يقول التشيكيون بظرف شديد. كما أننى أخشى ألا تقنعك حججى، وهى أحاسيس أكثر منها حجج.

وباختصار، دخلتُ إلى المقهى ووجدت أفضل المناضد فيه مشغولة. فقلت لنفسى مثل لينين: ما العمل؟ وعندئذ توجهت إلى عمق المقهى، حيث لا يروقنى الجلوس بسبب قلة الضوء. وفى طريقى تناولت عن أحد الرفوف مجموعة من جرائد «أومانيته» تشير حوافها إلى قدمها، وأخيراً وجدت منضدة طويلة، لستة أشخاص، فيها مقعد فارغ. قلت بروسيم [2] فقالوا لى بروسيم، وجلست. وبعد فترة

(١) كلمة غثيان المستخدمة بالإسبانية arcadas، تعني في الوقت نفسه قناطر، ولهذا يؤكد عليه بأنه يقصد المعنى الفسيولوجى وليس المعمارى.

(٢) تعنى حرفيًا: أرجوك والكلمة تشيكية تفيد في استخدامات مختلفة، مثل: فضلك، اسمح لي، عن إذنك، تفضل، المعذرة، وغيرها.

صمت مناسبة، حوالى عشرين دقيقة، ظهر نادل. ندل مقهى أوروبا هم من طراز خاص أيضاً، مثل المزهريات الصينية. إنهم يشبهون ممثلين أرجنتينيين يؤدون دور الندل، بشواربهم ووجوههم الصفراء المستنفدة، وأنوفهم الغليظة شبه الاصطناعية مع الشعرات السوداء التى تطل من فتحتيها، وأفواههم الارتيابية الكبيرة والسمينة، ونظاراتهم، وحواجبهم الكثيفة شديدة السواد (أهى مصبوغة؟) تشكل ضداً للشعر الأبيض فى الصدغين، والعيون المائية، والأقدام المسطحة. وصيغ تعبيرهم القديمة «K sluz-bam» وهى كأن تقول بلغتنا «فى خدمة سيادتكم». موظفون مؤممون، مع الفندق، منذ العام ١٩٤٨،وفق قائمة جرد.

أطلبُ فنجان قهوة مزدوجاً. وأشدد على مزدوج. يُحدث طلبى موجة دهشة فى ما حولى، لما يتضمنه من تبذير، وفوق ذلك، بسبب تحامل تشيكى قديم معادٍ للقهوة. الجميع ينظرون إلىّ بمفاجأة، برثاء، بأمل مرضى فى أن يشهدوا حالة احتشاء قلبية. فأنا مشروع جلطة وشيكة. بين تلك النظرات الجانبية المواربة، أشعر بنظرة مباشرة. أرفع عينى وتكون «بوا» هى أول ما ألمحه. والبوا التى أعنيها ليست الأفعى الأمازونية الزاحفة المؤلفة من ثلاثة أحرف، وإنما هى نوع من اللباس عرفته حضرتك فى سنوات دراستك، سنوات «الملاك الأزرق» عندما كنتَ تلاحق بشبق ممثلات مقاهى كونزيرت. إننى أتحدث عن وشاح

وبرى أصفر، سلسلة من شىء يشبه جلود طيور الكنارى، كانت متأنقات الأزمنة الغابرة يضعنه خلف رقابهن الطويلة، ويتركنه ينسدل على الكتف الأيسر، ناظرات فى الوقت نفسه، بغنج، من تحت حواف قبعاتهن التى لها شكل المبولة.

هذا البوا ١٩٦٠ يثير فى النفس رغبات كثيرة، مثلما هى صاحبته. إنها امرأة مسنة من براغ. وفى مسألة العجائز، لا حاجة بى إلى القول إن براغ تتفوق على لندن، وعلى برلين (الشرقية والغربية)، وعلى فيينا أيضاً، وهذا من نافل القول، وربما كذلك على تالكا. تبدو عريضة، ولكن بملابسها أكثر مما بشخصها. لها رائحة عجوز، مع قلب صغير أحمر مرسوم فى الجزء الأوسط من فمها الذى مثل فم حيوان زاحف، والكبير جداً، بشفتين نحيلتين. وجه قوطى، مثل تلك التى تُرى فى كاتدرائية سان فيتو. ليس من أسفل، بين السائحين الذين ينظرون إلى أعلى بأفواه مفتوحة، وإنما من أعلى، من بين المزاريب الناظرة إلى أسفل بأفواه مفتوحة.

وبانعدام لياقة مطلق تقول لى هذه العجوز: Vous aimez le café bien fort? أتحب القهوة ثقيلة؟). هكذا بالضبط، بالفرنسية فى الأصل. فأقول لها: Oui, madame لأنها إن لم تكن ثقيلة فليست قهوة. تأخذ بالضحك. مشهدٌ كنتُ أفضل ألا أراه. تجعدات مريعة فى الوجه، وهو مريع بما يكفى فى حالة السكون؛

رذاذ من اللعاب، وصوت أجش وجاف ومكحوت سيئ التشخيص. خطرا يمكن لها أن تتفرط فى أية لحظة. دون لمس. أشعر بأن الوجه مشدود، كما لو أنه خرج مصوبناً.

تهدأ وتسألنى من أين أنا. وبما أننى أضجر من قول: تشيلى، وشرح ما الذى يعنيه هذا، وأين هو، قلت لها إننى أميركى لاتينى. تسمع أميركى فقط وتبدو حالمة: »خلال الحرب وبعدها، ساعدتنا أميركا كثيراً. ولكن، للأسف... «لا تكمل كلامها وترمقنى مترصدة لترى ردّ فعلى. فأطلب منها أن تشتم، لأنى آت من أميركا الأخرى، أميركا الجنوبية، التى ينهبها أمبرياليو الشمال. النتيجة كارثية: نوبة ضحك أخرى. وأخيراً تُخرج منديلاً أصفر نخرته العثة، لا شك فى أنه سابق للحرب العالمية الأخيرة، وتمسح قليلاً من الزبد عن شفتيها وتقول: «إذاً... أنت كوبى» استنتاج ذكى.

تراودنى الرغبة فى أن أقول لها أجل، وأن أنصرف لأضع حداً للحوار، لكننى أريد تناول القهوة، والقهوة لا تأتى. أهز كفى بغموض. عندئذ تمسك هى بطرف الحديث. (وكل هذا يدور بالفرنسية، فتشيكيتى سماعية، لكنها ضعيفة الحوارية، مثلما تعرف). تقول إن العالم قد تغير كثيراً، كثيراً جداً... يا لمدينتنا براغ الذهبية! آى، زفرة عميقة. صار من الصعب التعرف على براغنا اليوم، ومعرفة التوجه فيها صار صعباً على فتاة صبية (أتراها تشير إلى

نفسها؟)، كل شيء كان من قبل واضحاً، كان العالم مرتباً، كل شيء، كل شخص في مكانه. وكان القيصر يقول Hier herrscht Ordnung (هنا يسود النظام). كان العامل عاملاً. يلبس كعامل، يمشي كعامل، يبدو عاملاً. ترى إحدانا سيداً بقميص حريري أبيض، وربطة عنق، وقلائد، وصداري، وساعة، وبدلة قاتمة، جالساً في مقهى أوروبا، فتعرف من يكون، مكانته في المجتمع، والحي الذي يقطن فيه. ويمكن لها تقدير دخله، دون هامش كبير من الخطأ. كان المظهر يدل على الشخص. ولكن الحرب جاءت عندئذ...

«Et le socialisme...» (والاشتراكية)، قلت لها ملمحاً. «Ah, mais oui, ça surtout!» (آه،أجل، وهي بصورة خاصة)، تكبح ريالتها وتغمز لي بتواطؤ. ثم تواصل: «يمكن اليوم أن يجلس إلى المنضدة نفسها سيد مرهف جداً، له يدان بيضاوان، ويجلس إلى جانبه، مرتدياً البدلة نفسها ذات التسعمئة كورونا، عاملٌ متسخ الأظفار. وربما يكون ذو اليدين البيضاوين سياسياً متقاعداً، ومالكاً سابقاً لأسهم وبيوت وأموال في المصرف، ولا يتلقى الآن سوى ستمئة كورونا في الشهر. إنه لا يساوي شيئاً كزبون، بل من غير المناسب لإحدانا أن تُرى معه».

زبون؟ أي نوع من الزبائن؟ فكرتُ، ولكنها كانت هائمة: »في الأمباسادور، حيث كان يأتي الأرشيدوق في ما مضى لتناول القهوة، صاروا يقيمون الآن حفلات زفاف فلاحية. ولكن ليس لأسر قروية غنية،

من مزارعى عشبة الدينار، مع الجدات والأصهار وبنات الأخوة والحموات، وإنما زفاف سائق جرار من حلابة أبقار. ولا يكون العريس، أو العروس، هما أهم الشخصيات بين الحضور، ولا والد العريس، وإنما رئيس التعاونية، أرجوك. أو سكرتير الحزب. وبدلاً من تبادل الأنخاب، يلقون خطابات سياسية...».

ولأنها تنتبه إلى نظرتى الصارمة، تعترض بيديها ملتهبتى المفاصل: «أرجوك، لا تسئ فهمى. فهذا لا يعنى أننى معادية للاشتراكية، لا شىء من هذا. فالاشتراكية لم تسئ معاملتى، بالرغم من أن أخريات مثلى... (ضحكة، ولكنها قصيرة لحسن الحظ). إنها الخديعة (تقول ruse ، فيختلط علىّ الأمر للحظة، وأظن أنها تتكلم عن الروس)، هذه هى ruse (خديعة) الاشتراكية: تنسج وتنسج، مثل العناكب، وفى النهاية، حتى أشد المستائين لأنهم أكبر الخاسرين، يتلقون شيئاً ما من الدولة، يُطوَّقون، يصبحون تابعين، ويعتادون على ذلك. أنا لا أعرف شيئاً فى السياسة، لكننى أعرف بعض الأشياء عن الناس لأنى رأيت الكثير منذ طفولتى. سأكون جاحدة إذا ما احتججت. أعيش وآكل، لم يعد بمقدورى العمل، حسن، رسمياً على الأقل، ولكن لدى تقاعدى».

فأسألها:

«وماذا كنت تعملين حضرتك؟»

تنظر إلىّ بعينيها الضاربتين إلى الخضرة، بوجهها الضارب إلى الخضرة، ببقايا خصلات شعرها

الشقراء والضاربة إلى الخضرة مثل طحالب جافة أو كما لو أنها خصلات شعر مصطنعة وملصقة بالقبعة الضاربة إلى الخضرة. تبتسم: «ألم تنتبه حقاً؟ لقد كنتُ أعمل مع الرجال».

أفتح فمى مذهولاً. فتنحنى هى فوق المنضدة وتهمس لى، بالتشيكية فى الأصل:

«Já jsem kurva, ale kurva na pensi (*)

بينما أنا أتأملها وهى تضحك، يخطر لى أنه لا بد من رسمها بالأخضر، بألف درجة من درجات اللون الأخضر، مثل منظر مدينة كاتاماركا. إضافة إلى البنفسجى والأحمر. وفى الوقت نفسه أتذكر مجموعة كاملة من النكات المريعة حول انحطاط الدعارة. مثل من تقدم خدماتها مجاناً مقابل الحصول على «لقمة دافئة تدسها فى فمها» إلخ...

أسألها كيف حصلت على تقاعدها وعملها، حسب ما تصل إليه معارفى، غير وارد بين الأعمال التى تعتبر شرعية لنيل هذه المنفعة. فتلفت انتباهى إلى وجود تنويه إلى «مساهمة فى الأعمال المنزلية» التى بدا لها من الجائز الانضمام إليها. ومن جهة أخرى، تقول لى، هناك قانون يضم تحت جناح الضمان الاجتماعى التشيكوسلوفاكى كل الأشخاص المتقدمين فى العمر عند سن محددة، وليس لهم مورد أو دخل نظامى، بغض النظر عن نشاطاتهم السابقة.

(*) هذا يُترجم بالقول: «إننى العاهرة، إنما متقاعدة» (ج. ب).

«وهل تعيشين جيداً بهذا الراتب التقاعدى، هل هو كافٍ؟»

أسوأ نوبة ضحك فى الجلسة. وبعدها قالت لى: لا، فالراتب بحد ذاته مجرد تفاهة بائسة. ومع ذلك، سيكون جحوداً من جانبها عدم الاعتراف بهذا الاهتمام النبيل من جانب الدولة الاشتراكية، الذى لم تعرفه من قبل جمهورية ماساريك(*) ولكنها لا تستطيع الاعتماد على هذا التقاعد وحده. وبما أنها لا تملك أية احتياطات أخرى أو توفيراً، فإنها مضطرة إلى القيام بعمل ما.

«إياك أن تظن أنى مازلتُ» (وكانت على وشك الاستسلام لنوبة ضحك أخرى، لكنها ندمت وهى فى منتصف الطريق، وانهمكت بدل ذلك فى عطاس جامح، ثم تمكنت بعده من مواصلة كلامها) «لا، بالطبع لا. ولكن إحدانا قادرة، أجل؟ قادرة على تقديم النصح. فتيات هذه الأيام يفتقرن إلى الخبث. وهناك أيضاً مسألة الثقافة. لست أعنى أنها ليست أكثر الآن. فهذا لا شك فيه. بل هناك ما يشبه الإفراط. فالدراسة الآن أكثر بكثير. أهناك طفلة لا تقضى فى المدرسة عشر سنوات؟ أما من قبل بالمقابل... ولكن هناك أموراً أخرى لا يجرى تعلمها اليوم. فى السابق كانت تُلتقط من الهواء، من الشارع. فمنذ بلوغ الفتاة

(*) توماس جريجور ماساريك: أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الأولى.

سن السابعة عشرة، كانت تعرف ما الذى تريده، وكيف تحصل عليه. الشبيبة الريفية تكتسب المهارة بسرعة. (قالت هذا بحنين). اليوم تسود براءة عجيبة، تثير الارتباك. أضف إلى ذلك مشكلة اللغات الأجنبية. فعلى الرغم من التحولات الكثيرة، إلا أن الأمور ليست كما يجب أن تكون عليه حقاً. فالأمر المضمون إذاً، ولنقل الأكثر جدوى، هو البحث عن الأجنبى. هناك كثيرون منهم، لم يسبق قط أن وجدت مثل هذه الأعداد من الأجانب، ومثل هذا التنوع فى براغ. ولكن التواصل بالنسبة لفتيات هذه الأيام ليس سهلاً. فى المدرسة يتعلمن الروسية، ولغات أخرى بصورة أقل. لا بد من savoir faire هل تفهمنى؟ من الضرورى know-how

بدأتُ أفهم وقلت لها: «وهنا يأتى دوركِ أنت، بتجريتك الغنية...»

لم تقل نعم ولم تقل لا، لكنها بدت راضية. كانت تتحدث عن فتياتها مثلما تتحدث معلمة عن تلميذاتها. تشفق على أخطائهن. «أخطاء، أجل بالطبع، ليس هناك من لا يخطئ. حتى وأنا فى هذه السن، بالرغم من كل التغيرات، يمكن لى أن أسىء الاختيار. تظن إحدانا أنها قد اكتشفت أميراً عربياً، ربما مالك آبار نفط، ويتبين لها أنه مزارع بلغارى راتبه بالكرونات، أدنى من راتب سائق جرار».

نقلتها إلى الحديث فى ميدان محدد: «بناء على ما تقولينه، أنت أشبه بمستشارة فى ما يتعلق

بالزبائن... .«قامت بحركة غنج من كتفيها بينما هى ترتب وضع البوا. وفهمتُ حركتها على أنها موافقة. «بل وتساعدين فى إقامة التواصل معهم، بفضل ثقافتك اللغوية...»

«أجل... أعنى لا... أحياناً».

سألتها كيف تُرتب الاتصال. «إذا ما كنت أنا، على سبيل المثال، مهتماً بالاتصال بإحدى... فتياتك، كيف يمكننى عمل ذلك؟».

راحت تنبش مثل دجاجة فى حقيبة سوداء كبيرة ومستطيلة، من قماش سميك لا أدرى ما اسمه، مطرزة بقطبة مصالبة وخرزات صغيرة، ولها فى زواياها شرابات ذات أهداب. شىء متحفى. وأخيراً أخرجت قطعة قلم رصاص وكتبت شيئاً بصعوبة كبيرة على قصاصة ورق، طوتها ثمانى طيات قبل أن تسلمنى إياها. ثم قالت لى هامسة، بعد أن نظرت إلى اليسار واليمين:

«اذهب إلى فندق ألكرون. ستكون فى البهو هناك فتاتان. وربما ثلاث فتيات فى مثل هذه الساعة. اختر من تروقك منهن وأعطها هذه الورقة. هذا هو كل شىء».

فتحت القصاصة الورقية ونظرت إليها. كان مكتوباً عليها الرقم خمسة، وتوقيع. الرقم هو ما كتَبَته. أيكون معناه أننى الزبون الخامس فى ذلك اليوم؟ أما التوقيع فمطبوع بلون بنفسجى، لا شك أنه

طُبع بختم. وبدا لى أنه يقول شيئاً قد يكون ميلينا وتحته زخرفة روكوكية.

«ما هذا المكتوب هنا؟ ميلينا؟».

أخفضت عينيها متصنعة الحياء وهمست: .«oui»

«ولكننى، بالرغم من كونى أجنبياً، لا أملك عملة صعبة. أتقاضى راتباً بالكورونا، مثل ذلك المزارع البلغارى» قلتُ لها منبهاً.

وجهت إلىّ نظرة تأنيب: «لقد عرفت ذلك. تكفى رؤية ملابسك. ثم إنك تتكلم التشيكية. وبالتالى، أنت تعمل أو تدرس هنا. وإلا لما احتجت إلى تعلم اللغة التشيكية. ليس هناك من أجنبى يتعلمها ما لم يكن مضطراً. ومع ذلك لدينا فتيات أخريات للزبائن الذين يدفعون بالكورونا. (كانت تتكلم كما لو أنها مديرة شركة كبرى)، وبالإمكان تقديم استثناءات».

وابتسمت لى. ولكى أدارى تقززى، شربتُ القهوة فى رشفة واحدة، وكانت قد بردت. ثم دفعت الحساب، وودعت ميلينا، ووعدتها بالعودة للقاء معها فى يوم آخر فى المكان نفسه. تركتها وحيدة بابتسامة غامضة، قبالة قهوتها التى تجمدت وكأس «الستوك» الذى كانت قد طلبته قبل ذلك بساعتين.

سوف تتساءل حضرتك إذا ما كنتُ قد ذهبتُ فوراً إلى فندق ألكرون. أجل يا بروفيسور. دخلت كأمريكى من السكان الأصليين، مبدياً أقصى ما يمكن من التحجر على وجهى، فى ذلك الوسط المفروش

بالسجاد والأرائك، شيء أشبه ببركة رمادية ساكنة مع أرائك ضخمة كأنها أفراس نهر. وبالفعل، كانت الفتاتان هناك إلى جوار البار الصغير. إحداهما شقراء، لها ساقان مهولتان، تجلس كمن تمتطى حصاناً على مقعد مرتفع بلا مسند، كاشفة بذلك حتى بداية العانة، بدت لى نموذجاً للتصدير. وكانت جارتها أكثر فجاجة، أظنها أقرب لأن تكون ريفية، لكنها لا تخلو من جاذبية بخديها الملونين. مجموع عمريهما يقل عن أربعين سنة، بل أقل من ثمانى وثلاثين. جلتُ على المكان بنظرة دائرية، كما لو أننى أبحث عن أحد، وهربت بطريقة مخجلة.

على الرغم من كل جهودى، لم أستطع انتزاع ميلينا من ذهنى. وحتى الآن، بينما أنا أكتب، أراها طوال الوقت أمام عينى كما لو أننى مغرم بها. وبوصول الأمر إلى هذا الحد، أشعر أنى لن أستطيع التحرر منها إلا برسمها. وهكذا يا عزيزى البروفيسور، أرى أننى على وشك العمل بنصيحتك فى رسم «الناس التشيكيين؟» وإن كانت الشخصية التى اخترتها غير واردة فى قائمة شغيلة المدينة والريف الشرفاء الذين تكرمت حضرتك بعرضهم علىّ.

المسألة بالغة التعقيد، لأن صورة ميلينا تتبدى لى كصورة مزدوجة، تتجاور فيها مع صورة سيدة أخرى كانت لى علاقة معها منذ سنوات، منذ حوالى أربع

عشرة أو خمس عشرة سنة، فى مربع عشب مبلل خارج تيموكو. كانوا يسمونها الساحرة، وليس فيها أى شبه بميلينا. كانت تبيع الكستناء فى سلة، مع أنه لم يكن لها، وأنا واثق من ذلك، مثل عمر ميلينا شبه الدهرى (فالناس فى بلادى تشيلى لا يعيشون طويلاً، بالرغم من ندرة الحروب)، ولكنها بالنسبة إلينا، نحن التلاميذ الحمقى، كانت تبدو سرمدية العمر. غير أن ذلك لم يكن عائقاً يحول دون موافقتها بلا تأخير، ودون أن تنطق بكلمة، على طلبنا الجماعى بتقديم جميلها إلينا، مثلما يقول الإسبان، فى الروايات على الأقل، أو بعمل معروف لنا، مثلما يقول التشيليون، مقابل دفع أربعة بيزوات ونصف البيزو. كانت الساحرة تتفاهم فى هذه الصفقات دون كلام. نظرت إلينا وحسب، بعينيها المتوسعتين، السوداوين اللامعتين، ومدت يدها لتتلقى النقود، ثم استلقت على ظهرها دون إبطاء وراء بعض الشجيرات، وبحركة واحدة ليس فيها شىء من الرشاقة رفعت، فى الوقت نفسه، تنورتها السوداء وسحبت من بين ساقيها خرقة غامضة. أشعرتنا بالإحباط بساقيها المفتوحتين والمرفوعتين وهى تمسك بيدها اليمنى المحترسة سلة الكستناء التى تشكل، فضلاً عن ذلك الشىء الأسود، رأسمالها الوحيد، كما أظن. كانت رغبتنا فى الهرب أكبر من الرغبة فى الهجوم، لكننا كنا مصممين على أن نكون رجالاً، حددنا ترتيب الدور بقطعة عملة، كى لا يشعر أحد بالغبن. لاريناس كان الأول، وقد راوده

إحساس ـ كما أخبرنا فى ما بعد ـ بأنه يفرك عضوه الحساس ذا الخمسة عشر عاماً على لحاء شجرة كيّاى. بعد ثلاث دقائق، انتهى لاريناس وسقط جانباً. وقامت الساحرة، بحس عالٍ بالنظافة الصحية، بمسح نفسها باهتمام بالخرقة البيضاء التى تغطى بها الكستناء. وبينما احتل لاريناس موقع الحراسة (كان الوقت ليلاً تقريباً، وكان هناك ضباب كثيف، لا يمكن لأحد معه أن يرانا عن بعد ثلاثة أمتار، ولكن لا فرق، من أجل الاحتياط)، دخلتُ ببسالة فى الممارسة. بدأت أشتغل بالطريقة التى اعتبرتها ذكورية ومناسبة، مثل من يقطع حطباً، مثل من ينشر خشباً، دون لذة فى البدء. وكنت أفكر فى الوقت نفسه بالأرضية الترابية للكوخ الذى أمضيت فيه سنواتى الأولى، فى برميل كانت إحدى أمهاتى تحتفظ فيه بالبذور المخمرة، فى محراث خشبى مكسور كنا نستخدمه مع أخوتى لنلعب لعبة كاهوييّو (لعبة الحصان بالنسبة لحضرتك)، فى الدخان الذى يخرج من فتحة منتصف سقف الكوخ. وأخيراً... لكل شىء نهاية فى هذه الدنيا. وعادت هى تمسح ما بين ساقيها بالخرقة البيضاء، ثم جاء دور جونثالو، جونثاليتو الذى لا يمكننى نسيان وجهه الأبيض المذعور.

حسن يا عزيزى البروفيسور، ليست المسألة فى رسم هذا كله (وإن كان الأمر ممكناً أيضاً)، وإنما عكس الإحباط الذى شعرنا به بعد ذلك، بينما نحن فى طريق عودتنا إلى البيت، متشدقين بتعليقات

ذكورية لا يمكن لنا أن نخدع أنفسنا بها. إنه إحساس مشابه، فى رأيى، لما أحدثه فىّ اللقاء مع ميلينا. لكن الموضوع يتلخص فى نقل هذه الشحنة الانفعالية من خلال رسم للشخصية فى منتصف اللوحة، أريده عملاً واقعياً، إذا ما كانت هذه الكلمة تعنى شيئاً. وباختصار، لست أدرى ما الذى سيخرج من هذا كله.

على كل حال، معرض لوحاتى فى قاعة «نا بريكوبى» سيقام، وفق ما خُطط له، فى أواخر شهر مارس. بقيت أمامى أربعة شهور للعمل. إنه وقت كاف، كما آمل، لأن المعرض سيتكون، فى معظمه، من الأشياء التى جئت بها معى من تشيلى، وأنت تعرفها، وأشياء أخرى رسمتها هنا.

غير أن الهدف الأساسى من هذه الرسالة هو أمر آخر، وهأنذا قد تذكرته الآن. لقد قررنا أنا وإيفا أن نتزوج. إننى واثق من موافقتك. والسيدة ريبيكا موافقة، لكنها تخشى رفضك، لأنك «الذكر الوحيد على قيد الحياة من الأقرباء؟» حسب عبارتها الرائعة، وستكون لكَ الكلمة الفصل. ومع ذلك، أشعر بزهو الإحساس بالثقة بأن ردّك سيكون إيجابياً. وأنا بانتظاره، سواء بالبريد، أو بصوتك المباشر إذا ما جئت بنفسك إلى براغ. إننا راغبان فى الزواج فى الأيام الأولى من شهر إبريل. أظن أننى سأحصل فى ذلك الحين على النقود من ثمن لوحتين تركتهما فى غاليرى هاوزر فى فيينا، لأنهما قد بيعتا كما

أخبرونى. وإذا ما قُدر للأسماك التشيكية الحذرة أن تعلق بالصنارة، فسيكون بالإمكان إضافة ما سيُنتجه معرضى فى «نا بريكوبى» إنهم يعدوننى باقتناءات معتبرة للمؤسسات الاشتراكية يوليو ROH وMON و SOF وبعض الـ NV وهيئات أخرى رموز أسمائها أشد غموضاً. منحتى تنتهى فى شهر يوليو. ولدى بعد ذلك احتمالات طيبة للعمل فى وضع رسوم توضيحية لكتب ومطبوعات تجارية، وفوق ذلك فى تصميم مشاهد ديكور للتليفزيون والسينما. فضلاً عما يمكن للرسم بحد ذاته أن يوفره. جاليرى فيينا يريد لوحات أخرى من أعمالى.

لست أدرى أى براز يدفعنى إلى كتابة كل هذه الأشياء لك. إننى أبدو مثل عريس يهودى يسرد مزاياه وإمكاناته بالتفصيل قبل الزواج. أعرف أن هذا كله ليس مهماً بالنسبة إليك، وأن رفضك الرصين يستند إلى أسباب أخرى لا أوافقك عليها، لكننى أتفهمها.

لك تحية محبة من المتطلع إلى أن يكون صهرك وابن أخيك، ومن هو فى كل الأحوال صديقك الذى يقدرك ويحترمك.

هويركيو

ملاحظات على الرسالة الأولى

بالنسبة للمعاملة والألقاب التى يطلقها علىّ، الرسام يمزح، يقوده عدم تفهم هندى أمريكى لقيمة ألقاب أكاديمية فى مجتمعات نحن الأوروبية. إنها مسألة ثقافية.

لولا إهمال لا يغتفر من جانبى أضعت مغلف هذه الرسالة، لكان بالإمكان معرفة اليوم الذى أُرسلت فيه من خلال خاتم على طابع بريد، لأن هويركيو نفسه لم يؤرخها، مما يولد تردداً، يمكننى أن أؤكد أنه ليس قبل ١٥ ولا بعد ٢٨ نوفمبر١٩٦٠، خرجت هذه رسالة من براغ. معلومة تؤكدها حيثيات تالية:

أ) أرشيفى الشخصى محفوظ عادة بترتيب منظم، وفيه ترد هذه الرسالة بين رسالة أخرى من تلميذى بتاريخ ١٧نوفمبر وقصاصة من جريدة **ليدوفا ديموكراسى** فى ٢٣ نوفمبر.

ب) الرحلة إلى براغ، على أى حال، تالية للرسالة التى هى سبب الرحلة، جرت فى أول ديسمبر، وتذاكر قطار أوستى ناد لابيم/ براغ ذهاب ورجوع فى أرشيفى محفوظة.

ج) ولحظة ثالثة ترد في رسالة نفسها، حين يقول هويركيو عن وقت متوفر قبل معرضه في براغ.

هذا التحديد دقيق المظهر، أضيف أنه استنفدت جهود للعدول عن اللقاء الذى بدأ بداية فظة وانتهى بتوافق ودى، الفنان يتزوج من ابنة أخى العزيزة إيفا بيفانوفا، المولودة فى لِبيريك ١١ مارس ١٩٣٨عشية أعمال حربية. الزواج مدنى فقط بقرار من عريسين، وليس دون أسف وألم ينفطر له قلب صهرتى عزيزة ريبيكا (التى تربت على تقاليد دينية صارمة) وسيقام فى مبنى بلدية قديم فى المدينة قديمة، عندما يعلن استعراض رسل ساعة المبنى انتصاف نهار يوم ١٢ مارس١٩٦٠ . وقد يكون لإظهار تحد أو إهمال فنى، حضر عريس ببدلة سوداء ولكن دون ربطة عنق. تفصيل صادم يثير ضحك عروس وعبوس صارم فى ريبيكا، فهذا بالنسبة لها علامة تأكيد أسوأ مخاوف. تعانى تسرع خفقان قلب، تنفس لاهث، شحوب كامل، ارتجاف تعانى، وتسقط تقريباً من الترنح.

شاهد العروس الوحيد هو من يكتب هذا، يرتدى سترة حسب التقاليد، وهى، كما ألاحظ، على وشك الانقراض بدلة قديمة محفوظة بين الكافور منذ التخرج، عام ١٩٢٨ ومن أجل تكيفها على نحولى الحالى تسبب فى عمل شاق لرفيق دراسة قديم فى المدرسة، يعمل خياطاً، اسمه إلبرت بيرنشتاين، وقد اعتدنا تسميته ألبرت آينشتاين (مزاح أيام دراسة)،

وكل ذلك من أجل إدخال سعادة على أم العروس. وفى محل حلويات مجاور شربنا «جروج» (ويبدو أننى كنت بحاجة إلى تنشيط أيضاً أنا)، أتذكر اليوم كان بارداً، وغيوم قاتمة منخفضة من شتاء متطاول. من البرد كانت أذناى تئنان، ولكنى لم أشأ إحضار حاميات تدفئة أذنين خوفاً ـ يجب أن أعترف ـ من سخرية رسام مؤكدة.

شربنا إذاً شراباً منشطاً، وكانت تبكى ريبيكا من نذر مشئومة، وأنا بكلمات حذرة أحاول تهدئة أحزانها. تعداد مزايا عريس إنسانية، وكذلك مداخيل متوقعة من ممارسته فن رسم، زائد كأس الجروج الثانى، أخيراً هدأت صهرة عزيزة وتعدل مزاجها. وهكذا إلى مبنى بلدية قديم انتقلنا... فقط لنصل عندما عروسان وجماعة صغيرة من أصدقاء يقفون أمام أبواب زجاجية فى ارتباك يبتسمون لمصور، بينما عيون قلقة تبحث عن غائبين حاسمين: الشهود!

خبر كارثى علمنا سريعاً. الموظفون المستعجلون، تحت ضغط أربعة عشر عقد زواج! طقوس متشابهة متزامنة، وفى هذه الحالة بما أن أم عروس وشاهدها (هذا أنا) قد أنجزا من قبل توقيع محضر رسمى، وقدموا الوثائق، فإن كل شىء سيجرى باختصار لاعتبارات الفعالية ـ كما لو أن الأمر يتعلق بمصنع (حيث هذه فعالية ليست سائدة مثلما يعترف تقرير حديث للجنة مركزية للحزب) ـ وهؤلاء الموظفون، دون أن يصغوا إلى احتجاجات أو إلى حجج عقلانية،

قاموا ببساطة بتزويج عروسين. خطبة نصائح للزوجين البشريين الجديدين، استمرت ٢ دقيقة و٤٥ ثانية تقريباً. وقد أعلن هويركيو أنه لم يستطع أن يتحمل حتى النهاية تلك خطبة طويلة. وعملية تقديم، ورفع نخب، وشرب كئوس شمبانيا (روسية)، ١دقيقة و٥٠ ثانية. ريبيكا متجمدة صامتة، وأنا أحاول ساخطاً أن أقدم احتجاجاً، عندما طغى على حزننا استعراض رسل ساعة مبنى بلدية قديم وهو ينتهى فى تلك اللحظة بالذات بصورة كئيبة: يتوقف الموت عن هز الناقوس الصغير، وصوت تنهد وتحسر، صوت رعب وأسى «أووووو» طويل يُسمع، إنه صوت الديك معلن الزمن الذى ينقضى، لا يُعرف إذا ما كان يُحدثه صوت بشرى أو صوت جهاز أنبوبى.

لدى إفراط اهتمام بتفاصيل، وعجز عن إيجاز، واختيار غير مناسب لمغزى أحداث شهدتها فى السابق. لا شك بتأثير مرور زمن، وتردى محتم فى شرايين، فقر سقاية دماغ بدم. مع ذلك، رغم وعيى لداء، ما أزال لا أستطيع إلغاء إضافات صغيرة. كل شىء يبدو لى اليوم مشحوناً بأهمية. أرجو إذاً يا سيد مدير، أن تتجاوز بأريحية هذه عيوب.

فى كل رسائله موجهة إلىّ، كان هويركيو يوقّعها هكذا ببساطة، باسمه الفنى. أو بالحرف أول «هـ» فقط. ومن خلال أحاديث معه، عرفتُ تفاصيل مثيرة لفضول حول تطور ذلك الاسم. فى تشيلى كما لا تجهلون، آمل ذلك، كان اسم كامل حقيقى لرسام هو

أليرو ماتشوكا بايلاهويكى. وبما أن كنية ثانية هندية، كما تعلم يا سيد مدير، لم تكن تجعل سعيداً الطفل لأسباب تاريخية ويقضى بألم وكآبة أوقات دراسة فى مدرسة ومعهد فى مدينة تيموكو. وبعد الثانوية، تؤثر حالته فى وزير متبصر. ويتلقى فوق ذلك دعم مؤسسة محترمة: رابطة طلاب فقراء ,ومن جمعية جالفارينو الإثنية، ويحصل منحة دراسة فنون جميلة. ينتقل ليعيش فى عاصمة. ويحصل على اختصار شرعى لكنيته لتصبح هيكى، ولكن بسبب خطأ كاتب سجل يُكتب هيركى. الاختصار لم يخفف من مزاح جارح، يتولد من تفريق عنصرى فى تشيلى تنكره العادات، كما قال لى هو نفسه.

وفى ما بعد، فى أوروبا، بسبب خطأ عارض آخر عند نقل توقيعه غير واضح وطباعته من أجل معرض جماعى لفنانين تشيليين فى فيينا، تولد تسمية هويركيو. وفى بعض أحيان يكتبه هو نفسه فيركيو أو فيركين (مراسل فى لغته الهندية الأصلية). ومن أجل مزيد من تشوش، يظن ناقد نمساوى أن هويركيو وفيركين هما رسامان مختلفان، مزاياهما متناقضة.

فى وطن مسقط رأسه، لن تنقذه تماماً من التهكم العنصرى رسومه العظيمة بمناسبة معرضه فى سانتياجو (١٩٦٢) الذى تسبب، كما قلت، مواقف صارمة من ناقد جريدتكم المحترم الذى أحاول تصحيح موقفه. ج. ب.

الرسالة الثانية

إخبار عن سفر/ تعليقات على تعليقات حول معرض/ بعض الأدوات التشيكية/ أهناك خطأ تاريخي في قصيدة لبابلو نيرودا؟

عزيزى السيد جوزيف:

آمل مع قدوم هذا الربيع المبهج الذى يعصف بنا (هنا فى براغ على الأقل)، أن تكون آلامك العظمية قد استكانت. متى ستأتى لزيارتنا؟ إنهم يعلنون هذه السنة عن أحد عظمائنا الوطنيين التشيليين، «الميرو» آراو، كما يقول المكسيكيون. إنه يعزف مجموعة سونيتات بيتهوفن كاملة دون أن يتوقف ليلتقط أنفاسه، ودون أن ينظر إلى النوتة، ودون أن يغفر أدنى هفوة، بدقة آلة حاسبة. أعذرنى لهذا التدنيس الصغير لمشاعرك الموسيقية. فعازفو البيانو، ولاعبو الشطرنج، والعسكريون، وهواة جمع الطوابع ليسوا قديسين فى معتقدى.

يبدو أن اقتراناً سعيداً للكواكب يبشر برحلة طويلة، بالرغم من خطر الموت من العدوى بالكوليرا، ومن الاضطرابات السياسية-الاجتماعية، والإفراط فى تناول التوابل. وباستثناء حدوث خطأ أو إهمال، مثلما تقول الفواتير التشيلية بحكمة، سيجادر الداعى وزوجته الفاتنة فى شهر سبتمبر، بعد قليل من العيد الوطنى، إلى البلاد التى خرج منها بعض أسلافك الموقرين: العراق ، العاصمة بغداد. هناك من يكتبونها Iraq وآخرون يكتبونها Irak. عدد السكان ٧,٠٣٥,٠٠٠ نسمة، تتركز إقامتهم على ضفاف نهرى دجلة والفرات. وهى الأراضى التى تشغل ما كان يسمى بلاد (ما بين النهرين)، كما تقول، بحروف دقيقة جداً، نسخة من موسوعة كولومبيا وجدتها فى إذاعة براغ.

ما رأيك يا بروفيسور؟ إنهم يعرضون على إيفا عقد عمل لإعطاء دروس فى معهد للفنون التطبيقية. أما أنا فلا يعرضون علىّ شيئاً. نأمل أن نسافر معاً بمناسبة انعقاد مؤتمر اتحاد الطلاب العالمى. وهكذا سأحصل على بطاقة سفر مجانية، وهى أيضاً، وهذا يتيح لها استعادة قيمة بطاقة سفرها فى ما بعد. كلانا سنكون جزءاً من فريق عمل اتحاد الطلاب العالمى، أنا سأتولى ترجمة وثائق غائمة من الإنكليزية وربما من الفرنسية إلى الإسبانية، وستعمل إيفا فى كابينات الترجمة الفورية. إنها تدرس بانكباب تشيكى كى تصقل انكليزيتها وتطورها، مما سينفعها ليس فى المؤتمر فقط، وإنما كذلك فى الدروس (لأن اللغة

العربية صعبة جداً، مع أنها تُعمل فيها أسنانها بجرأة جديرة بالإعجاب).

أنا أحاول أن أستذكر فرنسيتى التى تعلمتها فى مدرسة تيموكو، وأعتمد فى هذا الشأن على ممارسة المحادثة مع العزيزة ميلينا المتقاعدة. لسوء الحظ أننى لم أعد أجد لها أثراً. لقد اختفت تماماً، بل كان يمكن لى أن أشك فى وجودها أصلاً، لولا أننى مازلت احتفظ بالقصاصة التى أعطتنى إياها وعليها الرقم ٥ وتوقيعها البنفسجى.

الخطة، فى ما يتعلق بى، تتلخص فى الحصول على عمل ما فى بغداد والبقاء هناك، إلى جانب زوجتى الشرعية، بعد انتهاء المؤتمر. يقال إن الحصول هناك على تصريح الإقامة صعب جداً، ولكن يمكن التوصل إليه ببعض المساعى. الراتب الذى وُعدت به إيفا يمكن له أن يغطى نفقات زوجٍ رسام ذى عادات متقشفة. أليس لهذا وقع اعترافات رجل صفيق تنفق عليه امرأة؟ إننى آسف جداً. أظن أن الأمر الأساسى هو توافر الوقت والظروف للرسم. فلدى كما تعلم طلبات من جاليرى فى فيينا. ومن الجلد نفسه ستُستخرج الأحزمة.

أفترض أنك قرأت المقالات النقدية عن المعرض فى صالة «نا بريكوبى» النبرة العامة راعية بعطف، كما هو مفترض، لأن الأمر يتعلق بـ «فنان شاب من بلد على طريق التطور يناضل للتحرر من الإمبريالية

وتطوير ثقافته الوطنية» وفق السياسة الثقافية للحزب الشيوعى. وهذا يدفع إلى تصفيق غير مشروط عندما تكون هناك أعمال ذات موضوعات محلية معالجة بطريقة تقليدية، ضمن إطار «الواقعية» وفى ما عدا ذلك هناك ملاحظات حذرة. حيرة أو تحفظ أو مرور عابر أمام لوحة «أوروبا ميلينا» التى كانت دون شك، بسبب أبعادها وموقعها، اللوحة المركزية فى المعرض.

كانت هناك حالتان استثنائيتان. الأولى تمثلت فى تعليق ميلوس سموتتى فى جريد «بلامين» وبما أن كاتب المقال يعاملنى جيداً، فقد وجدته فى ذروة الذكاء. إنه يتحدث عن ميل تهكمى، ساخر، ارتيابى، يبدو له «صحياً» ويعتقد أنه يرى نقداً أمريكياً (أميركا الجنوب) للثقافة الأوروبية، لما فيها من هرم، وانحطاط، ورجعية، وإن كان يفكر فى أن لغة النقد مصابة بعدوى الانحطاط وأنه إلى حد ما نقدٌ مناف للتاريخ، انطباعى، ومثالى فى التحليل الأخير. ولكنه يعترف مع ذلك بأنه ليس من العدل التفكير فى أن يكون جميع الرسامين الأمريكيين اللاتينيين مضطرين إلى التعبير عن أنفسهم بالأشكال التى ابتدعها المكسيكيون، كما أنه ليس من العدل المطالبة بتقيد فقير بالموضوعات المحلية أو مدعية المحلية، لأن الكائنات البشرية (والرسامين أيضاً، فهو يضمهم إلى الجنس البشرى) كلما سافرت فى عالم اليوم، واجتازت بحاراً، وقارات، تخضع لقصف معلومات

كونية، وتصطدم بعوالم متنوعة، وتشارك فى أفكار عالمية. الخطر هو فى كوزموبوليتية الفندق الدولى، غير أن محدودية الفلكلورية، الطرافة، لا تقلل من هذا الخطر. وفى الحالة التى نحن بصددها (merci!) جرى تفادى هذا الخطر. النواة الأساسية فى شخصية الفنان: الثقافة الهندية (؟)، الرؤية الأمريكية، هى السائدة.

حسن، الكلام كله يكون على هذا النحو إذا كنتُ قد ترجمت المقال جيداً، وإذا كانت إيفا، منساقة للوفاء الزوجى، ولم تخنى فى ترجمتها لكثير من المقاطع الغامضة. من المعروف أن الوفاء يقود إلى الخيانة. وخلاصة ما توصل إليه سموتنس هو مثل خلاصتك تقريباً، مع المعذرة لقولى هذا أيها السيد الدكتور.

تعليق آخر مهم كتبه ياروسلاف فيسيلى، وظهر فى جريدة «ليدوفا ديمكراسى» ويركز على الشكل، مستفيداً من ذلك بصورة عابرة فى مناظراته الشخصية. يقول إن رسم «التشيلى-المابوتشى» هويركيو هو قبل كل شىء عمل أشبه بالحياكة، وهذا لا ينفى امتلاكه مضموناً غنياً. «وهذا تأكيد لما جرى الإلحاح عليه من قبل فى هذه الزاوية بأن الرسم، بحد ذاته، وقبل كل شىء، هو شكل ولون. فعلى الرسام أن يعبر عن عالمه، عن رؤيته له، عن وضعه فيه، من خلال هذين العنصرين فقط وحصرياً، وكل

شحنة أفكار، كبرت أو صغرت، لا يمكن فصلها فى نهاية المطاف عن أى عمل إنسانى، وحيد ومحدد يتوجب نقله عن طريق ما هو بصرى وتجسيده بصورة محتملة فى المشاهد» ويعتقد فيسيلى فوق ذلك أن رسوماً كثيرة من الماضى علمتنا كم تبدو عابرة وسريعة الزوال تلك المرجعيات الأدبية ـ السياسية ـ الطرائفية التى أدرجها مؤلفوها بسذاجة. وبالنسبة لمشاهد اليوم، ما لم يكن مثقفاً، سيبدو له كل شىء بلا أى نفع، وغير قابل للتفسير... أو أنه سيكون عنصراً نافعاً للعمل أو فى العمل بمقدار ما يغنى الجوهر أو يندمج فى هذا الجوهر الذى هو التأثير البصرى شكل ـ لون.

ويقول إنه فى لوحة «مقهى أوروبا ـ ميلينا» وهنا يتفق معى فى اعتبارها اللوحة الأساسية فى المعرض، إذ يقول إنها «أهم عمل فى الموسم البراغى الحالى» (احم!) «تباغتنا البراعة الشيطانية التى يستخدم بها الفنان مجموعة ألوان تكميلية متراكبة ذات تأثير متموج عزوته للوهلة الأولى إلى تقنية فوتوغرافية» وهو يرى أن «الشيطانى» (ليس فى الفنان الآن، فليتبارك الرب! وإنما فى اللوحة) يتأتى من استخدام فريد لتدريجات الأصفر، والأخضر، والبنفسجى، والرمادى، والسيبيا، على خلفية حمراء رمانية «فاخرة» يضفى ملمح جثة على وجه ميلينا ذى الجلد المجعد المنكمش كما الرّق، المبودر والمتورد فى الوقت نفسه فى منطقة الوجنتين، «إنه عمل أشبه بشارع

مرصوف بأحجار يُنظر إليه من طابق مرتفع، حسب ما يكشف التفحص الدقيق بعدسة مكبرة عن مسافة قريبة (شديد التدقيق صاحبنا!)، ألوان تتوهج مثلما تتوهج جمرات شبه مغطاة بالرماد عند النفخ عليها، فى قماش المقعد ـ مخمل أحمر رمانى ـ، من أجل الوصول إلى أصفر كنارى متوهج فى الشال المحيط بالعنق الضارب إلى الخضرة، وهو عنق حرشفى، أتراها إيحاءات إلى عظاءات جهنمية؟» وينتهى إلى أن كل ما رآه يبدو له مشحوناً بالمعانى، والإيحاءات، والانفعالات، والشعر، لكنه فى الوقت نفسه تصويرى بصرامة، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يمنح قيمة للبقية كلها.

ما رأيك؟ إنه هرطوقى شجاع فيسيلى هذا. يمكن لما قاله أن يكون أكثر من مُرضٍ لى. لكن هذا السيد (وأنا لا أعرفه، لكننى أتخيله ناضجاً) يتحمس كذلك، وكثيراً جداً، للوحة رقم٧ «Zelezo a kovy» (وهى بالنسبة إلىّ «دكان الخردوات») التى تصور، كما يقول، «بدقة تبدو للوهلة الأولى فوتوغرافية، أحد أكثر متاجر الأدوات المعدنية ـ الحرفية تفرداً وجمالاً، وهو من تلك المحلات التى مازالت تحافظ على وجودها من عصر مضى فى مدينتنا القديمة» وأكثر ما هو مسلٍ فى تعليقه، طريقته فى معارضة هذه اللوحة مع لوحة ميلينا، فى لعبة أدبية بالغة الأناقة (لقد تعرفت إيفا حتى تمكنت من ترجمته): «إذا كان الفنان يطرح علينا فى ميلينا ما هو جاف ـ متجعد، ورطب فى

الوقت نفسه فى الوجه، وما هو ناعم وحارق فى الوقت نفسه فى المخمل، وما هو شائخ وباق على قيد الحياة بقوة الخبث، فى توالى تموجات ذات نعومة مخادعة فى سلسلة الألوان المذكورة آنفاً، فإن ما لدينا فى لوحة (Zelezo a kovy (أهو عمل سابق أم لاحق لذاك؟ لسنا نعرف. وإن كنا نميل إلى الفرضية الثانية) هى سلسلة من تدريجات الرمادى والأسود (والأبيض) الغنية بصورة غير متناهية، تكاد تكون دراسة علمية للموضوع، ونسيجاً يبدو فى بعض اللحظات حديدياً، واخزاً، فحمياً، خشناً، عدوانياً، إلى حد يُشعرنا بالحاجة إلى لمس اللوحة للتأكد من أن ذلك الإحساس لا ينتج عن كولاج أشواك دقيقة بارزة، وإنما من الرسم المحض، مثلما هو فعلاً» - أوف + أوف لهذه اللوحة. أشعر بأننى متخم بالإطراء.

باختصار، مديح كثير. لكننى لا أشعر بما يمكن القول إنه الغبطة. فتجربة المعرض والنقد أصابتنى بشىء من الكآبة. ومع أن هذا كله انتهى للتو، إلا أنه يبدو لى بعيد جداً، وأشبه بالقول إنه لم يعد يهمنى كثيراً. إذا ما قرأت إيفا هذا الكلام فسوف تغضب. وربما تفكر أنت فى أننى أقول هذا لأعزى نفسى من خيبة الأمل فى عدم حصدى نجاحاً أكبر. حسن، كان يمكن لى أن أفكر فى الشىء نفسه، لو لم يكن الأمر متعلقاً بآلية سيكولوجية دفاعية. الأعناب مازالت فجة و«أنت تعرف يا صاحبى، دسّ الجيتار فى مؤخرتك» ولكننى لا أظن ذلك. لا، حقاً. الأمر هكذا، أشعر كما

لو أنه شىء من الماضى. نهاية مرحلة لا أريد تذكر اسمها. أقول لك هذا وأنا أضع يدى على قلبى، أو على خصيتىّ، فالمرء يشعر بأنهما أكثر أهمية بكثير ولا يمكن الاستغناء عنهما.

أقول إن المهم، من وجهة النظر العملية، أن اقتناء اللوحات قد تحقق أو فى سبيله إلى التحقق. بل إن هناك طلباً من المجلس البلدى فى أوستى ناد لابيم: إنهم يطلبون فى رسالةٍ لوحةً زيتية، فى موضوع هندى أمريكى، يُفضَّل أن تكون لأطفال جمال، سود العيون، أبعادها متر ونصف متر تقريباً. هنا يمكن لبيدرو لوبوس أن يعيش أوروباه!. باختصار، إننى أخمنُ حركة مُجساتك اللطيفة، أيها البروفيسور الغالى. سأحاول التنفيذ، شكراً.

ما قلته أعلاه لا يعنى أننى انتهيت إلى الأبد من الموضوعات التشيكية. أبداً. الأمر يتعلق بأشكال التعبير. بالمراحل. ومما لا شك فيه أننى قبل أن أموت سأقوم بمقاربة كثير من الموضوعات البراغية، أو لنقل البوهيمية. كيف لا أفعل شيئاً عن المتممات أو الأدوات التشيكية، وهى تعبير راق عن الحس العملى الوطنى، وتتسلط على ذهنى منذ وصولى إلى براغ، منها على سبيل المثال:

أ) سخانات بيرة على شكل أقلام حبر، تُثبت بواساطة مشبك إلى حافة الكأس، وبغمسها فى الشراب الوطنى ترفع درجة حرارة بيرة بلزين من ١٢

درجة بفضل إشعاعات الحرارة التى تنتجها البطارية الكهربائية المتضمنة فيها، إلى حد ١٩,٥ درجة سيلسيوسية بالضبط، يشير إليها ترمومتر صغير جداً مركب جانبياً؛ وهى درجة الحرارة الوحيدة التى تتيح الاستمتاع الكامل بتذوق عشبة الدينار التشيكية، والماء التشيكى، والروث التشيكى، والمنظر الطبيعى التشيكى، ومزاج الجندى الطيب شفايك، وباختصار، جميع مكونات البيرة التشيكية الشهيرة وكل مكون منها على انفراد.

ب) مطاحن يدوية للقهوة، لها شكل قذيفة الهاون، تدار بواساطة ذراع تدوير صغيرة، ولها القدرة على طحن ١٨ جراماً بالضبط فى كل مرة، وهى الكمية الدقيقة الكافية لإعداد فنجانىّ قهوة تركية.

ج) مدفئات أذنين من جلد الأرنب، شبيهة بالسماعات التى يستخدمها عمال الإشارة العسكريون فى الأفلام الحربية القديمة، شرابتان بيضاويان وسميكتان متصلتان بشريط من الفولاذ المرن، مغلف بفرو وبرى، يمر فوق الرأس، فيغطيه الشعر جزئياً، أو تغطيه القبعة كلياً. وهى أداة مفيدة جداً لمقاومة برد الشتاء، ومفيدة أيضاً لما تسببه من صمم فى بعض الاجتماعات المعينة.

د) تمديدات أنابيب من مكاتب البريد تستخدم فى دارة مغلقة فى براغ، من أجل إرسال الرسائل بواساطة نظام «هواء مضغوط» أى رسائل تُدخل ضمن

إسطوانات كرتون صلب إنما رقيق تُشفط بضجة صغيرة حرجة وتُنقل عبر شبكة أنابيب من نقاط متعددة فى المبنى، فى الحى، فى المدينة، فى العالم (كشف حقيقى حول معنى كلمة «هوائى» وعبارة «أرسل إليك رسالة هوائية» اللتين أظلمتا بعدمِ الفهم قراءات مراهقتى للروايات الإسبانية أو الفرنسية فى بدايات القرن فى طبعات إسبانية).

وهذا يذكرنى باختراع (يستحق أن يكون تشيكياً) حققه أحد زملائى فى المدرسة. فقد صمم بكل دقة وتفصيل طاسة (هذه الكلمة، كما يبدو، لا تُكتب هكذا، ولكننى أرى أنها هكذا تبدو جيدة بما يكفى)، تُركَّب على حافتها، بواساطة صمولة، عجلة سنفرة ينقصها جزء؛ وعند تدوير العجلة، تدخل فى تماس متقطع مع ورقة زجاج مثبتة على الحافة، مما يؤدى إلى صدور صوت خفيف متكرر، حاك وناعم (بريش، بريش)، مناسب جداً لتحفيز الانعكاس البولى.

ولكننى أمضى بعيداً فى استطرادى، فلنتحول إلى أمور أكثر عمقاً. اكتشافك الخطأ التاريخى الذى اقترفه نيرودا، ولم تتردد فى تصنيفه بالخطير، يبدو لى بالغ الأهمية. فلا يمكن للمعنى، بالفعل، أن يكون «ابن غرام ليلة شتائية» مثلما كتب الشاعر، إذا كان قد ولد فى العشرين من أغسطس. أنت محق تماماً. لكن بعض الشكوك تنتابنى. فنيرودا ضليع جداً فى الشأن التاريخى. يقال إن لديه الكثير من الكتب القديمة، والوثائق، والملفات. وقد علمت أنه يقرؤها كذلك. ألا

تكون لديه حيثيات أخرى حول الموضوع؟ تسجيل الولادة فى الأبرشية بتاريخ ٢٠ أغسطس موجود بالفعل، لكنه ليس دليلاً حاسماً بالمطلق. ففى تلك الأزمنة، كان يمكن أن يمر وقت طويل بين الولادة والتسجيل. ربما سنوات. فالناس لم يكونوا متعجلين مثلما هم اليوم. لم تكن هناك مخصصات أسرية للأبناء. والطريق، إذا ما وُجدت، تكون رديئة جداً. كما إن الأمر، من جهة أخرى، يتعلق فى هذه الحالة بابن طبيعى. ويمكن أن يكون التسجيل قد تأخر إلى أن اقتنع السيد أمبروسيو بالاعتراف به. وربما كانت هناك مشاكل مع الكاهن، الذى قد لا يشاطر نيرودا حماسته تجاه أبناء «الغرام».

من المحتمل أن لدى الشاعر وثيقة ما تؤكد أطروحته. قد تكون، على سبيل المثال، رسالة من السيدة إيزابيل ريكيلمى إلى أمها، تشكو لها فيها من نوبات غثيان، قىء، اختلاجات، وحام، إلخ... مؤرخة فى أواسط سبتمبر ١٧٧٥ . آخذين بعين الاعتبار أن هذه الإزعاجات تحدث عادة فى الشهور الثلاثة الأولى من الحمل. ويمكن أن يكون نيرودا قد توصل إلى أن الحمل قد حدث فى الشتاء (وبالتالى فإن تاريخ الولادة سيكون مختلفاً). وهناك احتمال آخر بأن يكون الحمل ملحمياً، بمعنى أنه استمر ثلاثة عشر شهراً. فى الميثولوجيا الإغريقية هناك حالة مشابهة. أو ربما كان حملاً قصيراً جداً، من حوالى تسعين يوماً. وهذا أمر يبدو غير محتمل إلى حد بعيد.

ولكن، أتعلم يا بروفيسور؟ أخشى أن القصيدة ستتعرض لضرر كبير إذا ما وافق الشاعر، فى سبيل الحقيقة التاريخية، على استبدال بيت الشعر «ابن غرام ليلة شتائية» ليصبح «ابن غرام ليلة ربيعية». أو صيفية. أم أنك لا ترى ذلك؟ وأنا أرى على أى حال، أن واجبك العلمى هو إخبار نيرودا نفسه باكتشافك، وسيكون شاكراً لك دون شك على مثل هذه اللقية. وهكذا إذا هو لم يسحب القصيدة أو يعدّلها فى طبعات تالية، يمكن له أن يضيف هامشاً توضيحياً فى أسفل الصفحة.

وقبل أن أودعك، أريد التوجه باستشارة يمكن لك، أنت بئر الحكمة، أن تحلها. عند اجتياز جسر كارل والتقدم بعد ذلك فى الاتجاه نفسه عبر شارع كارلوفا (وهذا الذى أقوله عن الاتجاه نفسه هو أمر نسبى تماماً، وأنت تعلم ذلك، نظراً لميل شوارع براغ إلى الانحناء)، يصل المرء بعد بعض الوقت، وبعض الالتفاف، إلى بيت يبرز مُشكِّلاً ناصية صغيرة. وفى الزاوية نفسها، فى نوع من المشكاة، هناك تمثال قديس. لا البيت ولا القديس يبدوان قديمين جداً، بالمعنى الذى تُعتبر به البيوت والأشياء قديمة فى هذه المدينة. يبدوان نظيفين تقريباً، من حجر ضارب إلى الصفرة ورملى. القديس رياضى البنية ويرتدى حلة رومانية. ويبدو أن خصيتيه تهيجانه وتحثانه على الخطيئة الجسدية، ولهذا قدَّر أنه لابد له من استئصالهما. ويعرض لنا النحات القديس الذكَر أو

القديس ـ الذَّكر، من أجل التعبير بصورة رياضية، فى وضع بالغ الهدوء، منتصباً وليس منكمشاً على نفسه من الألم، كما هو متوقع من طباع أقل قوة، رابط الجأش مثل هندى أراوكانى تحت التعذيب، يرفع طرف جلبابه بيده اليسرى بينما يقدم باليمنى مباركته urbi et orbi (*) هذه الحركة فى رفع أذيال ثوبه، بمظهر غير محتشم، شبيه بما تفعله، حسب هوليوود، فتيات طائشات، لكنهن جميلات، على الطرق العامة فى الولايات المتحدة من أجل الحصول على رحلة مجانية، وعلى شىء أكثر، فى سيارات أو شاحنات. أقول إن لتلك الحركة هدفاً تعليمياً: إظهار كيف يسيل الدم فى قطرات ثخينة على امتداد الفخذ العضلى. وعند قدمى القديس، بجانب صندله، هناك كلب صغير وسمين، مرتبك ومذهول لحسن طالعه، وبعينين بارزتين بعض الشىء من محجريهما، يمسك بفمه كرتى خصيتى المتدين معاقب نفسه الكبيرتين.

إننى متأكد من أنك رأيت هذا التمثال النموذجى فى المبالغة فى طلب الغفران الذى يمكن أن يتحول، كما هو ظاهر، إلى نقيصة مشئومة مثل أى نقيصة أخرى. والتجلى المجيد لهذا الأسلوب الدينى هو ما حمله الإسبان باجتهاد كبير إلى أراضينا. واستفسارى بسيط أيها البروفيسور: أى قديس هو ذاك، ما اسمه،

(*) باللاتينية فى الأصل، وتعنى: إلى المدينة والعالم. وهى العبارة التي يبارك بها البابا المدينة (روما) والعالم. ويشار بها أيضًا إلى كل ما هو موجه إلى العالم بأسره.

وأى موقع يحتل فى سجل القديسين، وما أصله. وإذا كان ما أطلبه كثيراً، فإننى أريد اسمه على الأقل. أعرف جيداً أنك غير متخصص فى الأديان، وأقل من ذلك فى الشئون الكاثوليكية، لكننى واثق من سمعتك الكونية ومن حبك لبراغ. أنتظر ردك.

وداعاً. هل سنراك قريباً فى هذه الأنحاء؟ لك عناق ابن أخيك (تقريباً).

هويركيو.

ملاحظات على الرسالة الثانية

رسالة أعلاه مكتوبة فى النصف الثانى من إبريل ١٩٦١ استناداً إلى مجموعة إشارات يمكن أن تؤرخ. رسالة شديدة تمثيل لمزاج رسام: لقية كوميدية مفاجئة لوجه حجرى، لحظات فرح طفولى وسط تأمل جدىّ، خلفية لجوجة لكآبة مجهولة أصل. عند سؤاله ذات مرة عن هذا ملمح اكتفى بالرد، لست أدرى إذا ما كان جاداً أم ساخراً، أم كليهما معاً: «إنه حزن الهندى» مرات كثيرة ليس كان سهلاً معرفة متى جدياً، ومتى لا، أو تفادى ردود أفعال من سخط خيال خواطر بدت متدفقة. فى ما بعد، اكتشفت مفتاحاً ما، ربما حزن خفى فى وقاحة مزاج أسود من جيتو. ولم تعد هناك صعوبة فى فهم نية وفى معرفة ضحك خيال - لنقل بنزاهة - أمور رهيبة، فى ظروف أخرى تسبب أشد الدحض حدة.

بعد هذه رسالة ثانية، رسائل مستقبلية ستأتى من بغداد، فهذه رسالة أخيرة مرسلة من براغ.

لا أتوصل بتأمل منهجى إلى استعادة فى رأسى أحداث تلك السنة، منذ ربيع حتى مغادرة مسافرين وقد صارا زوجين. سمعت عزفاً عجيباً من سيد آراو لسنوتيات بتهوفينية خلال مهرجان. هذا لا ريب فيه

نظراً أنه غير ممكن فى سابق تذوق براعة أصابع معلم كبير وفنه إلا من خلال تسجيلات. من زيارته السابقة إلى براغ، حوالى ١٩٢٨ وكان شاباً نحيلاً بشارب ضخم، عرفت عنه فى الصحافة فقط: سحر بالغ الزخم والبراعة سحره كان آنذاك مثل اليوم. أقول: فى إ بريل - مايو كنت أنا فى براغ. ولكن لا أتذكر أنى التقيت مع رسام وزوجته، ربما بسبب غيابهما. فى ما بعد، باستثناء زيارة صيفية لأقارب فى لبيريك، يبدو لى أنى بقيت فى أوستى، ربما لتصحيح مخطوطه أستكملها: عمل ممل.

فلنترك الآن هذه فجوة ولنوجز على أى حال أننى فى أواخر سبتمبر أركب قطار إلى براغ لأودع مسافرين، كل شىء جرى مثلما أشارت رسالة هويركيو. ساعات وأيام أكثر سعيدة من حزينة، إذا تجاوزنا الوداع اليائس للعزيزة الصهرة ربيكا. هى التى لا تتمتع ببتر ساقيها فى فترات نوبات حادة، ألمها بسبب سفر يتبدى بحركات عصبية نحو وراء ونحو أمام على كرسى عجلات (أشترى بأدنى سعر من خلال ضماننا اجتماعى) وأخيراً، بكاء مريع بصوت عال، تهوى على درج متعثرة بسرعة كبيرة، مثل أدراج أوديسا ١٩٠٥ فى فيلم أيزنشتاين تاريخى. وجميعنا نركض لنلحق بها. لحسن الحظ عندما كانت تندفع لتصدم باب زجاجى، ومن خوف أغمضنا عيوننا، أوقف اندفاعها ضابطان أنيقان من شركة الطيران الإسكندينافية.

أيام قليلة قبل من ذلك، احتفال عام بهيج بمناسبة عيد وطنى تشيلى. فى غرفة باروك فى فندق صغير، درة معمارية فى مدينة نحن قديمة، حتى ثمانية عشر

تشيلياً وحفنة تشيكيين اجتمعنا معاً. شاب زعيم اتحاد نقابى طلاب دولى مع زوجة صغيرة سمراء لها عينان واسعتان هما أصحاب بيت. هى فقدت ابتسامة فجأة، برود بارز بدا بوضوح على ملامحها، حين سألتها بلطف: «مثل معلمنا عزيز هويركيو، أنت أيضاً من أمة مابوتشى، صحيح» لا شىء أجابت، ولم توجه إلىّ كلمة طول ليلة. عندما استفسرتُ من هويركيو بتكتم سبب ذلك تصرف، ضحك حتى بكاء، سعال، موت. أخيراً أكد، دون تمكن من كبح ضحكه، أن السيدة دون شك من قبيلة أخرى (وعدّد قبائل بيهونتشى، هويليتشى، تشونو، الاكالوفى)، وطبيعى أن يغضبها سؤالى. ويضحك أكثر. أصابنى ارتباك وانزعاج، وفى ما بعد، فى بيتى فى أوستى أدون بضعة أسئلة من أجل طلب توضيح تالٍ. لم تسنح فرصة قط لتلقى جواب (أعنى من جانب رسام)، ولهذا مازالت الشكوك عندى قائمة.

الأسئلة نفسها محفوظة فى أرشيفى تحت تاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٦١، وتحت عنوان «بعض أسئلة حول سكان أصليين تشيليين» وهى:

أ) هل مختلفة جداً لغات محكية لمختلف شعوب سكان أصليين فى تشيلى حتى لا يمكن بينهم تفاهم؟

ب) هل اختلافات إثنية، ثقافية، جسدية وغيرها بين سكان أصليين تشيليين محددة/مقرة علمياً؟

ج) بالنسبة إلى شخص أراوكانى، مثلاً، هل ممكن يعرف فوراً من ينتمى إلى شعب آخر من سكان أصليين أو شعبه هو؟

د) هـذا شـكل ظـاهـر لـعيـان من عـداء بـين شـعـوب أصليين تشيليين، هل شجع عليه فاتحون تحت الشعار ميكافيلى: فرِّق تسد، أو هـو بسبب حـروب داخلية أو بسبب أسباب بين قبلية؟

آه، أسئلة بلا أجوبة. إنها خطيئة. ولكن أنا أيضاً لم أرد على سؤال فنان عن قديس مخصى. وهو أيضاً لم يُعد أبداً بعث سؤال. ولا بد قول حقيقة، أنا حتى يوم هذا لم أحصل على معلومات لسؤال يقلقه، لأن مصادر عن سجلات قديسين فقيرة كثيراً فى جمهوريتنا اشتراكية. فى مكان محدد، وصفه هويركيو بتفصيل، شاهدت تمثال مذكور. ولكن عندما فى ما بعد كاتب هذه ملاحظات أراد عودة، كان قديس قد اختفى، ولم يكن ممكناً عثور عليه ثانية. وهذا ليس نادر الحدوث فى مدينتا قديمة.

فى التاريخ مذكور سابقاً، غادر مسافران ولم أعد أرى رسام. بعد بطاقة بريد مقتضبة لآثار أكروبول، عند مرور طائرة من أثينا أرسلتها إيفا، مع (هـ) فقط من هويركيو، ورسائل أخرى من بغداد بعد ذلك جاءت. وهى مستنسخة فيما يلى.

ج. ب.

الرسالة الثالثة

رحلة مرحة وإيقاعية جواً/ تأملات حول الإيقاعات/ لقاء مع المسافر الغامض/ أمغريات/ مظاهرة نسائية وتفسيرها/ بغداد فى الظهيرة.

عزيزى البروفيسور وعمى (تقريباً):

لقد وصلنا دون جديد إلى وجهتنا بعد رحلة كحولية وإيقاعية فى طائرة تى - يو ١٠٤ تابعة لشركة ايرفلوت، مزدحمة بالصف الأول من قيادات الاتحادات الطلابية فى حوالى عشرين بلداً من العالم الأول والثانى والثالث، وجزء لا بأس به من طاقم اتحاد الطلاب العالمى ونحن ضمنه، مثلما أخبرتك من قبل. وهذا يعنى بالنسبة إلى إيفا والداعى، إضافة إلى أشياء أخرى، توفير ثمن تذاكر السفر. ولولا ذلك لكان علينا تحمل نفقات السفر.

أنخاب الفودكا والسليفوفيتشى من فم الزجاجة مباشرة بدأت قبل بلوغ الطائرة ارتفاع ٣٠ ألف قدم

وسرعة الطواف. مرح المندوبين البرازيليين الذى لا يرتوى أصابنا جميعنا بعدواه، بمن فى ذلك التشيك، والألمان، وعدد من الشماليين المهق، ولا داعى لذكر الأمريكيين الجنوبيين. هذا المرح كان موسيقياً قبل أى شىء آخر. فقد كانت لديهم آلات موسيقية: هرمونيكا فموية، وجيتار، وقرعة بحجم رأس بشرى، مزركشة ومحاطة بعقود ثخينة من البذور، عندما تُدار وفقاً للإيقاع تُصدر صوتاً أحرش وحريرياً. لم يكن أىّ من الموسيقيين الثلاثة زنجياً. أحدهم، شعره أجعد، يكاد يكون بلون القرفة، وآخر أشقر، والثالث يمكن أن يكون إسبانياً (أو برتغالياً)، له وجه شاحب، وعينان وشعر سود. لكن الموسيقى التى يعزفونها أقرب إلى إفريقيا منها إلى أى قارة أخرى. وكانوا يتفاهمون على أكمل وجه مع أنهم، كما قالوا، لم يعزفوا معاً من قبل قط. إنه سر عظيم.

وجميعنا صرنا أفارقة. نتابع الإيقاع الذى لا ينتهى لموسيقى السامبا، والتشورو، ومارشينا، والباتوكادا، والله وحده يعلم أى إيقاعات أخرى بالأقدام، بالأيدى، طرق ملاعق على أطباق وقوارير، هزّ علب ثقاب، نقر على أى سطح صلب؛ وكنا نطلق كذلك صفيراً، وزمجرات وأصواتاً بدائية أخرى. المندوبون يرقصون على امتداد الممر الأوسط محتضنين بحماسة إحدى المضيفات الروسيات المربوعات، أو المندوبات القليلات، أو إحدى سيدات فريق عمل الاتحاد. لقد كان الموسيقيون رائعين،

يتبادلون آلاتهم الموسيقية، يعزفون عليها دون تمييز، يغنون منفردين أو فى كورال، وبين حين وآخر يطلق أحدهم صفير كرة قدم، تكون له فضيلة إحداث انبعاث فيض حقيقى من البهجة.

لم أعش سوى فى مرات نادرة أو أننى لم أعش قط مثل تلك العدوى بالإيقاع الإفريقى. أنا لست من المولعين بالرقص، بسبب الخجل أو «لا أدرى لماذا» كما يقول التشيليون كى لا يتحدثوا عن كوابحهم الثابتة. «لست أدرى ماذا يصيبنى» فى حالتى، ربما يكون هناك تأثير للدم المابوتشى. افتقارى السماعى ظاهر للرقصات السائدة فى هذه الأزمنة. لست أدرى إذا ما كانت إيفا قد حدثتك عن تجربتى المحزنة فى الزيارة التى قمنا بها معاً، بسبب إلحاحها، إلى **المقهى غير الكحولى** (ealkoholika Kavarna) فى براغ. فرقة تغلب عليها آلات نفخية هشمت (هذه هى الكلمة الدقيقة) الجو بمعزوفة تشالستون جيرمانية إلى أقصى الحدود، واندفع حوالى ثمانين شاباً من الجنسين للرقص بطريقة رياضية، مطلقين سيقانهم إلى الجانبين بحماسة اشتراكية. سحبتنى إيفا إلى منتصف الحلبة وبدأت تقوم بحركات مماثلة. وبدأتُ أنا، أمامها، بحسم أمرى للقيام بأول حركة عندما تلقيتُ ركلتين متزامنتين على كاحلى من شابين راقصين مع فتاتيهما. بالكاد تمكنت من جرجرة نفسى إلى منضدتنا، حيث حاولت أن أعزى نفسى بليموناده، بينما أنا أتعرق دون مدارة. وابنة أختك ـ ما رأيك يا

دكتور؟ ـ واصلت، وحيدة! فى تمارينها تلك، بعدم وفاء ظاهر. ولكنها لم تكن الراقصة الوحيدة دون رفيق، مما جعلنى أقدر مرة أخرى حب الشعب التشيكى للتربية البدنية.

لكننى أبتعد عن موضوعى. الإيقاعات المابوتشية مختلفة تماماً، إلى حد يمكن لـ «الهوينكا» (*) المتحاملين أن يعتبروها ضد إيقاعية. الكولترون، وأنت تعرفه لأنى أريتك إياه فى رسم توضيحى فى كتاب لاتشام، إنه طبل دائرى، يضم أحجاراً فى داخله. وعند هزه من أسفل إلى أعلى برفعه بالأذرع فوق الرأس، تصطدم هذه الأحجار بجلد الطبل وتصدر رنيناً. الإيقاع محدد حصراً بكثرة هذه الاهتزازات، مما يتطلب من العازفين، وهم شبان أقوياء، أن يكونوا بحالة بدنية عالية. فإذا كان هؤلاء، فلنقل، حوالى مئة، فإن التأثير مرعب للعدو. إنه دعوة إلى الحرب مشابهة للرعد أو لانهيار فى أعالى الجبل.

ولكن الكولترون يمكن أن يُعزف كذلك بطريقة أخرى. فهناك على الجلد رسم خطين يتقاطعان متعامدين فى المنصف. وفى كل واحد من الأجزاء التى نتجت عن هذا التقسيم هناك علامات مستقيمة ومنحنية تشير إلى القوى الأربع أو إلى عناصر الطبيعة. وفى ابتهالاته الدينية، يقرعه الماتشى

(*) هوينكا (huincas): تسمية أطلقها شعب المابوتشي فى تشيلى على الغزاة الإسبان، واتسع معناها ليشمل جميع من هم ليسوا من السكان الأصليين.

(الساحر) بمقرعته النحيلة، وهى عصا رفيعة، فى الوسط بالضبط، حيث يتقاطع الخطان. هكذا يستدعى القوة الأولية التى فى العالم السفلى، ربما فى مركز الأرض. قرعه ليس عنيفاً، وإنما هو أقرب إلى النقر؛ وقور لكنه ملّح، مثل من يطرق، بخجل، باباً مغلقاً وراءه كلى القوة الذى نحتاج إلى جميله. الإيقاع دوارى، يرافق دون تبديل تلونات الغناء الرتيب الذى يتعالى من شفاه شبه مطبقة، وعيون منخفضة، ويتابع باهتمام أصواتاً داخلية لا يسمعها الآخرون. وحركات الجسم، الرقص، هو أيضاً باتجاه شاقولى أكثر منه جانبى (المؤخرات هنا لا علاقة لها!) والإيقاع، لا أدرى كيف أصفه، ففيه فى نهاية المطاف من الصمت أكثر مما فيه من النقر والقرع، إنه إغماء صاف، كبح، مع توتر. «إنه شىء يجب أن يعيشه المرء؟» أقول هذا حيال ما أجده من صعوبة فى نقله، مورداً عبارة شهيرة كان يرددها كارو، زميل فى المدرسة الداخلية لم يتوصل قط إلى إثارة أدنى ابتسامة فينا بنكاته التى يرويها.

فى القرع الإيقاعى الإفريقى الذى يستثير بصورة ظاهرة الغدد الكظرية وأخرى غيرها، هناك ما هو أكثر، بدأت أكتشفه الآن للتو.

وفى هذه الأثناء ظهرت لنا مدينة أثينا. كنا قد بدأنا نشعر منذ بضع دقائق بنوع من الضغط فى الأذنين وفى الجبهة، وهى علامة على أن الطائرة بدأت بالهبوط، لكننا لم ننتبه إلى ذلك وسط الحفلة

البرازيلية. فجأة رأينا الأكروبول والبارتينون فى متناول اليد. لم أشعر من قبل قط بدقة هذه العبارة. كل شىء كان واضحاً بصفاء محير. المدينة تبدو بيضاء، دون أشجار، باستثناء صف من أشجار السرو يكاد لا يُلحظ عند أسفل الهضبة المتوحدة، والجرداء مثل مجسم ماكيت. الصفارة البرازيلية فقدت قوتها وانتهت بنشاز. خيم الصمت. الجميع التصقوا بالنوافذ. لم يكن يُسمع سوى هدير المحركات. بدأت الطائرة الدوران بأناقة، كما لو أنها تريد عرض المشهد، وأحسسنا أننا معلقون فى الفضاء وأن الأكروبول آخذ بالدوران حول محور، يعرض علينا أعمدته ورخامه المتساقط.

رفيقى فى المقعد، رجل نحيل فى حوالى الخمسين، ربما هو أكبر المسافرين سناً، احتفظ بصمت كامل حتى هذه اللحظة، دون أن تنتقل إليه عدوى الإيقاع أو شرب الكحول، نظر إلىّ وقال بقشتالية دقيقة: «أثينا تستحق قداساً».

هززت رأسى بالموافقة وقد فوجئت، وقلت له إننى ظننته، لا أدرى، فرنسياً، أو بلغارياً، أو ألمانياً.

أضحكه قولى: «لا أحد يحزر جنسيتى. إننى سلوفينى. مع أننى، فى الحقيقة، قد عشت على الدوام تقريباً فى براغ. وأنت تشيلى، صحيح»؟ قلت له أجل، بالطبع، «وكيف عرفت ذلك؟» لم يجب على السؤال. أخبرنى أنه عاش فى تشيلى حوالى إحدى

عشرة سنة، ما بين ١٩٢٨ و١٩٤٩ لقد فاجأه احتلال الألمان لتشيكوسلوفاكيا وهو فى باريس، حيث كان فى رحلة عمل. استطاع أن يرسل فى طلب زوجته. وبعد ذلك جاء قرار السفر إلى تشيلى مصادفة.

فكرتُ فى أنه لم يشأ العودة آنذاك إلى براغ لأسباب سياسية، وسألته عن ذلك بطريقة غير مباشرة. لكنه أجابنى بصورة مباشرة بأن فى ذلك جانباً من الصحة، لأنه شيوعى، إلا أن هناك المسألة اليهودية أيضاً. نظرتُ إليه بزخم فيه شىء من عدم اللياقة، والحقيقة أنه ما كان يمكن أن أقول عنه للوهلة الأولى أنه يهودى. كان وجهه عادياً جداً، يمكن القول إنه تشيكى (أو سلوفاكى)، أنف مستقيم، حاجبان كثيفان، شعر رمادى قاتم. وكان يستخدم نظارة.

تركنى أتفحصه، بابتسامة غامضة، ثم أخرج من جيب داخلى محفظة سوداء، مستعملة جداً. سحب منها بطاقة، قدمها إلىّ بانحناءة احتفالية. قرأتُ اسمه: ألكسندر فيسبيرك، وتحتها بالتشيكية: مهندس.

«متخصص بالمراجل» قال محدداً. ثم أضاف: «وما اسمك؟» أخبرته، وظل يفكر ساهماً، ثم قال لى: «تعرفت فى تشيلى على معلم يدعى ماتشوكا. إنه صاهر حديد جيد جداً».

هززت كتفى: «لا أظن أنى أعرفه. أنا من الجنوب. وفوق ذلك، هناك ماتشوكا كثيرون فى تشيلى».

بدأ حديث أبناء بلد واحد، يستذكر فى جانب ويستجوبنى فى جانب آخر حول موضوعات تشيلية محلية مثل:

أ) حلوى التشوكلوس.

ب) جبل سانتا لوثيا.

ج) نيرودا.

د) القنافذ المشوية على حطب الماتيكو.

هـ) زلزال عام ١٩٣٩ والجبهة الشعبية.

و) دون إلياس لافونتى.

ز) سوق غاث وتشافيس ومقهى سانتوس.

ح) مكتبات الكتب القديمة فى سان دييجو.

ط) فيكتور تيفاه وإرنست أوتهوف.

ى) المسرح التجريبى.

تحدثنا عن كل هذه الأمور بعد التوقف القصير فى أثينا (حيث وجدت إيفا نفسها مضطرة إلى إرسال البطاقات البريدية المعهودة)، وحتى الوصول إلى بغداد عملياً.

كانت إيفا تجلس ورائى وليس معى، لأنها أرادت انتهاز الفرصة لتبادل الحديث والاطلاع على أحداث اجتماعية عديدة مع صديقتها روزينا، زميلة سابقة فى المدرسة وجارة، وسكرتيرة إدارية فى اتحاد الطلاب العالمى، سمتها الأكثر بروزاً، وإرباكاً أيضاً،

فضلاً عن تكورات جسمها اللطيفة، هى نظرة نفاذة من خلال عدستى نظارتها السميكتين، لا يدرى المرء أينسبها إلى قصر البصر أم إلى ليبيدو جامح.

جارى الذى دخل معى فى ثقة حميمة، صار يدعى عند هذا المستوى «ساشا» قال لى: «وكيف هو جالو جونثالث؟ إنه بولشيفى حقيقى» أجبته: «كان بولشيفياً. فقد مات عام ١٩٥٨، السنة نفسها التى عاد فيها الحزب الشيوعى إلى الشرعية» أثر فيه الخبر، هز رأسه. ثم سألنى بعد ذلك إذا ما كنتُ شيوعياً. قلت له لا، وإننى فى الفنون الجميلة شاركتُ فى نشاطات للشبيبة الشيوعية، لها علاقة بطريقة ما بالفن التشكيلى، لكننى أفتقر إلى العقلية، أو الانضباط، أو الطموح السياسى. وجّه إلىّ نظرة صارمة وغرق فى صمت طويل.

بعد حوالى خمس عشرة دقيقة، لمس ذراعى وقال باقتضاب: «بغداد» نظرتُ من النافذة بينما الطائرة تميل وتبدأ برسم انعطافة. لم أر سوى صحراء يتلوى فيها نهر بلون القهوة، مع بعض الأحزمة الخضراء النحيلة على الضفتين. بعد ذلك رأيت بستان نخيل فى صفوف منظمة، وبينما نحن ننزل، رأيت ما يشبه سجادة بالية، أسمال ملاءة معفرة تمر بأقصى سرعة تحتنا: معسكراً فسيحاً من طوب طينى أمغر اللون. أيمكن لهذا أن يكون بغداد؟

أخفض ساشا صوته وقال لى: «سأظل هنا عدة أسابيع. ويطيب لى أن أتبادل مزيداً من الحديث معك

ومع زوجتك، بعد انتهاء المؤتمر. يمكنك الوصول إلىّ عن طريق السفارة» قلت له أجل، بالطبع، يشرفنى ذلك. ولكننى ظللت مذهولاً: كيف عرف أننى أسافر مع إيفا، وأنها زوجتى الشرعية؟ وكيف عرف أننا سنبقى لوقت أطول فى بغداد؟ لم تسنح لى الفرصة لأوجه إليه مزيداً من الأسئلة. كان لا بد من مغادرة الطائرة.

درجت الطائرة وتوقفت أمام مبنى المطار. كان يفصلنا عنه صف جنود مسلحين ببنادق آلية. بدلاتهم العسكرية ضاربة إلى الصفرة ومجعدة، تشبه بغداد من الجو. ذقون كثيرين منهم غير حليقة. لم يكونوا جيدى التغذية، ويمكن لهم أن يكونوا أمريكيين لاتينيين بوجوههم ومظهرهم. وراءهم، من فوق شرفة ومن خلال نوافذ كبيرة، كانت تُلَوِّح لنا بحماسة أذرع حوالى مئة شاب أو أكثر يهزون يافطات بالعربية (أفترضُ أنها ترحيبية). وبعد انتظار طويل، صار الحر فى الطائرة لا يطاق، نزلنا السلم وتقدمنا بين صفى طلاب يصل حتى صالة المطار. وبينما نحن نمشى حاملين أمتعتنا، كانوا يصفقون تصفيقاً إيقاعياً ويطلقون شعارات بوجوه متأججة وباسمة.

استولى أحدهم على جوازات سفرنا ثم أدخلونا بعد ذلك فى خمس حافلات كبيرة حيث جلسنا على المقاعد، بينما امتلأ الممر وكل الأماكن الأخرى المتوافرة بشبان محليين، الشىء الوحيد الغريب فيهم هى لغتهم الحلقية التى أحسست على الدوام

بصعوبتها حتى لأصحابها. إنها تكلفهم كثيراً: يتكلمونها بارتجاج، بعثرات، يخطئون ويصححون. ولكن، ما التأثير الذى نخلّفه فيهم نحن وهم يسمعوننا؟

انطلقنا أخيراً، وسط كثير من الضحك وبابل من اللغات، يضاف إليها مذياع الحافلة يصدح، بأعلى صوت، بأغنية كنت أظن حتى تلك اللحظة أنها أرجنتينية أو إسبانية «**يا مصطفى**» وكان بعض مرافقينا يترنمون بها أو يرافقونها بالتصفيق. بل إن أحدهم، وهو أسمر البشرة، وممتلئ، وله بروفيل جميل، راح يرقصها أيضاً، وكان يحرك عينيه وإليتيه بخبث وقليل من الذكورة، وسط تصفيق الآخرين.

كنتُ أنظر إلى الخارج بعينين مفتوحتين جيداً، كى أرى بهاء بلاد الرافدين العريقة، وجلال حضارات السومريين والأشوريين والكلدانيين القديمة، والقصور، وبغداد ألف ليلة وليلة وأمير المؤمنين. وما كنت أراه مجرد بيوت متداعية وسط سحب من الغبار الأمغر. وعلى امتداد طريقنا كله تقريباً. كانت هناك على جوانب الشوارع جماعات من الرجال والأطفال، وامرأة ما فى مسافات متباعدة، ينظرون إلى مرورنا بعيون ثابتة، دون أن يتحركوا أو يبدوا أى ردّ فعل عندما يغطيهم التراب الذى تثيره الحافلات.

وفجأة خيم الليل. ليل فاتر وصاف. كنا نمضى فى شارع عريض، ذكرنى بصورة مبهمة بشارع جران أبينيدا أو ربما بشارع سانتا روسا فى سانتياجو.

كانت تمر دكاكين مضاءة، أشبه بمكعبات ينقصها الوجه الأمامى. ويظهر وسط العتمة، بصورة ثابتة، مقهى يكاد لا يضيئه إلا حبل مصابيح صغيرة صفراء، مع خيمة ممتدة فوق قطعة من الشارع. خيمة... مجرد كلمة تقال: خرقة بيضاء تتهدل فى تعليقها على أربع عصى، وتحتها مقاعد خشبية على الرصيف المفصول عن الشارع بصف من الأحجار، ولكنه يفتقر مثله إلى الرصف. الغبار الأمغر نفسه هنا وهناك. وعلى المقاعد، كنا نرى على انعكاس الضوء رجالاً جالسين أو متكئين دون حراك ينظرون كالمنومين إلى جهاز تليفزيون، تمكنت أن أرى فيه رجلاً بالزى العسكرى يومئ بيديه.

بعد نحو عشرين دقيقة وصلنا إلى تقاطع شوارع، وكانت هناك فرملة مفاجئة. أسئلة وشتائم. الحافلة تحاول التقدم فى ارتعاشات واختلاجات فرملات جديدة. ظهر من إحدى النوافذ، إلى جوار السائق، وجه عسكرى بشارب وغاضب تفوه بضع عبارات بصوت أجش. ردّ السائق كما لو أنه يعتذر واختفى الوجه.

«ماذا جرى» سألتُ بالإنجليزية واحدة من مرافقينا، وهى فتاة ذات عينين لهما لون أخضر ـ رمادى، ضئيلة وجميلة. «هناك مظاهرة؟» قالت، دون أن تدخل فى التفاصيل.

وبمشقة كبيرة، من بين الرءوس التى سدت النوافذ، تمكنتُ من رؤية جمهرة نساء يرتدين السواد

ويمشين إلى جوار ما يشبه ساحة مستديرة وعارية. فى الجزء الأوسط منها، هناك جماعة من عشر نساء، بملابس الحداد أيضاً، يحملن لوحة قماشية سوداء كبيرة مكتوبًا عليها بحروف بيضاء (يجب أن تكون عربية بالطبع). المتظاهرات كن كثيرات، قدر عددهن بحوالى ألفين. بدأن الدوران، متوجهات نحو من يحملن اللافتة. سُمعت صرخات، وبعد ذلك أصوات كثيرة تردد بطريقة رتيبة ما يشبه ترتيلة. فى أحد الجوانب لطخة صفراء من الجنود، أسلحتهم على أذرعهم، ويقفون بصلافة.

سألت مجدداً، بإنجليزيتى الأولية عن سبب احتجاجهن. وردوا علىّ بعبارات غير مفهومة أو بهز الأكتاف. ومن نافذة السائق، ظهر مجدداً وجه الضابط، أشد حمرة من السابق. صرخ بصوت أجش حدّ الرهبة وقام بإيماءات وهو يشير إلى اتجاه. أبدى سائقنا بعض المعارضة، فهدده بالقتل (كما أتصور). وأخيراً، طأطأ رأسه، وأطلق نفير الحافلة، وانطلق بصورة مباغتة، منعطفاً فى الوقت نفسه نحو اليمين. سقطنا بعضنا فوق بعض فى كومة. وبعد ذلك راحت الحافلة تتقافز بسرعة كبيرة عبر طريق تملؤه الحفر حتى بلغت ناصية أخرى، حيث كانت هناك انعطافة أخرى. حدث هذا عدة مرات.

قرابة منتصف الليل، بعد مرور ساعة ونصف الساعة، وصلنا إلى مستقرنا، إلى مبنى دار الطلبة ذى اللون الرمادى الفاتح، حيث سنقيم.

فناء الدخول الفسيح يعج بالفوضى. فقد كانوا يلقون من شاحنة إلى الأرض، دون تروٍ، مئات الحقائب، بينما المندوبون يحبون على الأرض محاولين التعرف إليها على ضوء القمر. كان ثلاثة أو أربعة قياديين طلابيين عراقيين يشهرون رزم جوازات سفر ويسعون جاهدين ليجتمع كل منهم مع فريقه من المدعوين. ينادونهم صارخين بإنجليزيتهم الشرقية، كى يعرفوهم على غرفهم.

وهناك، فى أحد الأركان، كان يتأمل المشهد بنوع من الابتسامة، رئيسنا فى اتحاد الطلاب العالمى ـ بدين، أسمر، ومتهاون ـ السيد جيرى بيليكان، مع قياديين آخرين. عند اكتشافه، اندفعنا نحن جميع أعضاء فريق الاتحاد الحاضرين وأمطرناه بكثير من الأسئلة. لم يفقد فتوره. قال إن المؤتمر سيبدأ فى مساء اليوم التالى. وأن الرئيس الزعيم عبد الكريم قاسم سيحضر حفل الافتتاح. وسنكون أحراراً فى الفترة الصباحية للتجوال فى المدينة والشراء. هذا هو كل شىء.

طلبت منه إحدى السكرتيرات بنبرة حاسمة أن يوضح لها أمر مظاهرة النساء التى واجهتنا. فقال بهدوئه الدائم: «إنهن يحتججن يا رفاق لأن هناك محكمة عسكرية حكمت بالإعدام على جماعة من الطلاب. وبينهم رئيس اتحاد طلبة العراق».

تعالت صيحات رعب وسخط: «غير ممكن! طلاب محكوم عليهم بالإعدام! وما السبب؟ ومعهم

رئيس الاتحاد! لابد من إلغاء المؤتمر. وماذا سيفعل اتحاد الطلاب العالمى؟ هل سيصدر بياناً؟ يجب أن نحتج!»

كان بيليكان يبتسم. رفع إحدى يديه: «لحظة واحدة يا رفاق. علينا ألا نتسرع. To chce klid (*) نحن، أعضاء اللجنة التنفيذية، التقينا اليوم بالجنرال قاسم. استقبلنا بمودة وأعرب عن سعادته وتشرفه بوجود قادة الحركة الطلابية فى العالم بأسره هنا. قال إن المؤتمر هو تظاهرة تضامن كبرى مع الثورة العراقية المهددة بأعداء كثيرين وأقوياء. ذكّرنا أنه منذ تموز ١٩٥٨ جرت ثلاث وعشرون محاولة اعتداء على حياته. أعربنا له عن قلقنا لوضع الطلاب المحكومين بالإعدام. أبدى شيئاً من المعارضة. وبدا حزيناً تقريباً. قال إنه يشعر بالأسف لأن أصدقاء متآخين ومتضامنين يكلمونه فى هذا الأمر. علينا أن ندرك أن الموضوع فى أيدى العدالة العسكرية وأنه لا يستطيع عمل أى شيء. قلنا له إننا نتفهم وجهة نظره، لكن مندوبين كثيرين، مثل مندوبى الاتحاد السوفيتى، وفرنسا، وبلدان أوروبية أخرى، وكندا والولايات المتحدة سيحتجون، بل ويمكن أن يطالبوا بعدم عقد المؤتمر هنا فى ظل هذه الظروف. وإن عليه أن يدرك أنه سيكون أمراً بالغ التعقيد أن تبدأ أعمال مؤتمر فى اليوم نفسه الذى سيُشنق فيه رئيس اتحاد الطلاب. فقال: لا، إنه الرئيس السابق».

(*) «وهذا يتطلب الهدوء». من «الجندى الطيب شفايك» لجيروسلاف هاشيك.

«رباه!» قالت السكرتيرة، «لكن هذا ليس».

رفع بيليكان يده: «وأضاف الجنرال إنه سيتكفل بتهدئة قلقنا، ووعد بالتحدث إلى القاضى العسكرى من أجل تأجيل تنفيذ الحكم... على الأقل إلى ما بعد انتهاء المؤتمر».

حدث دوى احتجاجات جديد. لكن الزعيم الطلابى قال بفتور أشد من السابق: «يا رفاق، أرجوكم. علينا أن نتفهم. لا يمكننا إلغاء المؤتمر هنا بعد كل النفقات التى تحملناها. ثم إن هناك أسباباً سياسية. فالحالة هنا هى عملية ثورية تكتنفها تناقضات كثيرة، ولكن علينا دعمها. إنها حلقة أخرى تنفصل عن السلسلة الإمبريالية. أترانا ننسى أن بغداد هى مقر حلف السنتو، الحلف العسكرى العدوانى الإمبريالى لمنطقة الشرق الأوسط؟ علينا ألا نتدخل فى شئونهم الداخلية، وإن كان بإمكاننا، بتكتم شديد، أن نلمح إلى مثل هذه الحالات. ويجب ألا ننسى فى نهاية المطاف أنهم عرب».

وغادرنا بابتسامة جعلتنى أكرهه من كل قلبى، وتوجه إلى مقر إقامته، يتبعه أفراد سكرتاريته وحراسه الشخصيون. ولم يعد بيدنا إلا أن نحذو حذوه، بعد أن علمنا أنه لا يوجد شىء نأكله. أضف إلى ذلك أن الفطور فى صباح اليوم التالى فى الثامنة، ولكن فى مكان آخر. علينا أن نكون جاهزين قبل نصف ساعة لنذهب فى الحافلات. بعد كثير من التقصى تمكنتُ من استعادة حقيبتى (كانت إيفا قد

وجدت حقيبتها) وعرفت ما هو رقم غرفتى. وعرفت كذلك أننا سنكون فى طابقين مختلفين، لأن الطابق الثانى، مع حراسة مضاعفة، مخصص للنساء وحدهن.

الجولة فى وسط بغداد، فى اليوم التالى، سببت لنا انطباعاً عنيفاً. لم نر قصوراً، واستطعنا أن نلمح من بعيد فقط قبة مسجد مذهبة. كنا نمشى فى شوارع أقرب إلى الضيق، تعج بحشود صاخبة. حافلات حمراء بطابقين، لندنية بالكامل، تتقدم مثل فيلة، تطلق نفيرها دون توقف بين أسراب سيارات أمريكية طويلة الذيول، يشغلها على الدوام تقريباً شخص واحد بدين وأصفر، أحياناً بملابس عربية، مع الكوفية السوداء والبيضاء المعروفة على رأسه، وفى أحيان أخرى بملابس على الطريقة الغربية. هذه السيارات، التى يقودها سائقون يرتدون زياً متشابهاً، تنطلق بسرعة لا تُصدق وسط الجمهرة البشرية، على بعد سنتيمترات فقط من المشاة، متلوية مرة بعد أخرى فى مسيرها، بحثاً عن ممر فارغ وسط حركة المرور ومطلقة نفيرها دون توقف. وكانت تمضى فى الشارع أيضاً عربات بعجلتين تجرها أحصنة ضامرة؛ وصفوف من الحمير محملة بخروج مملوءة بالرمان (لا تخف يا بروفيسور، إنها ثمار رمان وليس رمانات يدوية) أو التمر. نساء حافيات، يرتدين السواد، يحملن حزماً هائلة على رءوسهن. شرطيون بقفازات بيضاء طويلة وطماقات بيضاء استعمارية؛ سادة

مهيبون، يرتدون ثياباً مهجنة: قميصاً وربطة عنق... مع وزرة عربية من الخصر إلى أسفل. شبان كثيرون يرتدون القميص والبنطال، يشبهون كثيراً أترابهم التشيليين. حمالون حفاة، بحبال ملفوفة حول خصورهم يعرضون أنفسهم لنقل أى حمولة. وأطفال، مئات أو آلاف الأطفال، بين الخامسة والثانية عشرة من أعمارهم، كثيرون بكثرة الذباب، يحومون فى كل مكان، حفاة، متسخين، سمراً، بعيون سوداء كبيرة، يكادون لا يختلفون عمن يعج بهم أى حى شعبى فى سانتياجو، مع غلبة ساحقة لذوى الشعور المجعدة.

فى شارع هارون الرشيد يبيعون صوراً فوتوغرافية. الباعة يعرضونها فوق أوراق صحف، على الأرض أو يعلقونها أوراقاً ملونة على الجدران على ارتفاع متر أو أكثر قليلاً. صورٌ كثيرةٌ منها لزعيم الثورة: قاسم عابس، قاسم باسم، قاسم يحيى، قاسم بقبعة عسكرية، قاسم جانبى، قاسم جبهى، قاسم ثلاثة أرباع. وهو وحيد دائماً. بعض الصور «ملونة يدوياً» خداه يبدوان بلون وردى خفيف، وعيناه زرقاوان. وأكثر الصور وفرة، بعد صور قاسم، هى صور جينا لولوبيرجيدا، مشاهد حب من أفلام قديمة فى نسخ فقدت ألوانها تقريباً، وصارت بالأبيض والأسود الأساسيين. وصور أخرى أكثر ألفة، لنيكيتا وفيدل كاسترو الذى يسمونه هنا كاستر.

رأينا كذلك بعض الأكشاك حيث يبيعون اللحم، أسود بالذباب. قطع اللحم، وهى متطاولة، غائمة

الملامح، مثل فضلات جيفة ممزقة بأسنان الكلاب، معلقة وعلى البائع أن يهزها، حسب طلبات الزبائن، بحركة ذكرتنى بموسيقى عجوز غريب الأطوار فى سيرك «أتايدى» يعزف فالس «على الأمواج» بهز متوال لحفنة أجراس صغيرة، مربوطة إلى سيور جلدية تتدلى معلقة من إطار معدنى. هنا لا توجد موسيقى، وإنما طنين الذباب وحده، صعب السماع. مع كل هزة لقطعة اللحم، ينفر الذباب مبتعداً لبرهة، مما يتيح للشارى المحتمل أن يحصل على فكرة تقريبية عما ينوى شراءه. العملية بحاجة إلى ممارسة وسرعة، لأن سحابة الذباب ترجع فوراً وتعود للالتصاق باللحم. أفترض (آمل!) أن شئ اللحم على السفود يُفحم آثار الذباب ويقلص من مخاطر الكوليرا.

فى مكان آخر رأينا ورشة أحذية ضيقة جداً، حيث كان رجلان أو ثلاثة حفاة يصنعون أحذية جلدية فاخرة. يراقبهم رجل يرتدى بدلة بيضاء، وربطة عنق حريرية، ويضع خاتماً من الذهب، وفى فمه سيجار، وبين أصابع يده اليمنى مسبحة الصلاة التى لا تغيب. جسده الضخم منغرس فى مقعد جلدى واسع. الصناع يشتغلون جالسين على الأرض، يشدون الجلد، يدعكونه، يخيطونه، ولكنهم عند أى أمر من رب العمل، يقفزون ويركضون لعرض البضاعة. افتقارهم إلى اللغة لا يخيفهم. يعرضون صفحات مقتطعة من مجلات إيطالية أو فرنسية، تظهر فيها، على شكل

إعلانـات، مـوديلات مـتـنوعـة من الأحـذيـة. يـضـعـون الأحـذيـة الـتى يـصـنـعـونـهـا إلى جـانب الـصـور المـلـونـة ويـقـومـون بـإيـماءات بـعـيـونـهـم، بـأيـديـهـم، بـأجـسـادهـم، بـأصـابـع أقـدامـهـم، فـى جـهـد جـنـونـى من أجل البـيـع. وفـى أثناء ذلك يبتسم البدين ذو البدلة البيضاء.

مـبـيـعـات لا حـصـر لـهـا لأشـيـاء لا حـصـر لـهـا، فـى تجاور غير متوقع: أكوام من بذر القرع المحمص إلى جانب ركام من ولاعات أتوماتيكية ماركة رونسون، وأكوام من الجوز وأقلام حبر باركر. هنالك فى هذا كله شىء أليف، وهناك أيضاً مع ذلك إحساس بغرائبية عظيمة، وبكون المرء على بعد آلاف الكيلومترات عن العالم المعروف، وبغم عدم فهم أى شىء على الإطلاق.

بعد ذلك وصلنا إلى سوق وتوغلنا فيه مبتعدين عن الجماعة التى كنا معها، وكانت تضم أشخاصاً من طاقم اتحاد الطلاب العالمى وبعض المندوبين. كانت تباع هناك سجاجيد (made in Italy) وكوفيات عربية قطنية بتصميمها الأسود والأبيض (made in England) ومنبهات .(made in China) وملابس رجالية (made in Czchoslovakia) وهكذا على التوالى. تقدمنا فى ممر ضيق وبدأنا نشم رائحة نتانة تزداد زخماً، هى بين البراز والأمونيا آتية، كما يبدو، من مجرور، يطفو فيه بتمهل سائل حليبى وكثيف. ومن هناك يتصاعد بخار سام. تحوم ذبابات ثقيلة، ذات مؤخرات معدنية لها ذلك اللون الأخضر ـ الأزرق البراق الذى يخيف الكائن

البشرى برسالته القبورية. عربى بلحية وعمامة نادانا صارخاً من باب متجر تظهر فيه سجاجيد ونحاسيات، قال شيئاً بدا لنا ما بين التهديد والتحذير. يمكن أن تكون دعوة للشراء، لكنه أخافنا. أردنا الرجوع مسرعين من حيث جئنا، وبعد أن ركضنا فى أزقة متعرجة، هاربين من الرائحة ومن الذباب... وجدنا نفسينا مجدداً فى النقطة نفسها.

ظهر الآن ستة أو سبعة عرب، بدا كما لو أنهم قد انبثقوا من الجدران، وراحوا يقتربون ناظرين إلينا بثبات. شرعنا بالهرب من جديد، بما هو أقرب إلى الركض، لكننا كنا نتصنع فى الوقت نفسه المظهر الطبيعى بابتسامات تؤلم وجوهنا من التوتر. وفجأة ظهر إلى جانبنا طفل يركض، سألنا: «Hotel? Street» ومدّ يده. ظننت أنه يريد نقوداً وأدخلت يدى فى جيبى. ولكن لا، ما كان يريده هو أن أمسك بيده وأتبعه. انصعت له. أعطيته يدى اليسرى، وأمسكت باليمنى يد إيفا وركضنا ثلاثتنا بسرعة كبيرة، منقطعى الأنفاس، عبر متوالية من المشاهد، والقناطر، والأزقة، مجتازين أفناء بيوت حيث يعلقون ملاءات. وفجأة وجدنا نفسينا نخوض فى مستنقع نتن، وننزلق بعد ذلك على منحدر مرصوف بأحجار مدورة، فاتحين باباً كما لو أننا سندخل بيتاً، لنكتشف أنها بداية زقاق آخر أشد ضيقاً وظلمة. بعد بعض الوقت ومسيرة بدت لنا أطول مرتين أو ثلاث مرات مما مشيناه عند الدخول، وصلنا لاهثين، متعرقين،

وقلوبنا فى أفواهنا، على بعد أمتار قليلة من النهر، تحت سماء زرقاء وشمس حارقة إلى حد لا يطاق.

النهر هو فصل قائم بذاته. إنه عريض، بطىء، مياهه بلون القهوة، ضفتاه أقرب لأن تكونا قاحلتين، رمليتين. رأينا فى منتصفه مركباً كبيراً جداً وثقيلاً، أشرعته منشورة، وهو ثابت فى مكانه. على الضفة المقابلة، وبين بعض النباتات القصيرة، يوجد صف من أربعة مدافع مضادة للطيران عند حافة بناء عربى ذى خطوط أنيقة. لكن إيفا لم تكن فى حالة تتيح لها التأمل: «علينا أن نعود لتناول الغداء. فالساعة تقترب من الواحدة».

نعود؟ قول ذلك سهل. ولكن كيف؟ لا يمكن التفكير فى العودة إلى دخول المتاهة ثانية. لم يكن دليلنا قد غادرنا. نظر إلىّ وقال: «Hotel? Taxi?» فأجبته مثل طرزان: «Taxi, yes. No hotel. Dar Talaba». أصابه ذلك بنوبة ضحك، وكرر عدة مرات: «دار طلبة... دار طلبة» ثم قادنا فى مسيرة عودة إلى شارع هارون الرشيد، وتركنا فى سيارة فورد من أزمنة جين هارلو، يقودها شاب باضطراب، أعادنا إلى مقر إقامتنا فى ثلاث دقائق. طلب منى عشرة دولارات. أعطيته خمسة. هز كتفيه، ثم تناول الورقة النقدية وانصرف.

ألاحظ أنه لا وجود لأى قوام فى هذا، لكننى أشعر بحاجة كبيرة إلى رواية كل شىء، ربما كى أثبته فى ذاكرتى. فهذه (أعنى الرسالة، وليس الذاكرة)

سأرسلها إليك مع مسافر تشيكى، يدعى «نوفاك»، مثل شخصية الدعابات، سيغادر مساء هذا اليوم بالذات إلى براغ. وعدنى بأن يوصل الرسالة فوراً. المؤتمر سيبدأ بعد حوالى ساعتين، وخلال انعقاده لا أظن أننا سنتمكن من الاتصال بك. إيفا على ما يرام، المناخ لا يؤثر عليها بأى حال، إنها تشرب فقط مياهاً معدنية، أحضرها على سبيل الاحتياط زملاؤنا بكميات كبيرة، وهى تتقدم بصورة رائعة بالعربية. إنها تطلب منى أن أرسل إليك كل محبتها. ومن جانبى، أعانقك وإلى الرسالة القادمة.

. هـ.

ملاحظات على الرسالة الثالثة

السيد نوفاك ما كان سريعاً مثلما توقع رسام، لأن هذه رسالة ثالثة لم أتلقها حتى يوم أول من نوفمبر، يوم جميع القديسين عند الكاثوليك، أو يوم جميع الموتى، لا يمكنني تحديد بالضبط، مع أن هويركيو يقول إنه لا فرق لأن الموتى سيئو السلوك لا يُعرفون؟ إنه مزاحه. ولكن ربما كان ذلك التاريخ نذير شؤم؟ الصمت طويل بعد مغادرة مسافرين بدا تراجيديا تقريباً. لأن صحافتنا نشرت، بتأخير معهود، كارثة طائرة أيرفلوت ١٠٧ سقطت فى جبال تاترا، بالقرب من سكالناتى بليسو، وهى تعيد إلى براغ عدداً من مندوبى مؤتمر طلابى وموظفى اتحاد طلاب. نحن يمكننا نكون مطمئنين نظرياً بشأن أفراد أسرة، لأن إيفا وأليرو (دوماً أستغرب هذا اسم، لهذا نادراً ما أستخدمه لهويركيو) على الأقل سنة فى بغداد يُنتظر أن يبقوا، ولكن هذا لا يمنع على أى حال عزيزتنا ريبيكا من الشعور بيأس متزايد، بسبب عدم وجود رسائل مؤكدة. من مستحيل بحجج عقلانية صرف انتباهها. تلوى يدين، تبكى بإجهاشات قوية، وأنا تؤنبنى لأنى سمحت بأن تتزوج أجنبى أمريكى جنوبى، وتسافر إلى بلدان همجية، أخيراً عانت من إفراط توتر، وكان إجبارياً إدخالها مستشفى.

ترجمتُ رسالة لها، ليس دون تنقيح قبل ذلك من كلام فجور، ومعها بطاقة بريد من إيفا، بدّل هذا حالتها. ولكن ليس جميع مخاوفها تلاشت.

لا شيء يجب أضيف إلى مدينة إكزوتيكية وبائسة، فالرسام بليغ فى وصف. ولا تعليق على إيقاعات وموضوعات أخرى. كل شيء يتحدث عن ذاته.

مجبر مع ذلك أن أتكلم (لأنه سيظهر فى ما بعد) حول مكالمة تليفونية غريبة غير متوقعة تلقيتها مساء أحد أيام فى بيتى فى أوستى. صوت أنثوى، مجهول لى، مغموم بقدر ما هو فى الوقت نفسه خشن وناعم، إذا كان هذا ممكناً القول، وأعلنت أنها تكون روزانا كمينوفا، موظفة فى اتحاد طلاب عالمى. ورسالة شخصية مباشرة من بغداد تحملها لى. وترفض إرسالها بالبريد كما يستدعى المنطق. تريد تسليمها شخصياً لأنا ولا تستطيع المجىء كذلك إلى أوستى ناد لابيم.

معضلة مزعج. اهتمام واضح برسالة لدىّ. وسفر إلى براغ ليس ضمن خططى، فغياب مفاجئ فى فترة مسابقات طلابى، يسبب مشاكل إضافية... لكننى فجأة وبتأثر غريب أسمع نفسى أرد على روزينا بنعم، بالطبع، يمكننا اللقاء فى براغ و.. أين، أرجوك؟ وهى متأكدة من هذا جواب تقول: ساحة تيل، يوم خميس، ساعة ١٢. وأوافق فوراً، وما إن أغلق تليفون، حتى أمسك وجنتى بقبضتى بذهول وأقول لنفسى: جوزيف، جوزيف، ماذا حدث لك؟ تى، تى، تى(أنت، أنت، أنت) عجوز داعر، لن تتعلم أبداً؟

ومرة أخرى رحلة لانهائية فى «قطار أشخاص» مثلما فى بلادنا نسمى قطار يتوقف حتى فى أبعد محطات أرياف مجهولة ومنسية دون جدوى (لا أحد يصعد، لا أحد ينزل). وفى ساعة موعودة كنت فى ساحة تيل، وبارتباك سخيف، مثل موعد شاب عاشق، تنتظر السيدة. وصف موجز أجد لها فى رسالة هويركيو (رقم ٣وهو دقيق جداً، خاصة نظرة متفحصة مُقلقة من خلال نظارة سميكة. يجب أضيف فقط أن فيها شيئاً من توتر أو ارتجاف وتضوع دافئ أو هالة تجعل مستحيل عدم مبالاة بها. عينان زرقاوان، زرقة قاتمة بارزة (ليس مثل زرقة عينى إيفا، ابنة أخى الجميلة)، أنف صغير عادى، شفتان ملليمتريتان أكثر امتلاءً من قاعدة تقليدية، وجسد يمكن، دون مزيد، وصفه بجسد ربة. نقطة عرق دقيقة جداً مثل قطرة ندى تهتز فوق شفة عليا، وتفحص وجهها عن قرب (احتياطاً وضعت على أنفى نظارة طبية تفضيلية تكبير من أجل قراءة أصغر حروف) عالى اللون، متبدل التلونات، يظهر على وجنتين وخدين زغب شبه ميكروسكوبى قاتم، بل أقول إنه زغب أسود، يزيد من جاذبيتها. ومثير لفضول، عندما حاولت استحضار صورتها فى أيام تالية، وجدت مستحيل تذكر أو تحديد دقيق ملابسها: هل كان رداء مطرياً أزرق لون؟ فستان، بلوزة وتنورة تحت معطف قماشى أزرق؟ سر كبير! فقط إحساس بالأزرق بقى لدىّ. هل كان إدراكى يتوجه إلى جسم مباشرة، وكل ما يلفه متروك جانباً؟

الحوار تالى جرى فى مقهى مجاور، وأعيد استنساخه بدقة بفضل تدون فورى له، وهو أمر أهنئ نفسى عليه كما سيرى السيد مدير جريدة فى ما بعد.

روزينا: أنتَ إذاً... البروفيسور دكتور بيران.

جوزيف: أجل، ولكن... ألقاب أكاديمية غير ضرورى... أنا يسمى جوزيف.

ر: (ضحكة مقتضبة، أسنان طبيعية سليمة جداً) جوزيف... لا يمكننى مناداتك هكذا بسبب الاحترام. ربما أناديك بيبيك...

ج: (يحمر بخجل تلميذ مدرسى) كما تشائين.

ر: المعذرة، مجرد مزاح. حسن، أنا كنت فى بغداد فى مؤتمر طلاب. أعرف إيفا، ابنة أخيك. وكانت جارتى هنا فى براغ، وصديقة أيضاً.

ج: أنا سعيد.

ر: فى رحلة تعرفتُ على رسام، صديقك. هما متزوجان؟

ج: أجل، لقد اتفقا وحدهما. فى براغ تزوجا قبل سفر.

ر: (صمت).

ج: هى لديها عقد تعليم نسيج تصميم فى بغداد، مدة سنة، أنت تعرفين بالتأكيد. عقد قابل لتجديد. هويركيو سيعيش هناك هذه فترة يقوم بعمل فنى. يهيئ معرض كبير فى بلاده، تشيلى، يحضر له.

ر: لحظة، كيف قلت اسمه؟

ج: هويركيو. فنان جنوب أمريكى.

ر: إيفا لا تسميه هكذا.

ج: لا شك أنها تستخدم اسمه حقيقى: أليرو.

ر: (قهقهة مدوية) أليرو! مضحك...

ج: مضحك؟ لا أرى السبب.

ر: (مزيد ضحك. وأخيراً تكبح نفسها) هو إذاً فنان كبير فى بلاده؟

ج: فى رأيى، نعم، فنان كبير. ولكن ليس فى بلاده للأسف، هناك لا يعرفه إلا أساتذته، ومريدوه، أو نقاد متخصصون. لا أحد نبى فى بلده. سيتبدل هذا دون شك بعد معرضه فى عام قادم. لا يمكن أن يظل مجهولاً اكثر.

ر: هممم، مثير لفضول. ولكنه فتى جداً.

ج: أجل.

ر: كم سنة؟

ج: ثلاثون سنة سيكمل قريباً جداً.

ر: (مفكرة) أجل... شاب. يبدو أصغر. زوجى عجوز. (توقف قصير) وغيور إلى حد لا يحتمل.

ج: عجوز؟ مثلى؟

ر: (تتفحصنى بكل وقاحة) لا أعرف. ربما. لحية تزيد من عمر حضرتك، وكذلك النظارة. ولكنك تحتاج إلى نظارة بكل تأكيد. لماذا لا تحلق لحيتك؟

ج: (مرتبك جداً) لا أدرى. ربما أحتاج إليها كبروفيسور. من أجل الاحترام، هل تفهميننى؟ بسبب قصر قامتى. إلى جانب الشباب المعاصرين أجد نفسى قزماً. ولكن... يمكننى أن أحلق لحيتى. ولم لا؟

ر: (مفكرة فى أمر آخر) ولكن صهرك الشاب... لا، انه أشبه بابن أخ لك، لا يبدو أمريكياً لاتينياً تقليدياً. فى اتحاد الطلاب تعرفنا على كثيرين. إنه... كيف أقول

ذلك؟ ليس متعجرفًا، وليس كثير كلام، أقرب إلى الصامت مثل قبر، ولا أدرى... فيه شىء شرقى كما يبدو. ويعطى... إحساساً بقوة خاصة.

ج: أرى أن فنان شاب يهمك... أكثر، دون شك، من هذا بروفيسور عجوز.

ر: (ضحكة مجلجلة) لا تقل لى إنك تغار من ابن أخيك أيها بروفيسور دكتور. لا حاجة إلى ذلك. (مزيد ضحك). إذا كان يهمنى فلأنه زوج صديقتى إيفا. الحقيقة كل الرجال يثيرون الاهتمام. أنا وإيفا نعرف بعضنا منذ أزل، دوماً نعيش فى حى نفسه، حى ستريوسوفيتش، وفى بيتين متجاورين. لم أفكر قط أنها من أجنبى تتزوج، وخاصة لاتى.

ج: أجل، حسن. (محاولاً استعادة رصانة فقدها قليلاً) أنتِ أحضرتِ لى إذاً رسالة من بغداد؟

ر: هل صرت تريد أن نفترق؟ ولكن، بروفيسور دكتور... لم أكن أنتظر منك هذا. حسن، أرى أنك بعض الشىء قلق. لا تخف، زوجى لا يأتى أبداً إلى هذا جزء من المدينة. لاسيما فى هذا وقت، وفى هذا مقهى. (تسلمنى رسالة).

ج: إننى ممتن جداً. فى ما بعد يجب أن أكون بهدوء أقرؤها. صهرتى ريبيكا، أم إيفا، قلقة جداً بسبب خبر طائرة سقطت مع مندوبى مؤتمر فيها.

ر: (يتبدل لونها) رهيب! لم أستطع تقبل الأمر بعد. مات أصدقاء أعزاء، زملاء عمل. ألينا هيرمانوفا، كانت مثل أخت بالنسبة لى. ومندوبان برازيليان، جميلان جداً،

مرحان جداً... (شبه باكية) وآخرون غيرهم. وعندما أفكر فى أنه كان يمكن لى أن أسافر فى طائرة نفسها... قالوا لا يوجد مكان لى، وأنه علىّ أنتظر الرحلة ثالثة بغداد ـ براغ. لكننى ظللتُ ألح حتى لحظة أخيرة. كنت أريد الرجوع بأسرع ما يمكن. حتى أننى فى ذلك الصباح ذهبت إلى مطار، على أمل أن يتخلف أحد وآخذ أنا مكانه! وحزينة جداً بسبب «سوء حظى» وأنا فى الحافلة إلى المدينة عائدة، كنت أفكر فى فرصة ضائعة فى السفر. وبعد ذلك، اكتشفت أنه لا يوجد أى سبب لعودتى المستعجلة. أترانى كنت راغبة فى رؤية زوجى العجوز من جديد بسرعة؟ لا، لا شىء. لا يوجد أى سبب. فقط دافع غريب إلى الموت. ولكن، ساعتى لم تكن. بكيت كثيراً، أنا التى قررت ألا أبكى أبداً منذ عمرى خمسة عشر عاماً. بهذا كله وكذلك بالحياة وبقدرنا فكرت مطولاً. فى كل لحظة الموت الأسود يترصد... هذا هو كل شىء.

أشياء أخرى تحدثنا، أو بكلمة أدق، هى تكلمت وأنا أسمع وأتأمل. أخيراً ودعتنى بملامسة خفيفة من شفتيها على خدى، واحمر وجهها فجأة. فى كل رحلة إلى براغ علىّ ألا أتخلف عن اتصال بها فى مكاتب اتحاد طلبة، هكذا أوصتنى، وهى لن تتخلف عن اتصال بى فى أوستى ناد لابيم عندما تحصل على أى خبر عن البعيدين. ومن خلال نظارتها سميكة وبطريقة نفاذة لم تنظر إلى فى حياتى بمثلها امرأة قط، بمن فى ذلك زوجتى المتوفاة آنا، كانت تنظر إلىّ. وأنا أنظر إليها.

فتح المخطوطة

بادرتُ إلى فتح المخطوطة أول مرة فى ظروف لم تكن الأكثر مثالية. ففى شهر يوليو ١٩٧٣ بدأنا نوبات الحراسة الليلية فى الجريدة. أم أن ذلك كان فى شهر يونيو؟ لا، ففى يونيو حدث «نزول الدبابات» فى يوم سان خوان وسان بابلو. وبدءاً من ذلك، ازداد «تردى علاقات القوى» حسب قول كوك. وفى ليلة مناوبتى الأولى للحراسة، بدأت قراءة المخطوطة.

كانت الحراسة تتمثل فى البقاء هناك، وتحمل البرد ومقاومته بما يسميه عمال الطباعة الـ«التشوكا» وهى أباريق معدنية كبيرة مغطاة بطبقة من الخزف ومملوءة بمغلى أوراق وعيدان الشاى؛ وتتلخص مهمة المناوبة فى الاستماع إلى المذياع، وتلقى مكالمات هاتفية، لاسيما المكالمات المنذرة بالخطر، وتهدئة ذوى الرءوس الحامية ممن يتمشون متنكرين بهيئة حراس حمر وهم يُظهرون «أسلحتهم الطويلة» مثلما كان يروق

القول للمسئول العسكرى. أنا أعطونى مسدس ٣٨ كالذى يستخدمه الخفراء الليليون وأوصونى بألا أرفع بصرى عن المدخل الرئيسى المطل على شارع ليرا، من نافذة فى الطابق الثانى، وشاءت المصادفة أن تكون منضدة عملى إلى جانبها.

أخرجت، إذاً، المغلف الأصفر من درج المنضدة، ونزعت عنه الرباط المطاطى وألقيت أول نظرة على المخطوطة، بينما أنا أرتشف «التشوكا» المغلية. وقد كانت المخطوطة مخطوطة بالفعل: قرمة مؤثرة ومختلطة من أوراق دفتر ـ قدرتُ بالعين المجردة أنها حوالى ثلاثمائة ـ مكتوبة يدوياً، بخط بدا لى واضحاً، ودقيقاً، ومرسوماً جيداً؛ بحبر أسود شديد السواد، كأنه الحبر الصينى. وكانت الأوراق مصفرة بعض الشىء فى حوافها، لكنها تحتفظ ببياض لا بأس به فى الجزء المكتوب. قراءتها ليست متعبة.

لم أتقدم فى القراءة كثيراً فى تلك الليلة. فقد كانوا يتصلون فى كل لحظة من اللجنة المركزية، حيث يوجد طاقم حراسة آخر، كى يرسلوا كل أنواع الأخبار المثيرة للقلق، بعضها فعلية، أو من أجل التأكد من صحة أخبار أخرى. جماعة من الرفاق الذين كانوا يجوبون قرى الجنوب فى سيارة مزودة بجهاز اتصال، يبثون بصورة دورية أخباراً عن عمليات إرهابية يقوم بها الـ «momios» ويتلقاها عامل اتصالات يضع على أذنيه سماعتين ويتمتع بأهمية كبيرة. وقد قال فى إحدى اللحظات إن هناك تبادلاً لإطلاق النار بالقرب

من معسكر الجيش فى بوين، فانطلقت إلى هناك سيارتان محملتان بحراس حمر مسلحين بأسلحة قتل القطط. وكان هناك فى حى بروفيدينثيا، كما فى كل ليلة تقريباً، مواجهات ومتاريس نارية. وكانوا يتصلون من المطبعة كذلك ليستفسروا عن هذا الأمر أو ذاك، أو يأتى مصحح من هناك مع شريحة ورقة بروفا ليطلب قص شىء منها، لعدم توفر مساحة كافية فى صفحة الأخبار.

وسط هذه المشاغل كلها، كانت قراءتى متقطعة جداً. وقد تحولت إلى ما يشبه نقر الدجاج. لكنها فتحت شهيتى.

لقد استحوذت علىّ قصة «الرسام التشيلى من الأمة الأراوكانية» كما يقول البروفيسور بيران بغرابة إسبانيته التشيكية ذات المسحة الإيطالية كما يبدو. بدا لى أن رسائل الرسام مثيرة للفضول (قرأت قسماً من الرسالة الأولى) ولكن... أيمكن له أن يكون رساماً مهماً جداً كما يقول البروفيسور ومثلما يوحى هو نفسه؟ أضف إلى ذلك، أى شياطين يفعلها هندى مابوتشى فى بغداد؟

لكننى لم أجد فى تلك الليلة أى إمكانية للتركيز. وهكذا، فى حوالى الساعة الرابعة فجراً، أعدتُ دس المخطوطة فى مغلفها، وثبتها بالشريط المطاطى ووضعتها من جديد فى درج المنضدة.

الرسالة الرابعة

لقاء مع الجنرال قاسم/ إنجازات الثورة/ المؤتمر الإيروتيكى وبرج بابل/ الصحيفة المحظورة والفلاحون الهاربون/ تُمور.

عزيزى البروفيسور

أنهى مؤتمر اتحاد الطلاب العالمى أعماله للتو، دون أى نتيجة أخرى، بالنسبة إلى هذا المراقب البائس، سوى وعى أكثر دقة لبابل العالم.

أتعجل فى أن أروى لك بعض «اللحظات» قبل أن تُمحى من الذاكرة، كما تقول أنت. أرى أن هذه المراسلات آخذة بالتحول إلى ما يشبه مذكرات حياتى. وآمل ألا تأخذ كلامى هذا على محمل السوء؛ ولكن، وهذا أمر نزل علىّ بسببه قبل قليل la choncha (نذير الشؤم) (تعبير يمكنك أن تضمه إلى معجم مفرداتك التشيلية)، ليس لدى أحد فى العالم - لا أحدا - أستطيع أن أفضى إليه بكثير من أفكارى،

باستثنائك أنت وإيفا بالطبع. ولكنك تعرف أن هناك أموراً يجب عدم اطلاع الزوجة عليها، وأموراً أخرى لا تتوافر الفرصة لقولها أو التداول فيها.

فى اليوم الأول من أيام المؤتمر، كان الحدث الأهم هو اللقاء مع الرئيس، الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد الثورة العراقية، فى قاعة الاستقبال الفخمة التابعة لوزارة الدفاع.

نقلونا إلى هناك فى حافلات، وأبقونا وقتاً طويلاً ننتظر فى الشارع، مع ما يرافق ذلك من صخب اللاتينيين الذى يمكنك تخيله. وأخيراً، قال أحدهم: «لقد وصل!» فانطلق الطلاب العراقيون، وهم نحو خمسين طالباً مختاراً، بهتافات التحية. ظهر موكب السادة. كانت تتقدمه عربة مصفحة. وهى عربة غريبة الشكل، مزيج من الدبابة والشاحنة، لها برج فوق قمرتها. وفى البرج جندى بزى الميدان مع خوذته وبندقيته الرشاشة النظامية. وراء العربة التى تتقدم بسرعة جيدة، مثيرة الغبار كشيطان، كانت هناك سيارتا جيب فيهما جنود. وبعد ذلك، حوالى أربع سيارات أمريكية حديثة جداً، لها زعانف أسماك قرش، ممتلئة برجال يرتدون الزى العسكرى، فحراسة قاسم الشخصية مؤلفة، كما قيل لى، من ضباط فقط.

توقفت تلك القافلة أمام السور الحديدى المحيط بالمبنى. وهناك كنا نحن المدعوين ننتظر، حوالى

أربعمئة شخص، ما بين مندوبين وفنيين وإداريين. إضافة إلى الشبان المحليين.

خرج الزعيم من إحدى السيارات وتقدم برشاقة نمر. كان يرتدى بزة عسكرية لونها بيج ومن جوخ فاخر، لا علاقة لها ببدلات جنوده المجعدة والشبيهة بالخرق (الفرق بين رب العمل والعامل المياوم)، دون قبعة فوق شعر الملح والفلفل. تقدم موجهاً نظرات احتراس ذات اليسار وذات اليمين (يفترض أنها بسبب ذاك الذى قيل عن محاولات لاغتياله)، مبتسماً وملوحاً بيده اليمنى فى شكر على التصفيق. حسن، لا بد لى من القول «تصفيقنا» لأننى كنت أصفق أيضاً، وأقول هذا بشىء من الخجل. كان الرجل مغموراً بالتصفيق، ويبدى ما يشبه المطالبة المتلهفة به، بينما هو يدخل عبر الطريق الذى يشقه له وسط جمهرة الشبان حراسه ذوو البزات العسكرية بدفعهم الحشد إلى هذا الجانب والجانب الآخر، وكل منهم يُبقى يده اليمنى على المسدس المعلق على خصره.

مشى بخطوات واسعة مع رجاله عبر الحديقة، بين مساكب زهور بديعة، فوق عشب شديد الخضرة والنضارة لا ينقصه إلا أن يتكلم الإنجليزية. كم تكلف رعاية مرج عشب كهذا فى مثل هذا المناخ؟ وبينما هو يتقدم، كان الوطنيون يلحقون به مطلقين الهتافات، وكانوا يصفقون بإيقاع متقطع مطلقين شعارات بدا لى أننى أميز بينها اسمه، ونحن ـ المؤتمر بكامله ـ مضينا وراءهم مثل خراف. ودون أن يتوقف عن التلويح بيده

اليمنى، اجتاز الجنرال قوساً صغيراً بين أشجار صنوبر تشكل مظلة كبيرة، ليصل إلى مرج فسيح أخضر. ولحقنا به جميعنا.

بينما كان نُدلٌ بسترات بيضاء يقدمون فى صوانٍ كبيرة كئوساً من الماء والكوكا كولا مع الثلج (من المعروف أن القرآن يحرم الكحول، على الأقل فى حفلات الاستقبال الرسمية) كانت هناك نصف ساعة من تقبيل الأيدى. كل واحد من المدعوين صافح الرئيس وتبادل معه بضع كلمات. وعندما جاء دورى، فى النهاية تقريباً، وتمكنت من رؤيته عن قرب، بدا لى أن خديه شديدا البياض، كما لو أنهما مبودران، وبدت شفتاه شديدتى الحمرة. لكننى لستُ متأكداً. مدّ لى يداً قوية وكثيفة الشعر، ما كدت ألمسها بيدى حتى سحبها، ووجه لى بضع كلمات بالعربية. وقلت له عبارة مجاملة بالإنجليزية. كان هناك مترجم أو شرطى بملابس مدنية، يحمل بين يديه قائمة طويلة (تراها تضم أسماءنا؟) همس شيئاً فى أذنه. فأطلق الجنرال قهقهة متألقة ذات أسنان بيضاء وتلبيسات من الذهب.

صفق أحدهم بيديه مثلما يفعلون فى تشيلى للإعلان عن انطلاق القطارات، وانقضضنا جميعنا على الطعام. كانت الموائد الطويلة تنوء تحت ثقل الأطعمة: خراف كاملة مشوية، محشوة بالأرز مع الزعفران، تقبع فى صوانٍ من الخزف؛ أرغفة خشنة ولذيذة من طبقتين، مصنوعة من قمح مطحون

بمطحنة حجرية، ومحشوة باللحم والبصل واللوز؛ حلويات دقيقة الصنع، معطرة ومغمسة بالقطر؛ لحوم فى صلصات حارة وحلوة فى الوقت نفسه؛ أسماك كبيرة بيضاء مشوية، جبال من الأرز مع الزبيب واللوز؛ أطباق كبيرة من الفاكهة. وكان الأكل وقوفاً على العشب. كانت هناك أدوات مائدة، لكن المحليين يتجاهلونها: حذونا حذوهم وانقضضنا بأيدينا دون خجل. كنت قد بدأت بتذوق قطعة سمك عندما، تك! انتهت حفلة الاستقبال.

قاسم الذى لم يكن قد تناول سوى قضمة من قطعة حلوى، قام فجأة بانحناءة تحية وتبادل بضع كلمات مع أشد ضباطه ضراوة. فخرج هذا راكضاً كى ينبه السائقين الذين ينتظرون خارجاً فى السيارات. هدرت المحركات، قام الجنرال بتوجيه تحية عامة وغادر وسط عاصفة جديدة من التصفيق وترديد الشعارات السابقة نفسها، تولاها الكورال الطلابى.

رئيس البروتوكول أو شخص من هذا القبيل أفهمنا آمراً بأنه علينا المغادرة. لم ينصع بعض المندوبين لأمر الابتعاد عن الموائد، وكانت لا تزال شبه ممتلئة بالمأكولات. فأشار لهم الموظف بحركات نشطة أن يخرجوا. ولولا قليل لكان بعض الأعوان بالزى المدنى أخرجوهم بالدفع.

رحنا نخرج فى جماعات. ظللت متأخراً بعض الشىء، مختلطاً بالمندوبين البرازيليين، والتشيليين،

ومندوب كولومبى، وفرنسية، وإيطالى (مجنون بـ «جانا» إحدى مترجماتنا التشيكيات) وآخرين، وسط مجادلة حماسية، عندما نظر أحد البرازيليين إلى الوراء وقال مذهولاً: «ما هذا» التفتنا جميعنا ورأينا كيف أن جمعَ رجال ونساء مهلهلين، يتضورون جوعاً، حفاة، ورءوسهم مغطاة بكوفيات متطايرة، يدخلون راكضين من باب جانبى فتحه لهم جنود الحراسة. وكان آخرون يتسلقون السور الحديدى المرتفع كالسعادين كى يقفزوا بعد ذلك من فوقه إلى الحدائق.

جميعهم اندفعوا إلى الموائد كالضوارى وراحوا يلتهمون بقايا المأدبة متدافعين، يوجه بعضهم لبعض ضربات المرافق والركلات، بعضهم يسقطون وينهضون متنازعين بالشد عظام الخراف وحفنات الرز، متبادلين السباب بأفواه ممتلئة. كانت تطير فى الهواء قطع من الأطعمة. وبين الماضغين، كان هناك خمسة أو ستة جنود من حراس الوزارة يناضلون بأيديهم، وكى يتمتعوا بحرية كاملة فى الحركة، تركوا بنادقهم الأوتوماتيكية بعيدة بعض الشىء، مسندة إلى شجرة نخيل.

وقفنا فاغرى الأفواه. لم نصدق ما تراه أعيننا. فتقدم اثنان أو ثلاثة من الشبان العراقيين وأبعدونا عن المشهد بمزيج من الدعوات والدفع. وفلسف البرازيلى المشهد بالقول: «هكذا يتم اقتحام الثورة».

أنا شخصياً لم أكن قد حضرت أى مؤتمر طلابى، ناهيك عن أن يكون دولياً. فبالكاد كنت قد

حضرت بعض الجمعيات العمومية فى تشيلى. وقد عشت الآن تجربة منظمةٍ تحتضر، لكنها عنيدة وسط الفوضى. منظمة تعتمد قبل كل شىء على الفريق الذى نشكل جزءاً منه، وعلى خبرة ثلاثة أو أربعة قادة يتحكمون بكل شىء. يبرز بينهم، ولا بد لى من الاعتراف، الرصاصى بيليكان.

مع مرور الأيام، راح النظام يتردى. فى البدء تهاوت المواقيت. فالجلسات العامة، وهى جدلية إلى هذا الحد أو ذاك، ومتشابكة فى نزاعات إجرائية، كانت تنتهى بتأخير متزايد أكثر فأكثر. فمنذ اليوم الثانى، استمرت الجلسة حتى الفجر ـ حوالى الرابعة أو الخامسة فجراً ـ ولم يعد ممكناً عقد جلسات اليوم التالى العامة، المقررة فى التاسعة صباحاً، حتى الساعة العاشرة، الحادية عشرة... الثانية عشرة! قسم الترجمة وطباعة الوثائق صار يتخلف، على الرغم من جهودنا الباسلة؛ وعندما كانت نهاية المؤتمر تقترب، كانت قد أُنجزت للتو الطباعة الأولية لخطابات الجلسة العامة الثانية.

كنا نمضى كالمنومين، نتغذى على عصير البرتقال، وهو موجود بوفرة لحسن الحظ، والكثير من القهوة، وسندوتش بلا طعم بين حين وآخر. نساؤنا التشيكيات العمليات، بمن فيهن إيفا، كن يبرعن، بطريقة غامضة، فى الحصول على موز كل يوم، والحمد لله.

ترهل الانضباط. وكان هناك مندوبون اختفوا نهائياً. فالإيطالى على سبيل المثال، ذهب مع جانته فى اليوم الثانى، على الرغم من الغضب الشديد الذى أبداه مفوضنا زدينك، ولم يعد بعد ذلك إلى المؤتمر. وكان آخرون يأتون وهم يتثاءبون فى الساعة الثالثة عصراً، فيلقون نظرة ساهية على إحدى لجان العمل، ويخرجون إلى المدينة بمرافقة حراسة من الشباب العراقيين بحثاً عن مشاهد أخرى. واتخذ المؤتمر الإيروتيكى الموازى مزيداً من الأهمية.

المناقشات السياسية ازدادت حدّة وتعقيداً. فالمندوب الصينى يتوجه بشتائم متكررة يطلقها بصوت عالٍ، ويرفقها برذاذ من اللعاب، ضد الزعيم الطلابى الكندى الوحيد الذى كان يحافظ على اعتداله السكسونى، بالرغم من احمراره مثل بندورة من الغضب. وكان اللاتينيون يصفقون ويستمتعون بالسباب الذى ينزل به الصينى على رأس ذلك الرمز الحى للإمبريالية الغدارة. لاحظتُ أن رئيس الوفد السوفييتى، وهو دب سيبيرى بطول متر وتسعين سنتيمتراً، وعرض متر وسبعين، أشقر وله وجه طفل رضيع، وحمرة وجه الكندى تقريباً، عندما تدخل قال إنه من الملائم جداً للسلام العالمى والمستقبل المشرق للشعوب أن تشارك فى الاتحاد الدولى الاتحادات الطلابية فى الولايات المتحدة وكندا وغيرهما من البلدان الرأسمالية، شريطة أن تمثل الطلاب حقاً. فرد عليه الصينى بنبرة لم تعد لاذعة، وإنما شرسة،

مستشهداً بلينين وستالين، ومندداً بالتحريفيين اليوغسلاف (لم يكونوا حاضرين)، وداعياً إلى الثورة العالمية فى آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية. وأخيراً، وجد بيليكان الماكر الطريقة لوقف الجدل ودفنه فى لجنة خاصة.

هدد بعض المندوبين الأوروبيين بالانسحاب بسبب استبعاد إسرائيل (بطلب من البلد المضيف وبموافقة دون تردد من جانب البلدان الاشتراكية). وخلال ثلاثة أيام بلياليها تقريباً قمتُ بالترجمة فى جدل، لا وجود فيه لبصيص ضوء، بين مندوبى جمعية الطلاب الأكراد فى أوروبا واثنين من قادة اتحاد الطلاب العالمى. كان الأكراد يطالبون بالمشاركة فى المؤتمر مع الحق فى المناقشة والتصويت. بينما الآخرون يؤكدون أنه لا يمكن أن تقبل إلا الاتحادات الوطنية الآتية من دولها. وكل هذا الجدل كان بالإنجليزية، اللغة التى لا يتقنها أحد من المشاركين. كانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أسمع فيها بالمسألة الكردية ورأيت أكراداً من لحم وعظم (لا يتميزون عن العرب أو عن الأمريكيين اللاتينيين إلا بوضعهم عمائم مدورة).

مناخ إيروتيكى متزايد الحرارة راح يسيطر على المندوبين. وكنتُ أتذكر أبيات نيرودا فى قصيدة «فارس وحيد» «الشبان الشاذون والشابات الغراميات... يحيطون بى مثل عقد نابض من القواقع الجنسية». لم يزدد الطلب قط، كما فى تلك المناسبة، على بعض أقدم موظفات الاتحاد الطلابى وأكثرهن

إخلاصاً، نصف حاميات الوجوه. كان الحديث يدور عن غزوات جريئة على سراى الحريم فى الطابق الثانى. بل إن الطلبات (من جانب دون جوان أرجنتينى له روح هاوى غزوات وفيليبينى ضئيل) وصلت إلى مندوبة من سيراليون، روبنسونية وبراقة، من موقعين. وقد فضَّلت الأسيوى. كانت تتشكل الثنائيات وتنفرط بين ليلة وضحاها. وكان هناك مندوبون ومندوبات لم يعرفوا قاعة اجتماعات المؤتمر.

وحدثت كذلك تبدلات غير متوقعة، يُعتقد أنها بتأثير المناخ والعادات المحلية. ففى اليوم الأول لاحظنا أن هناك بين الشبان (الذكور) العراقيين بعض الثنائيات ممن لا يفترقون، ويمضون دوماً ـ ليس دون تلهف ـ بأيد متشابكة، ويتبادلون المداعبات والقبلات بكثير من التلقائية. ويمكن لك أن تتصور عبارات المزاح الثقيل التى تصدر عن الأمريكيين اللاتينيين. ولكن فى اليوم الثالث، كان هناك زعيم طلابى دومينيكانى، خلاسى مربوع وشخصية بارزة ولامعة، ألقى بعد قليل من وصوله خطبة مناهضة للإمبريالية بصوت جهير، ثم ظهر فجأة وهو فى عناق حميم مع أحد الشبان المحليين، يتكلم بنبرة سوبرانو محلاة. أحد الظرفاء الكولومبيين، يجد على الدوام مسوغات للمزاح فى كل خطوة يخطوها، قلب عينيه لتصيرا بياضاً كاملاً عندما قال له الدومينيكانى المذكور: «انظر يا حياتى، سأذهب مع ياسر للنزهة فى دجلة» وطالب بيروى كهرب إحدى الجلسات الموسعة حين

احتج بصوت يرتعش بالسخط الأخلاقى، لأن السجناء العاديين يغتصبون الطلاب الجامعيين الذين تعتقلهم الدكتاتورية فى سجن الفرونتون فى البيرو. وبعد ساعات من ذلك، فاجأه أحد التشيليين وهو يتبادل قبلات طويلة، على الطريقة الفرنسية، مع إفريقى أزرق.

لم ألحظ قط أن المؤتمر يعالج مشاكل الطلاب. فقد كان يحلق أعلى من ذلك بكثير. أو أحط بكثير. وفى صباح اليوم الرابع، عندما صار واضحاً أن الجلسات لن تبدأ فى الساعة الحادية عشرة ولا الثانية عشرة، بل ربما فى الثانية بعد الظهر، قمت بجولة اطلاعية جداً برفقة زكية، تلك الفتاة التى أظن أننى حدثتك عنها، تلك التى كانت تنظر مواجهة فى الحافلة التى نقلتنا من المطار إلى مكان إقامتنا. تبين لى أنها كردية، ولكنها كردية مستغربة، وخاصة جداً. فقد عاشت عدة سنوات فى سويسرا، بفضل معجزة زواج أبيها من موظفة فى الصليب الأحمر الدولى. إنها تتكلم فرنسية متقنة، وبدا لى ذلك مفرحاً، لأنى أنا واللغة الإنجليزية لم نتوصل إلى تفاهم فى ما بيننا. كانت زكية تتعاون مع فريق عمل المؤتمر. وقد أبدت ذهنية شديدة السويسرية (هذا ما بدا لى على الأقل)، وكانت منهجية وبالغة الفعالية، ولهذا كان عدم انتظام المؤتمر يسبب لها الغضب. وقد وافقت فوراً عندما عرضتُ عليها استغلال ساعتى الفراغ المتوافرتين للقيام بجولة فى بغداد.

وهكذا انتهيت إلى المتحف الوطنى العراقى الكئيب. الانطباع الأول قوى جداً. هناك أعمدة هائلة وأُسود أشورية، وأعمال حفر ناتئ عملاقة لملوك بلحى مجعدة، وخزائن كثيرة فيها تماثيل من مراحل تاريخية مختلفة. وبعد المشى قليلاً، رحت أنتبه إلى أن الغبار يغطى كل شىء، والأسوأ من ذلك أن القطع الكبيرة كلها هى نسخ تحاكى الأصل، مصنوعة من كرتون حجرى، أو جبس أو لا أدرى من أية مواد هشة قابلة للتفتت. وعلى كل قطعة منها لوحة صغيرة مكتوبة بالإنكليزية والعربية تقول إن الأصل موجود فى المتحف البريطانى، أو فى متحف بيرجمون البرلينى، أو فى متحف بوسطن، أو متحف اللوفر فى باريس.

«لقد سرقوا كل شىء» قالت زكية، «هذه الأشياء حملها الأركيولوجيون الفرنسيون والألمان والإنكليز والأمريكيون. لم يبق هنا إلا القليل من ثروة البلاد الأثرية والتاريخية. وعندما انتصرت الثورة، كان الإنجليز قد انتهوا تقريباً من استخراج أسد بابل الكبير، وصار جاهزاً ليأخذوه. وقد بلغت بهم الوقاحة حد الاحتجاج عندما قالت لهم الحكومة إن هذا لا يُمس. هناك الآن بعض الأمل فى أن يتوقف النهب».

إنها جدية وسياسية جداً. روت لى بعض الأمور عن ثورة بغداد، نوع من الانتفاضة الشعبية استمرت ثلاثة أيام وانتهت بالهجوم على القصر الملكى. أفراد الأسرة الهاشمية المالكة الرئيسيون عُلقوا على أعمدة النور أمام القصر. وأكثر شخصية مكروهة فى النظام

القديم، رئيس الوزراء نورى السعيد، كان شخصاً بديناً جداً (أشارت لى إلى ذلك بفتح ذراعيها على اتساعهما مقوسين)، تمكن من الهرب متنكراً بزى امرأة. وكان الناس يبحثون عنه فى كل مكان. تعرف عليه أحدهم فى إحدى الأسواق، وكان هدفاً لعملية إعدام سريعة، بطريقة تفوق كما بدا لى الطريقة التى أُجهز بها على حامية براغ. فقد جرى دوسه بأقدام حوالى مئة رجل وامرأة إلى أن غطى جسده، وقد تحول إلى سماكة ورقة، مساحة عدة أمتار مربعة. وكانت بضع دقائق كافية لذلك.

ولأن زكية لاحظت أننى أنظر إليها بشىء من عدم التصديق، فقد أخرجت من حقيبتها الجلدية الصغيرة التى تعلقها على كتفها، قارورة صغيرة مملوءة بسائل شفاف. فيها رقاقة غير منتظمة الحواف بقدر سنتيمترين، أشبه بجلد ضارب إلى البياض مع خطوط سوداء كأنها شعر. «ما هذا؟» سألتها وأنا شبه عارف.

صوبت إلىّ واحدة من نظراتها المباشرة وأجابت: «قطعة من نورى السعيد. أناس كثيرون يحتفظون بمثل هذه القطع كتذكار».

نظرتُ إلى القارورة بشىء من القرف وسألتها: «وما الذى يعنيه هذا بالنسبة إليك؟ أهو لقية أم تعويذة؟ أم أنه غنيمة»؟

نظرة أخرى: «إنه تذكار من الثورة. من اليوم الذى حقق الشعب فيه العدالة».

أُغلقت المناظرة. ووجدت أنها أقل سويسرية بكثير مما تصورته.

لم يكن لدى الكثير مما أقوله حول الموضوع، فرحت أنظر إلى صور فوتوغرافية فى أطر، معلقة على مستوى مرتفع. فى واحدة من الصور يظهر برج عملاق. لم أره بتلك الضخامة للوهلة الأولى، وإنما بدا أشبه بصورة مجسم مصغر، إلى أن لمحت قريباً من القاعدة كائنين بشريين يتقدمان منحنيين إلى الأمام كما لو أنهما يواجهان ريحاً رملية قوية، ويلتفان بعباءتين طويلتين منتفختين إلى الخلف، ووجهاهما وأذرعهما مغطاة. وبالنظر إلى حجمهما، حتى لو افترضنا أنهما عربيان قصيران، لا يزيد طولهما عن متر وسبعين سنتيمتراً أو شىء من هذا القبيل، فإن ارتفاع قاعدة البناء الإسطوانية يزيد عن عشرين متراً. ويبدو البرج مائلاً، ليس كبرج بيزا، ولكن ربما لأن المصور كان يصارع أيضاً ضد الريح ـ ذلك أن خط الأفق يبدى ميلاً مماثلاً ـ ويرتفع البرج وهو يضيق تدريجياً، على شكل لولب: مرقى حلزونى حول حيز مركزى إسطوانى. أو مخروطى بكلمة أدق؛ لكن ارتفاعه ذاك يجعل تقلص قطره متدرجاً ببطء كبير. وأخيراً يُبتر عندما يصل إلى ارتفاع يزيد خمس مرات على الأقل عن ارتفاع القاعدة. أى حوالى مئة متر. أيكون ممكناً؟ هيكل البناء يبرز على خلفية سماء مكفهرة. والمشهد مقفر تماماً. محض صحراء، يمكن القول إنها صحراء مكسيكية. وبالرغم من جهلى

بالموضوعات التوراتية، وقفت مشدوهاً أمام تلك الصورة، التى جلبت إلى ذاكرتى...

«برج بابل» قالت زكية قارئة أفكارى.

قفزت فى مكانى: «ولكن.. ولكن.. ولكن ـ قلت لها ـ أى برج هذا؟ أين هو؟ أهو فى العراق؟»

قالت لى بكل هدوء أجل. «إنه زقورة، واحد من الأبراج التى كان السومريون يبنونها. وهذا الذى يظهر فى الصورة القديمة أظنه موجوداً بالقرب من آثار آور».

أعترفُ بجهلى. ولا أظن أننى التقطت كل ما قالته لى (لقد قالت أشياء أكثر)، ولكن كان لا يزال يستحوذ علىّ إحساس بعزلة غير متناهية سببتها لى الصورة الفوتوغرافية؛ إحساس يضخم، وإن بدا ذلك غريباً، تينك الهيئتين البشريتين الصغيرتين. كان إحساسى نوعاً من اليأس المتولد من الوعى المفاجئ لحجم جهلى ولضخامة الزمن الذى أمضيناه على هذا الكوكب؛ وكان كذلك مثل رغبة فى الرد على الأصوات البكماء للكائنات التى شيدت فى الصحراء ذلك البناء الضخم، الرهيب، والجميل، أمن أجل الوصول إلى السماء؟ ولم يستطيعوا مع ذلك التفاهم فيما بينهم.

نظرت زكية إلىّ باستغراب حين رأت بقائى كل ذلك الوقت مستغرقاً، بعينين ثابتتين. أخرجتُ الدفتر الذى أحمله دوماً فى جيبى، ورحت أرسم مخططاً إجمالياً للبرج. هزتنى الفتاة، وأحسستُ أن صوتها يرن نائياً: «علينا أن نرجع... المؤتمر...»

رجعنا. وفى الطريق أخبرتنى عدة أمور تعليمية حول أكرادها، سأخبرك بها فيما بعد، لأنى أريد التحدث إليك الآن عن زيارة ليلة مهمة. وقد جرت فى الليلة التالية إذا لم أكن مخطئاً. وحدث الأمر كما يلى: اقترب منى سليم، أحد الشبان العراقيين الذين يرافقوننا فى مهمات المؤتمر التقنية، وقال لى بنبرة تآمرية إن لقاءً سيُنظم مع قائد شيوعى عراقى كبير لجماعة صغيرة من الأمريكيين اللاتينيين. ودعانى للمشاركة. سألته: «ولماذا أنا؟ فأنا لست قائداً ولا عضواً شيوعياً، وليس لدى كذلك أية صفة تمثيلية...» فأجابنى بأنه لاحظ أننى واحد من قلة يبدون اهتماماً حقيقياً بما يحدث فى البلاد؛ ويعرف أيضاً ـ أنا من كنت قد أخبرته بذلك ـ أننى سأبقى وقتاً أطول فى العراق، وأننى ـ وربما هو الأهم ـ متزوج من تشيكية متعاقدة للتعاون مع الصناعة النسيجية.

لم أقتنع تماماً، لكن الفضول غلبنى، واستمعت إلى التعليمات المعقدة التى وجهها إلى. خرجتُ فى حوالى الساعة الثالثة فجأة من جلسة موسعة تتحمل بمشقة مداخلة لساعات يقدمها المندوب الكورى الشمالى، وقلت لرئيس المترجمين إننى أشعر بألم فى معدتى وأريد الرجوع إلى مقر الإقامة. وجّه إلىّ نظرة ارتياب، لكنه لم يجد طريقة للممانعة، لأنى لم أكن قد تغيبت قط من قبل، وكانت هناك على جسدى بعض البقع. كانت إيفا تضع السماعات على أذنيها، وتقوم بالترجمة الفورية فى المقصورة رقم ٤ أومأت لها

مودعاً. فحاولت إيقافى بفتح عينيها على اتساعهما، لكننى لوحت بيدى وانسللت إلى الليل.

كان القمر بدراً والسماء مفعمة بالنجوم. وهناك إحساس ببرودة لطيفة بعد يوم قائظ. مشيت حتى الناصية المتفق عليها، حيث يوجد مقهى. وسرعان ما ظهر شاب ساه. وعند مروره بجانبى قال دون أن ينظر إلىّ: «follow me». انعطف عند ناصية وجعلنى أصعد إلى سيارة مخلعة، فيها ركاب آخرون. تعرفت بينهم على مندوب كولومبى نحيل، خلاسى وكثير الصخب عادة، لكنه صامت جداً الآن. كان بياض عينيه يلمع فى الظلمة، وكان يحرك عينيه بطريقة مضحكة، مثلما يفعل الزنوج المذعورون فى الأفلام اليانكية. وبدا لى أن شخصاً آخر ممن فى السيارة هو مندوب بيروى، لكننى لم أكن متأكداً. أما الثلاثة الآخرون، وهم لاتينيون أيضاً، فمعرفتى بهم أقل.

انطلقت السيارة متعثرة لمدة تقارب الساعة، وأخيراً دخلت فجأة فى نوع من المستودع، أُغلقت أبوابه فوراً. ظلام، أصوات هامسة. ظهر شخص يحمل مصباحاً يدوياً قوى الإضاءة، وسلّطه على وجوهنا، واحداً فواحداً. أنزلونا من السيارة دون أى نوع من اللطف، ثم مشينا متلمسين طريقنا، متبعين الضوء، حتى وصلنا مكاناً فُتح فيه باب صغير جداً فى جدار معدنى فى المستودع، اضطررنا إلى الانحناء للخروج منه. ووجدنا أنفسنا مجدداً فى الشارع. فى أى شارع؟ راودنا إحساس بأننا ضائعون دون خلاص.

لم يكن الشارع مرصوفاً، وإنما هو تراب ورمل فقط. ولم تكن هناك بيوت أيضاً. وإنما مجرد حاجز من خشب مائل ومثقب، وبناء قاتم، من الأسمنت، يبدو كأنه مصنع هُجر قبل اكتمال بنائه. وفى البعيد كان هناك كلب ينبح.

وبالإيماء أشاروا لنا إلى ما يشبه شاحنة عسكرية مغطاة بشادر. فى تلك اللحظة داهمنى إحساس واضح بأننا وقعنا فى يد الجيش أو الشرطة. وفكرت فى أن ما ينتظرنا هو الرمى بالرصاص أو التعذيب أو ما هو أسوأ. صعدنا بصعوبة إلى القسم الخلفى من الشاحنة بينما كان مرافقونا يستحثوننا بإيماءات أو عبارات قصيرة من بين أسنانهم. انطلقت الشاحنة بقفزة مباغتة. فوقعنا مختلطين وسط الظلمة. أحد اللاتينيين، هو البيروىّ دون شك، احتج بصوت عالٍ، فأسكتوه. وفى هذه المرة استمرت الرحلة، مع كثير من الالتفافات، وقتاً أقصر: قرابة النصف ساعة.

أنزلونا. ومن ظلمة شارع فيه أعمدة نور شحيحة الإضاءة ونائية، ظهر رجل مربوع وأسمر، أومأ بحركة ترحيب واسعة وابتسم بينما هو يصافحنا واحداً فواحداً. وكان هناك شاب (تعرفت فيه على سليم) يخبره فى أذنه من هو كل واحد منا. دعوتا للدخول إلى مبنى إسمنتى من طابقين أو ثلاثة طوابق، غير ناجز البناء، وتبرز من قسمه العلوى بعض قضبان الحديد. بدا لى معروفاً. أليس هو المبنى نفسه الذى صعدنا من أمامه إلى الشاحنة قبل قليل؟

دخلنا بين حراس يخبئون، نصف تخبئة، مسدسات رشاشة تحت ملابسهم الفضفاضة. بدا لى المبنى من الداخل مطابقاً لمطبعة تشيلية قديمة: أرضية إسمنتية، رائحة حبر وحمض نفاذة، لطخات زيت أسود، ولفائف ورق ضخمة مهملة، وآلة طباعة دوارة سماوية، جديدة ولامعة مثل لعبة، وصغيرة بالمقارنة مع ارتفاع سقف التوتياء المستند إلى أعمدة معدنية رفيعة. لمحت آلات أخرى، سوداء ومزيتة. جعلونا نصعد إلى طابق آخر على درج خشبى مزعزع، ثم الدخول إلى غرفة مكتب خربة، فيها منضدتان صغيرتان عليهما آلتان كاتبتان من أزمنة الأهرامات، وشابان أو ثلاثة يشربون سائلاً بلون الكونياك فى كئوس زجاجية تشبه الدمى. لم يكن كونياكاً ما يشربونه، وإنما هو شاى شديد التركيز وشديد الحلاوة، مع النعناع. عرفنا ذلك حين دخلنا إلى غرفة مجاورة، أشبه بقاعة اجتماعات، فيها منضدة كبيرة وستة كراسٍ، حيث قدموا لنا على الفور فناجين، أو كئوس، الشاى المعروفة تلك. لم تكن الكراسى كافية للجميع. ففضّلتُ البقاء واقفاً، منزوياً بعض الشىء فى أحد الأركان، من أجل رؤية شاملة للوضع.

بدأ الاجتماع دون طقوس. دخل رجل ضئيل وأصلع، له أنف معقوف، وبدأ حديثاً متدفقاً بالإنجليزية، مع الكثير من الحروف المشددة. استنتجتُ أنه قيادى كبير، لكن أحداً لم يقدمه لنا. لا أدرى كم استمر عرضه، ساعات. ندمت عدة مرات

لأنى لم أستولِ على أحد الكراسى. ولست أنوى إعادة كل ما قاله، يا عزيزى البروفيسور، لكننى أقول لك، باختصار، إن الثورة العراقية تبدو عملية هائلة التناقضات. فالشيوعيون، وفق ما قاله، مازالوا يدعمون قاسم بالرغم من أنه يقتلهم. فالزعيم لا يعاملهم بمحبة. إنه يتفاوض مع شركات البترول الإنجليزية والأمريكية من أجل الحصول على مزيد من المنافع للبلاد، بدلاً من صيغة fifty-fifty. ممثلو الشركات يقولون إن الوضع غير موات للتوصل إلى اتفاق بسبب الخطر الشيوعى. وهم يتذمرون بصورة خاصة من جريدة الحزب الشيوعى «اتحاد الشعب» لأنها «تخلق أجواء خبيثة» بعد قليل من الاجتماع الذى نُوقشت فيه هذه المسألة، بدأت الحكومة محاكمة ضد الجريدة. وحظر قاضٍ عسكرى صدورها. وانتهى مديرها إلى السجن.

«ونحن فى قيادة الحزب ذهبنا فى وفد للحوار مع قاسم، والاحتجاج على ما حدث. أبدى لنا المودة والتفهم، لكنه قال: ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنه حكم قضائى. لفتنا نظره إلى أنه يمكن للقضاء العسكرى أن يبدى المرونة أمام طلب منه، باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة. فقال إنه سيدرس الوضع مع رئيس المحكمة العسكرية. وبعد يومين من ذلك أطلقوا سراح المدير، لكن الصحيفة ظلت محظورة. وها نحن هنا الآن. إننا نصدر جريدة الشبيبة يومياً بعد أن كانت أسبوعية من قبل، وقد زدنا توزيعها، ولكن الأمر مختلف»

سأله الكولومبى بشىء من القلق عما إذا كان المكان الذى نحن فيه هو مطبعة الجريدة. فأجابه العارض بنعم. وهنا قال الكولومبى: «ولكن، أليس هناك قدر من الخطر فى اجتماعنا هنا؟.«هز القيادى رأسه كما لو أنه يقدر المجازفة، وقال: «لا، لا أعتقد ذلك. فالأمر غير ممكن مادام المؤتمر الطلابى العالمى منعقداً. Of course» ثم أضاف وهو يرفع إحدى يديه بخفة: «المخابرات العسكرية تعرف جيداً أننا هنا، وأنكم أنتم هنا». ساد صمت شديد الكثافة. وتجرأتُ على سؤاله: «لماذا إذًا كل هذه الاحتياطات الأمنية من أجل إحضارنا إلى هنا»؟ ضحك الأصلع الضئيل بشىء من الكآبة: «شبابنا يسعون جاهدين على الدوام لتنفيذ التعليمات التى نوجهها. وهذا يبدو لنا جيداً. إنه جيد من أجل إعدادهم».

سأل البيروى عن عدد النسخ التى تطبعها الجريدة فى الأوقات العادية. فقال الأصلع إن الكمية كانت كبيرة جداً ـ وأضاف: بين ثلاثين وأربعين ألف نسخة ـ فى الأزمنة الأولى التى تلت انتصار الثورة عام ١٩٥٨ (وهو يقول ثورة هكذا بتفخيم). لكن عدد النسخ انخفض بعد ذلك. أحد اللاتينيين، أظنه من أوروجاى، سأل عما إذا كانت نسبة الأمية عالية جداً. وقال محدثنا: «تسعون بالمئة» فظللنا صامتين.

عندما انتهى الاجتماع، كانت الإجراءات الأمنية قد انتقلت إلى التاريخ. وتأكدتُ بالفعل أن مبنى الجريدة هو المبنى نفسه الذى كنا قد وصلنا إليه فى

البداية، بعد الرحلة الأولى فى السيارة. ولكن لم تكن هناك الآن سيارة أو شاحنة. وكان علينا أن نرجع إلى مكان انعقاد المؤتمر مشياً على الأقدام.

حين انعطفنا عند الناصية، رأينا مشهداً خارقاً: نحو مئة جسد ممدد على تراب الشارع، ملتفة بملابس عربية. توقفنا فى أماكننا. وأوضح لنا سليم: «إنهم فلاحون. يأتون من الجنوب. يصلون فى كل يوم ولا تسمح لهم الشرطة بالذهاب إلى أحياء أخرى من بغداد. ولهذا ينامون هنا» طلبنا مزيداً من التوضيح، فقال سليم: «لقد بدأ تطبيق الإصلاح الزراعى فى الجنوب. وهم يهربون» لم يكن الكولومبى راغباً فى السماع، فهو لا يرغب فى شىء سوى الابتعاد بأسرع ما يمكن، لكن المندوبين اللاتينيين الآخرين، وهم أربعة، وأنا خامسهم، كانوا يريدون معرفة المزيد: «كيف؟ ـ سأل البيروى ـ هذا أمر غير مفهوم... هم يهربون من الإصلاح الزراعى؟».

فأوضح دليلنا أن قادة الحاميات العسكرية فى أماكن كثيرة، وهم من المخلصين للثورة ولقاسم ـ كما يفترض ـ مع أنهم من عسكريى النظام القديم، بدءوا بملاحقة اللجان الفلاحية وسجن قادتها فى أحيان كثيرة أو قتلهم. وفى أماكن أخرى رجع الشيوخ القدماء مع عصاباتهم المسلحة وأطلقوا سلسلة من أعمال الانتقام المروعة ضد الفلاحين الذين احتلوا الأرض. «لهذا يهربون».

القمر يغطى الأجساد الراقدة بسميد فضى. إنهم يبدون موتى. رفع أحدهم رأسه المغطى بنوع من القلنسوة العميقة وأداره بالاتجاه الذى نحن فيه. لم يكن وجهه مرئياً، كان مجرد ثقب أسود ينظر إلينا. بعد ذلك نزل الرأس واستند من جديد إلى التراب.

على امتداد المسيرة التى استغرقت نحو ساعتين اكتشفنا أن أناساً كثيرين ينامون فى هذه المدينة فى الشوارع. ففى أى ركن، فى مركز المدينة، إلى جانب أبواب المتاجر، أو أحد المساجد، أو على ضفاف الساحات المقفرة التى فى طور البناء، ترقد أشكال أفقية، متكورة، لنائمين مزفتين. وعند بوابة مصرف مهيب، مكسو بمرمر أشقر، رأيتُ رجلاً منتزعاً من معبد أشورى. رأسه ضعف الحجم الطبيعى تقريباً، له بروفيل طير جارح وعينان هائلتان جاحظتان تبدوان أشبه ببيضتين مسلوقتين تحت الرموش. ولحية مجعدة تصعد إلى وجنتيه وتنزل حتى بداية بطن جدير ببوذا، أستغفر الله. وكان مستلقياً على ظهره، يشخر مثل حيوان ضار. إنه يبعث الخوف فى النفس حتى وهو نائم.

سجلت ملاحظات ذهنية عن كل ما رأيته، سأنقلها فيما بعد إلى دفترى الأبدى. و«يجب أن أقول» وهذا تكرار لعبارتك المعهودة يا بروفيسور، إننى لا أفكر إلا فى رسم صورتين ماثلتين أمام نظرى طوال الوقت: برج بابل (وقد ذهبت لرؤيته ثلاث مرات فى المتحف) وأولئك الهاربين من الإصلاح الزراعى، والمستلقين كموتى تحت القمر.

حسن، لكل شيء نهاية. والمؤتمر الطلابى انتهى أيضاً وبدأ الرحيل بتسرع كبير. فى رحلة طائرة الـ TU الأولى ذهب القياديون الكبار، وكثير من المندوبين، وقسم من الطاقم الإدارى. وكان هناك ازدحام شديد من أجل الحصول على مكان فى الرحلة الثانية التى لم تصل، مثلما تعلم حضرتك، إلى هدفها وسقطت فى جبال تاترا. صديقتنا روزينا، وهى موظفة فى اتحاد الطلاب، وصديقة إيفا، بذلت حتى اللحظة الأخيرة أقصى الجهود كى ترحل فى تلك الطائرة. وفى اليوم ما بعد التالى، عندما عُرف خبر الكارثة، أُصيبت بانهيار عصبى. كانت تضحك وتبكى فى الوقت نفسه. تضحك لأنها نجت، بالرغم من جهودها المستميتة للصعود إلى النعش الطائر؛ وتبكى على الموتى، لأن عدداً منهم أصدقاء وصديقات وزملاء عمل منذ سنوات. ونتيجة الكارثة، كان لا بد لجماعة كبيرة من المندوبين والمدعوين والطاقم الفنى من البقاء أسبوعاً آخر فى بغداد. وقد بقيتُ معهم، فى بناء دار الطلبة الذى صار شبه فارغ الآن، وكنت أخرج بكثرة للتجوال مع روزينا، وهى امرأة بارزة بمعانٍ متعددة.

وماذا عن إيفا؟ سوف تسألنى حضرتك. فى اليوم التالى لانتهاء المؤتمر، قدمت نفسها إلى السفارة التشيكية، حيث رتبوا لها الاتصالات مع الوزارة التى تعاقدت معها ومع الجامعة، من أجل تدريس تصميم المنسوجات. وقد أمضت أياماً كاملة فى المعاملات والاستجوابات، وكان عليها أن تملأ استمارات، وأن

تقابل عدة شخصيات، وأخيراً، بينما أنا أكتب إليك، صارت على وشك البدء بدروسها.

وفى هذه الأيام استقر بنا المقام أيضاً فى بيت، حيث استأجرنا غرفتين، مع الحق فى استخدام السطح، وهو المكان الذى ينام عليه عادة أهل بغداد - مثلما اكتشفنا لاحقاً - فى هذه الفترة من السنة. وأنا أعنى بالطبع من لا ينامون فى الشارع منهم.

وفى أحد المتاجر، حيث توجد خرائط كبيرة ملفوفة، وحيوانات محنطة يغطيها الغبار، ودمى من فراء، ولوحات إنجليزية غير مناسبة لجنتلمانات بسترات حمراء يصطادون ثعالب على الخيول وسط قطيع من كلاب الصيد، وناب فيل منخور وضارب إلى الصفرة، وهيكل عظمى (لزبون لم يُلَبِّ طلبه قط). رفوف حتى السقف ممتلئة بعلب غامضة، وصناديق كرتون عليها كتابات إنجليزية مع نماذج أزرار من مختلف الألوان، وخزائن كتب منهكة، وكل ما تريد أن تضيفه. وفى أحد الأركان اكتشفتُ مكمن مواد مهنتى: رياش رسم صينية وهولندية فاخرة، أنابيب ألوان زيتية من كل الألوان، ألواح مزج مختلفة الأحجام، وعلب باستيل من ماركات متنوعة. صاحب المحل، وهو عربى ملتحٍ، له عينان حكيمتان ويضع نظارة معوجة ذات إطار سلكى، انتبه إلى ما يسترعى اهتمامى وأفهمنى أن لديه أشياء أخرى for the artists لكنه لم يستطع العثور عليها. قمت على أى حال بمشتريات أولية (بأسعار مناسبة جداً) ووعدته بالرجوع.

رأسى يعج بموضوعات ومشروعات. تفتننى التمور. ليس كغذاء بالضبط. فهى تسبب لى نوعاً من الاشمئزاز بسبب مظهرها الشبيه بالصراصير وحلاوتها المفرطة. ولكن ما يفتننى هو اللون... فى بعض محلات الثمار توضع صناديق التمر متجاورة، وبمختلف مراحل النضج، ابتداء من تلك التى تصل وقد قُطفت حديثاً، وهى بين اللون الذهبى والأصفر، وحتى الأخيرة التى مرت بسيرورة نضج طويلة تحت الشمس والذباب، وتكون أكثر قتامة من أشد الـ chancacas قتامة (آمل أن تعرف ما الذى أعنيه)، إنها بكل صراحة سوداء، زيتية، زفتيّة.

حسن، هذا يكفى. فلنتوقف هنا عن هذه الشهادة. وأعدك بأن أواصل الكتابة إليك، وإن كانت لدى شكوك كبيرة حول فعالية البريد. قالت لى إيفا إنه بإمكاننا استخدام الحقيبة الدبلوماسية للسفارة، وهى بطيئة كما هو معروف. ولكنها غير آمنة.

أرفق لك بضعة رسوم أولية لشخوص وأركان محلية، على قفا بطاقات الدعوة الفاخرة التى أرسلها لنا الزعيم قاسم، وعلى ورق تشيكى أسمر دراسة تخطيطية بالباستيل لوجه ابنة أخيك الجميلة، كى تضعها على منضدة عملك.

لك عناق حار من المخلص على الدوام، هـ.

ملاحظات على الرسالة الرابعة

عندما وصلتنى رسالة رابعة بيد روزينا، فى أيام أولى من شهر نوفمبر. خريف براغىّ ذو لون بنفسجى مثلما كان يصوره ببهاء شاعرنا قديم محبوب ياروسلاف سايفيرت. أشجار كستناء، وسنديان، وبلاتنو، وقيقب بتلونات حمراء وبنية تتزاحم. وتحت خطى بطيئة تصر أوراق جافة، بينما أنا أقرأ رسالة سميكة، وأغنية كئيبة لمغنينا دفوراك تُسمع. أرجو معذرة لهذه عبارات «شاعريات» أهى براعم ربيعية فى خريف؟

حسن، فلندع هذا جانباً. فى رسالة هويركيوسكية كل شىء، إذا كان معقداً، إلا أنه واضح. وهى على تطوره متسارع، فى الأفكار والفنية، شاهد. ما يصوره خاصة يهمنا، هو زيارة إلى متحف واكتشاف برج بابل زائد صورة فلاحين نائمين، لأن هنا أصل واحدة من أهم رسومه، وهى تحديداً لوحة ينتقدها بقسوة غير مفهومة ناقد جريدتكم محترم السيد مالالايت.

الرسوم تخطيطية مرسلة من الرسام كلها ثمينة. إنها خمس رسوم بقلم رصاص، بكل تأكيد لمشاركين فى المؤتمر زائد منظر بالريشة مستنسخ، حسب قصته، من صورة فوتوغرافية لبرج أثر فيه كثيراً. صورة إيفا

بالباستيل تستحق ثناء وتعليقاً خاصاً: وجه عذب رقيق يبرز من ورق أسمر على شكل حفر ناتئ مفاجئ، فى الوجه تورد خفيف وكتلة شعر أشقر فاتح جداً يحيط ابتسامة سماوية عذبة لابنة أخ نحن عزيزة، وتعبير ذهولها الخفيف معهود. بالحبر وبحروف نحيلة جداً يكتب هويركيو على هامش أيسر فوق جزء علوى من الصورة حتى هامش أيمن، مثل إكليل أزهار: «ذهب أصفر يحيط كهالة بوجهها الفضولى المذعور» اقتباس من قصيدة تناقشنا حولها معاً، واعتدتُ أرفقها بدروسى حول أنشودة السيد، «قشتالة» مؤلف القصيدة هو مانويل ماتشادو. «ماتشادو» السيئ هكذا يسميه دوماً رسام، مع العلم أن هذه صفة، حتى لأسباب سياسية مفهومة، أنا لا أؤيدها.

تعليق على هذه النقطة من الرسالة يجب أن أتركها كى أسجل وقائع تسارعت فى أيام تالية:

١) فى حوالى٢٢ ديسمبر، اتصال هاتفى من براغ من شخص إسبانى مجهول لى يدعى بينتو أو بانتو؛ فاسمه له وقع نفسه بالطريقتين، يخبرنى أنه من أجلى أحضر رسالة من بغداد. استخدم كلمة «زابايسكا» (رسالة قصيرة) التشيكية، وشرح مستعجل، إضافة فى رسالة. وهل يمكننى أنا ذهاب إلى براغ من أجل استلامها، لأنه لن يبقى أكثر من ثلاثة يوم فى بلادنا؟

غير ممكن، أجبت بحزم. لماذا لا تستخدم بريدنا التشيكى؟ يتردد، عبارات غموض مبهمة، احتمالات تدخل غريب، استعجال رسالة، يعبر، بإفراط كلمات سريع، وصعوبة كبيرة أجد فى فهمه للحظات (بسبب غرابة

لهجته). ظللت أتمسك بالرفض، وأخيراً، بعد تمنع كثير، وعد بإرسال مغلف بالبريد.

بعد إغلاق هاتف مباشرة، هاجس قوى داهمنى. فى أيام تالية كنت أعانى وخز انتظار، خواطر كثيرة تتشابك، وبسبب امتناعى عن سفر صرت أؤنب أنا نفسى، بالرغم من عدم قدرتى على سفر لأسباب أكاديمية، عائلية، شخصية، ومالية، وبقية واضحة.

٢) مساء يوم ٢٤ ؟ مجدداً هاتف يرن، يفزعنى عادة فى هدوء أكاديميكى يسود فى بيتى. هذه المرة، روزينا. مغمومة، ليست أقل جاذبية، فى صوتها. بحاجة مطلقة تتكلم معى. الآن بالذات. ألم تتلق رسالة من بغداد يا بروفيسور دكتور؟ ومغموماً أنا بدورى أقول لها: لا، ولكن من براغ سيرسلها إلىّ شخص مجهول. وأنا أنتظر. لا شك ستصل بعد ثلاث، أو أربعة يوم. وتُلح: ألن تأتى أنت يا بروفيسور دكتور قريباً إلى براغ؟ اضطربتُ وقلت، أجل، خطتى أن أسافر آخر أيام الشهر، مثل كل نهاية سنة، من أجل رأس سنة فى بيت ريبيكا. المعذرة، تقول لى وتقطع مكالمة فجأة وسط حيرتى شديدة.

٣) أيام تالية فى لهفة عالية إلى حدّ كنت أفاجئه نفسى كلمات بكماء (آمل) أُضمّن خلال محاضرات حول أغنيات قديمة، مع ابتهاج واضح من بعض تلاميذ أنا. لا أحد يتصل بهاتف، هذا يعنى روزينا لا تتصل. وأيضاً لا يوجد بريد، مع أننى دون جدوى أربع مرات أتفحص صندوق رسائل عند مدخل بيتى. تأمل طويل للهاتف لا يبدل صمته. أقرر على أى حال السفر فى ٢٨ ديسمبر، سواء وجود أخبار أو لا وجود أخبار. كفى هذه حماقة،

أقول فى نفسى. أقوم بنشاطات عادية، تجنب توتر، واجبات أنا يجب متابعتها.

ولكن فجأة، فى لحظة تهور، عند انتهاء ساعة درس أو أثناء بحث فى المكتبة، أتلقى رسالة تخاطرية (أو أظن تلقيها) وأسارع فى رجوع إلى بيت فى وقت غير عادتى، وحتى أستعمل سيارة أجرة فى مناسبتين، كى أجد الهاتف صامتاً مرة أخرى (حتى وصلت فى تفكير أنه معطل أو غير متصل بمقبس وأرفع سماعة كى أسمع رنين معهود) وصندوق بريد المنزلى فارغ.

٤) جاء يوم سفر دون تلقى أخبار. بمرارة أدركت أنه لا يستطيع أنا ابتعاد عن شقتى دون أن تتكشف أحجية. ما العمل؟ تعجيل وصول بريد لا أستطيع. أتقبل مزاح ساخر تشيكى يقول لا يجب تحميل ذنب لبريدنا التشيكى على عدم انتظام إرساليات، بريد تشيكى فعال جداً، ولكن الرقابة بطيئة فى ترجمة رسائل تأتى من الخارج. لكن يمكن اتصال بروزينا. منذ اللقاء معها أحتفظ برقم هاتف اتحاد طلاب. كيف أنا أبله لم أفكر من قبل فى هذا؟ بدأت أدير رقم، لكننى توقفت. هذه اضطرابات تداهمنى وسيكون من مستحيل خروج صوتى. أعيد سماعة. آخذ نفساً بعمق جداً. أمشى حتى مطبخى صغير وأتناول كأس ماء. إلى جانب هاتف أعود. أرفع سماعة كى أدير قرص هاتف من جديد، لكنى أعود لإعادة سماعة. وبقرار مفاجئ، أنا نفسى يفاجأ به، أُخرج من تحت منضدة مكتب مصنوعة من خشب سنديان (ميراث عائلى) أُخرج زجاجة سيلفوفيتشى ناقصة قليل جداً، وأسكب جرعة ملحمية فى كأس

وأشرب دفعة واحدة، على طريقة روسية. يبدأ إحساس عنيف باختناق، سعال، بعد ذلك حر شديد. (نادراً أشرب بهذه طريقة).

متعززاً بقوة، أدير قرص هاتف بحزم على رقم مرغوب وبصوت رسمى ثابت أسأل عن الـ soudruzka (الرفيقة) كامينوفا. وفى لحظة نفسها بالضبط، يرن جرس باب. أقترب من ردهة دون أن أترك سماعة كى أسأل: «من طارق؟» ومن خارج يرد علىّ: «ليستونوس Listonos» البريد. » انتظر، أرجوك، لحظة «رددت عليه صارخاً تقريباً عندما كنت أخطو خطوة أخرى فوقع هاتف على أرض بضجة صاخبة. عندئذ أسمع صوت روزينا تقول: «مرحبًا، آلو... من يتصل؟» وسارعتُ إلى رد:

«أنا، هذا أنا... جوزيف. بروفيسور بيران. لحظة واحدة أرجوك، لحظة واحدة، يجب أفتح باب .«وبحذر هذه المرة أترك سماعة هاتف على الأرض وركضت لأفتح. ساعى بريد منذ سنوات طويلة معروف، حيانى تحية عسكرية حسب عادة قديمة، وقال لى: «إيصال رسالة إليك سيد بروفيسور» وقّعت قائمة سجل، أخذت مغلف وأسرعت بإغلاق باب فى وجه ساعى بريد. وفوراً انتبهت إلى سلوك أنا غير متحضر، فتحت باب من جديد وقلت له: «اعذرنى أيها السيد ساعى بريد. مكالمة تليفون مستعجلة علىّ أن أرد .«أومأ لى وأغلقت باب من جديد، كى أسرع إلى هاتف. «ماذا حدث؟ «سألتنى روزينا. (صوتها، آه لصوتها)» إننى أنتظر. شىء غير طبيعى؟ بهياج شديد أقول لها: «لا، لا، لا، فقط فى

لحظة نفسها، الآن بالذات وصلت رسالة منتظرة» . وبهدوء بلسمى عظيم سألت: «وهل قرأتها؟» .«لا، لا ... ساعى بريد الآن بالضبط...» .بدا لى أن خيبة أمل خفيفة فى صوتها: »اقرأها إذًا، أرجوك. وبعد ذلك اتصل بى من جديد .«كانت هناك فرقعة خفيفة: وانقطعت مكالمة!

٥) رسالة قصيرة أو «زابايسكا» من هويركيو، أستنسخها فيما يلى، أوضحت مجهولات، وفتحت أخرى غيرها، كما يمكن لقارئ أن يقدر. يكفى الآن أن أقول إننى فى يوم التالى، ٢٩ ديسمبر، فى قطار سريع أسافر إلى براغ، وأعيد مرة بعد أخرى قراءة رسالة، ولقاء جديد مع روزينا تحدثتنا مسبقاً عن ترتيب كل تفاصيله، مع شكوك كثيرة وغير قليل من تهيج ذهنى، نتيجة تحول انفعالى قوى.

الرسالة الخامسة

بروفيسور: أنتهز فرصة سفر الصديق بينتو، جان جاك، وهو مواطن مغربى من أصل إسبانى بعيد، يتكلم الإسبانية، كى أرسل إليك هذه الزابيسكا(*) المستعجلة. أريد أن أستغل كرمك وحسن تفهمك مرة أخرى، فى موضوع شديد الحساسية هذه المرة. أطلب من حضرتك أن تقدم إلى صديقتنا المشتركة روزينا مبلغ ٤٥٠ كورونا فى أسرع وقت ممكن. إنها بحاجة إلى هذا المبلغ من أجل مسألة ربما من غير المناسب اعتبارها مسألة حياة أو موت، لكنها «مسألة شرف» بكل تأكيد. إنها مسألة لا تحتمل التأجيل. وأنا واثق من أن اللبيب يفهم بكلمات قليلة.

سأجد طريقة لأعيد إليك قريباً جداً هذا المبلغ، سواء بإرساله من هنا أو من خلال صديق فى براغ.

(*) زابيسكا zápiska بالتشيكية في الأصل، وتعني: رسالة قصيرة أو ملاحظة.

يمكن للصديق بينتو أن يقدم لك بعض المعلومات الإضافية، إذا لم تفعل روزينا ذلك. ولا حاجة على الإطلاق إلى إطلاع إيفا على هذا الموضوع. أنت تفهمنى بالطبع. تحياتى.

هـ

ملاحظات على الرسالة الخامسة

٣٠ ديسمبر، من محطة قطارات براغ، وفى جيب داخلى رسالة هويركيو (رسالة رقم ٥) وفى جيب آخر مغلف فيه نقود مطلوبة، وأمشى بخطوات مندفعة فى ساحة فاسلاس بلاتز وجادة ناسيونالى، باتجاه لقاء مع روزينا. أتوجه إلى مقهى سلافيا، فى جانب آخر من شارع مسرح وطنى، بجوار مرسى نهر فلتافا، أو نهر مولدافيا كما تسمونه بالإسبانية، بطريقة لا تفسير لها. أكتب «مرسى» ولدى شك. أهى صحيحة بالإسبانية؟ إننى عملياً أترجم عن فرنسية «quai». وباختصار، أن أفهم، وهذا كل شىء.

تمر غيوم سوداء متوعدة، منخفضة جداً فوق رءوسنا، رائحة دخان فحمى، رطوبة تنقلب معها لزجة حجارة مربعة فى شوارع براغ، لكنها لا تتمكن من بث الخيبة. برد قليل أشعر أنا، زائد بداية زكام فى أنف، بالرغم من معطف ثقيل موديل هوبيرتوس أرتديه، وقفازات، وقبعة، ولفاع، وحذاء سميك. بعض برد خاص فى الوجه، بسبب نوبة اندفاع مفاجئ أزلتُ معها دون تردد لحيتى التى كانت تغطيه طيلة خمسة عشر عاماً، كى أكتشف فى المرآة وجهاً حقيقة بلا شعر، نوعاً من

الشاب الهرم بعينين طائشتين وابتسامة غير إرادية. ويجب أقول، وأنا فى طريق إلى سلافيا، إن قلبى يغرد للقاء روزينا. فمنها كان القرار، ومنى أنا فقط موافقة، باستبدال ساحة تيل بهذا المقهى المرمرى.

وعندما وصلت فقط انتبهت إلى أن أمامى انتظار طويل. ساعتين وربع على أقل. ولهذا، أقرر أن أتمشى على قدمين إلى جانب نهر، حتى جسر كارل، بعذراواته وقديسيه المسودين- ومنه حتى ساحة مالوسترانسكا. ولا تتخلى مرة أخرى عن مداهمتى فكرة أن هذه الأحجار التى أدوسها على الجسر موجودة هنا، فوق مياه نفسها (ليست نفسها أبداً كما قال فيلسوف)، منذ خمسين سنة قبل كريستوفر كولومبس أن يرفع شراعه من بويرتو دى بالوس، مع بحارته، لحم سجون. ولا أتوقف عن تفكير فى هويركيو وأسلافه (أتعنى هذه الكلمة بالإسبانية من ولدوا من قبل؟) الذين لم يتصوروا أنهم قد «اكتُشفوا» عندما واجهوا تلك المخلوقات، رجال فوق خيول.

أخيراً التقينا وجهاً لوجه، روزينا وأنا. أصيبت هى بنوبة ضحك حين رأتنى متبدلاً، وبعد أن تعرفت علىّ، ليس فوراً، من دون اللحية والشارب. وهى تضحك التصقت بى، دافئة بصورة مقلقة، وقبّلتنى من خدين، من أجل تمد بعد ذلك ذراعيها وتضع يدين على كتفى، تتفحصنى طويلاً بعينيها المكبرتين الزرقاوين. وجهى الملتهب صار حريقاً.

«لست سيئ المظهر يا بيبيك. بل يمكن القول إنك جيد. إنك فاتن» تقول لى، وتضيف: «لقد أزحتَ عشرين سنة عن كاهلك» ثم ضحكة مدوية من جديد.

جلسنا إلى جانب نافذة تنظر إلى مسرح قومى، وأمام كل منا فنجان قهوة تركية. أخرج المغلف وأسلمه لها. تنظر إليه وترى ما كتبته بحروف واضحة عليه «إنها ٥٠٠ كورونا» ودون فتحه، تتركه فوق منضدة وتسند وجهها بيدها يمنى، اليد فى نهاية ذراع يستند مرفقها إلى المنضدة، وتقول: «لا أدرى يا بيبيك، لا أدرى، لا أدرى».

أقول لها لماذا «لا أدرى؟» كل شىء واضح.

«إننى حامل» تقول، ثم تضيف: «من هويركيو»

«من رسالته يمكن استنتاج شىء» أقول دون أن أنظر إليها.

«وهذا ليس كل شىء. زوجى لا يشك فقط. يعرف كل شىء، ما عدا اسم الفاعل».

«هل ممكن هذا؟».

«لقد أخبرتك، إنه مريض بالغيرة. رجل عجوز ومريض. يعرف، يعنى يعرف، حتى موعد عادتى الشهرية. يطالب بإثباتات. يشك دوماً بالأسوأ. أعنى بالأفضل. يشك أننى حبلى. يهدد، يصرخ، يطالب»

«إذاً؟».

«كل شىء انتهى. أرفض تقديم تفسيرات. لا شىء عندى أقوله. يزدرينى، يأمرنى بالخروج من بيت. أخرج. إننى فى بيت صديقة، فى مثل هذه حالات هناك حاجة دوماً إلى صديقة»

«ولكن... ماذا ستفعلين حضرتك؟».

(صارت القهوة فى الفنجانين باردة).

«لا يجب أن تكلمنى بحضرتك، يجب أن ترفع الكلفة».

«حسن. ماذا أنت ستفعلين؟».

«لا أدرى، لا أدرى. ولكن هناك شىء واضح: الابن... سيكون لى ابن. لا أريد مزيداً من عمليات الإجهاض. هذا كل شىء».

وتدفع مغلف النقود لتعيده إلىّ.

أقول لها: «وماذا عن هويركيو؟ ألن تطلبى اعترافه بالطفل؟».

«لا» وتعض شفتيها لتضيف: «لن يكون لذلك معنى إلا إذا عشنا معاً. ولكن غير ممكن. هو يحب إيفا. ما حدث قد حدث. توافق بين راشدين. بل إننى نادمة لأنى طلبت منه نقوداً. فى تلك اللحظة لم أكن أعرف ماذا سأفعل. وباختصار كنت أحاول إنقاذ زواج زائف. إننى وحيدة وسأظل وحيدة، مع ابنى. هذا كل شىء».

عندئذ، أكون فى مفاجأة وأنا أسمع نفسى أقول: «هذا ليس كل شىء. أنت لست وحدك. يجب أن تأتى معى».

صمت عظيم مدوٍ، ويخيل إلىّ أن الجميع ينظرون إلينا فى المقهى.

«معك» تقول لى، «إلى أين؟ ما الذى تعنيه؟»

ومن جديد أسمع نفسى تتكلم، وقليل من الإرادة تتدخل فى هذا: «روزينا (مع ارتعاشة خفيفة)، أنا أرغب أن تكونى زوجتى».

تنظر إلىّ عيناها أكثر من نفاذتين، مثقبا روح مائلين إلى خضرة، من خلال نظارة.

«لماذا؟ ألأنه ابن هويركيو؟»

لا يوجد لدى كلام للرد. أنهض بعنف عن مقعد وأخرج مثلما أنا إلى شارع بارد، دون أن أمرّ إلى مكان حفظ معاطف. أتوقف، مضطرباً إلى أقصى حدود، ناظراً باتجاه النهر. لا أدرى ماذا يجب أفعل. أشعر بحمى. وأشعر كذلك بيد هى، بأقصى عذوبة صوت تقول لى: «اعذرنى، أرجوك، لنرجع إلى مقهى. يمكن أن تصاب بالبرد هنا».

نجلس مرة أخرى وجهاً لوجه، بصمت عظيم. هى تتفحصنى، بأية طريقة! وأنا أتفحصها. وأخيراً أقول أنا:

«أريد أن تأتى معى. وهذا لا علاقة لأحد به سوى أنت وأنا. إننى بروفيسور عجوز، وعجوز بمقارنة معك. لدى بيتى صغير فى أوستى ناد لابيم ومعك، لا أطلب شيئاً آخر، أريد أن أتقاسمه وكل شىء والحياة نتقاسم، على أبد»

يدها فوق يدى وعيناها زرقاوان جداً تنظران إلىّ من خلال نظارة.

الرسالة السادسة

حول روزينا/ السيد البدين بينتو وزيارة إلى صناعة محلية/ عشاء مع أسرة مربى خيول ونتائج/ نشاطات تصويرية.

عزيزى البروفيسور: يمكننى أخيراً أن أكتب إليك. اتصالاتنا تتعقد. نظام الحقيبة الدبلوماسية بيروقراطى وبطىء، فضلاً عن أنه غير متكتم. فحرمة المراسلات فى نظر حماة الدولة البروليتارية ليست أكثر من بدعة برجوازية. لابد من مواصلة استخدام هذا النظام أحياناً، لأن المسافرين يتناقصون، أو من أستطيع الاتصال بهم على الأقل. سأحاول فى بعض المناسبات تجريب البريد العادى، وإن كنت لا أبنى أوهاماً عليه. السيئ فى الأمر هو أننى، فى انتظار التواصل الرسائلى، أقوم بجمع ملاحظات وتأملات (اعذرنى لهذا الادعاء) ويكبر حجم ما أكتبه إلى قدر غير طبيعى ومثير للريبة. وهذه البلاد، مثلما هى بلادك، عالم شكوك وريبة عظيمين.

لا أدرى ما حلّ برغبتى فى تقديم ذلك المبلغ من المال إلى روزينا لأنى لم أتلق رسالة منها. كانت هناك رسالة شفوية فقط نقلتها إلى تشيكية عابرة بدت لى مشفرة. تقول «إن كل شىء يمضى على ما يرام، لا تقلق، تحياتى» لا توضح شيئاً يذكر. وأنت، باعتبارك رجل دنيا، لا بد أنك استطعت فهم الأمر. روزينا امرأة رائعة، لكننى كما يقول الشاعر «لم أشأ الوقوع فى الحب». «والأدق هو القول: لم أستطع» إيفا هى زوجتى، وهذا لن يتبدل. وقد كانت هناك ظروف، والرجل ليس حديداً. فى تلك الأيام فى بغداد، بعد كارثة الـ TU لم يكن هناك ما يمكننى عمله سوى التسكع، وزيارة آثار بابل، وتبادل الأحاديث دون انقطاع... ومن المعروف أن الأحاديث بين الرجل والمرأة فى أحيان كثيرة (فى معظم الأحيان؟) هى بالكاد بديل للقهوة، وتكون قهوة مضاعفة فى الظروف غير المواتية. فقد كانت إيفا مشغولة منذ الصباح حتى الليل فى مقابلات وإجراءات، واجتماعات فى السفارة ومع أشخاص من الوزارة، والجامعة، ... إلخ. وهكذا، بطريقة طبيعية جداً، تحت ضغط تلك النظرة الزخمة، تحول الأمر إلى دروب الممارسة. ولكننا لم نمض إلى ما هو أبعد من ذلك. ستسأل حضرتك: إلى أين؟ وما أعنيه هو إيضاح أن العلاقة تنتهى مع الوداع فى المطار. ولم يكن هناك أى نوع من الالتزامات.

وقد كان الأمر بالنسبة إلىَّ مفاجأة، بل صدمة، عندما علمتُ أن هناك نتائج خلوية، جنين آخذ

بالتطور. وتلقيتُ طلب روزينا، ولم يكن يتضمن أى نبرة إكراه أو قسر. بل كان، ـ كيف أقول ذلك؟ ـ طلب مساعدة أخوية. فى تلك اللحظة، تصادف سفر السيد بينتو، أو بانتو كما يقول هو، فأرسلتُ إلى حضرتك رسالتى القصيرة. وعند عودته أخبرنى أنكما تكلمتا هاتفياً فقط، وأنه أرسل إليك رسالتى بالبريد. وظللتُ عند هذه النقطة بانتظار الفصل التالى، كما فى عروض السينما؛ وما زلتُ أنتظر. حسن، لن أقول إن هذا يحرمنى النوم، لكنه فى الحقيقة يقلقنى. عسى أن تخبرنى حضرتك مع عودة البريد (ويا له من بريد) بما حدث. ويمكنك على كل حال أن تسترد الكورونات، لأننى اتخذت الإجراءات اللازمة للمسألة.

تأسفتُ كثيراً لأنك لم تتعرف شخصياً على بينتو. إنه شخص ضخم، أسمر، له شعر زيتى وأجعد، ويتكلم قشتالية براءات فرنسية، ولكن بنبرةٍ شديدة الإسبانية وعربية أحياناً، إنه صعلوك أبدى، مطلع على كل شىء، ومستعد للضحك من أى شىء. وفى هذا الأمر الأخير لا أتكلف مشقة فى مجاراته.

صرخته المفضلة التى يستخدمها فى ظروف شديدة التنوع هى: «قريدس مشوى!» وهذه فى نظر البدين هى ذروة المطبخ العالمى. لقد تذوقها أول مرة، كما قال لى، فى أحد بارات رمبلا الزهور فى برشلونة، ولم يستطع نسيناها قط. وقد تناولها بعد

ذلك فى أماكن أخرى، حول البحر المتوسط وبحار أخرى، لكنه لم يجد ما يمكن مقارنته بتلك. لا حاجة إلى القول إن للطعام أهمية هائلة لديه. تكفى رؤيته. لكنه يهتم كذلك بأمور أخرى. فى ذلك البار فى مدينة بارشلونة («مدينة لها اسم بار» كما يقول) دخل رجل طويل القامة، أبيض الشعر، يرتدى مخملاً أسود من رأسه حتى قدميه. لاشك فى أنه فقير، لكنه محاط بهالة من الوقار لا وجود إلا فى إسبانيا لفقراء لهم مثل تلك المكانة السامية. نوع من ملك فى المنفى. وكان يحمل فى يده اليمنى صندوقاً صغيراً. ولأنه لاحظ أن بينتو ينظر إليه وهو جالس إلى منضدة مع وجبته من القريدس، فقد اقترب منه، وقال له وهو ينظر مباشرة إلى عينيه: «أترغب حضرتك فى أن أمسح حذاءك؟».

وقد قال لى بينتو: «و... ذلك الرجل الذى يمكن له، فى تلك السن، أن يكون والدى، اعتبر صمتى موافقة، فوضع الصندوق على الأرض وجثا على قطعة قماش لينظف حذائى. شعرت بخجل عظيم لرؤية ذلك الرأس النبيل المكلل بالبياض مهاناً. يا للعنة! لكننى واصلت شرب نبيذى وأكل طبقى من القريدس. إنه الشرط الإنسانى».

وامتلأت عيناه بالدموع، ومسحهما بمنديل متسخ تماماً بينما هو يتمتم: «قريدس مشوى»

تُميزه فى ملبسه ربطات العنق. لديه ما لا يقل عن خمسين ربطة عنق. يبدل واحدة مختلفة كل يوم.

وجميعها إيطالية الصنع، من الحرير الطبيعـ
معظمها مزين بأزهار جميلة، وعريضة جداً. تغط
صدره بالكامل تقريباً. سألته فى أحد الأيام لما
يستخدم ربطات عنق عريضة بهذا الشكل، لاسيما
وأن الموضة تمضى فى اتجاه معاكس بين مستخدمي
ربطات العنق (وهم جنس من البشر لا أنتمى إليه).
فأجابنى بأن ضخامة جسده تجعل الربطات الضيقة
غير مناسبة له. وكشف لى أنه يوصى على ربطات
عنقه عند إنزو، وهو صانع ربطات عنق مشهور فى
فرينزى. ويرفق هذه العناية المرهفة بربطات العنق
بإهمال كبير لبقية ملابسه. فهو يرتدى بدلات رمادية
متشابهة إلى حد التطابق (أو ربما هى بدلة واحدة؟)،
ومشوهة جداً لكثرة الاستعمال، وليس لها ذاكرة مع
المكواة، ومزينة ببقع يتحدر معظمها من مواد غذائية.
والسر الغامض هو فى تمكنه، فى طريقته النهمة
والمبعثرة فى الأكل، من تلويث سترته وبنطاله على
الدوام، دون أن يلوث ربطة العنق مطلقاً.

التقيت ببينتو فى يوم كنت أنتظر فيه إيفا عند
باب السفارة التشيكوسلوفاكية (وكان ذاهباً إلى هناك
لطلب فيزا مرور)، ومنذ ذلك الحين صرنا، إن لم أقل
صديقين، فزبونين دائمين فى المقهى. وهو ليس
عراقياً، وإنما هو مغربى، وقد سافر وجال عبر جنوبى
أوروبا كله: إسبانيا، فرنسا، إيطاليا، اليونان،
يوغسلافيا؛ كما أنه يعرف الجزائر، وتونس، ومصر،
ولبنان، والأردن، وسورية. يعمل فى تجارة الاستيراد

والتصدير، ويتكلم عن تجارته بغموض، ويملك كما يبدو الكثير من المال وكل ما يرغب فيه من وقت الفراغ. ويسافر بكثرة.

إنه ضليع عظيم فى معارف غير مجدية، وبطل عالمى فى حل الكلمات المتقاطعة، يعرف الكثير من الآداب الغربية ومن القصص القديمة، وهو هاو كبير للقصص الإيروتيكية من الحياة غير الواقعية. أتمنى لو أنك تراه عندما يغمض عينيه برموشهما الكبيرة، ويبلل شفتيه بلسانه، يفرك يديه ويقول: «فلنتحدث عن أمور قذرة».

وهو يدافع عن «أخلاق التقية» وهذه جزء من الفكر الدرزى، تتحدر فى خط مباشر، على حدّ قوله، من أثينا. وجوهرها يتلخص فى أن «كل ما يمكن عمله فى السر مباح ومشروع».

كثيراً ما يتحدث، وبقدر كبير من المعرفة، عن العنف الذى يشكل فى طبقات متتالية لا حصر لها جوهر تاريخ هذه الشعوب وسماد هذه الأرض. وعندما يجد شيئاً ذا أهمية فى الكتب التى يقرؤها باستمرار (ولكن متى؟ فى أى وقت؟ إذ كنت أراه دائماً فى المقهى أو فى بهو الفندق الرئيسى أو مطعمه، يتبادل الحديث مع أحد أصدقائه الكثيرين ويداعب مسبحة حباتها من الأبنوس أو من العاج كالتى يستخدمها العرب. ولا أدرى إذا ما كانوا يفعلون ذلك لأسباب دينية أو لمجرد الحسية وحدها)، عندما يجد

شيئاً مهماً، كما يقول، يدونه على قصاصة من الورق. وهو يمضى بجيوب ممتلئة بهذه الملاحظات التى يسميها «الوريقات» ويُخرجها حسب مسار الحديث ويقرؤها. ولا يجد عادة القصاصة التى يحتاج إليها، الملاحظة الدقيقة للاستشهاد أو لتأكيد ما كان قد قاله. لكن اقتباساته تكون، بطريقة أو بأخرى، على علاقة ما بموضوع المناقشة. كدتُ أنسى: جميع «وريقاته» المقتبسة من الكتب يدونها بالعربية. فهو يترجمها بتدفق شديد، وأشك فى أنه يفعل ذلك بشىء من الاستنسابية، لأن القصاصات التى يقرؤها تتماثل على الدوام مع طريقته فى الكلام والتفكير. أم تراه يختارها لهذا السبب بالذات؟ لقد وصل بى الأمر إلى التفكير أحياناً فى أنها جميعها مختلقة. وكدليل على ذلك، أرسل إليك ما يؤكد بينتو أنه اقتباس من هيرودوت حول الصلابة المقارنة لجماجم الفرس والمصريين، وهو موضوع غير تافه فى أزمنة الحرب. أى على الدوام تقريباً. وقد طلبتُ منه أن يمليه علىّ كلمة كلمة، ودونته، وهو ذا:

«... جماجم الفرس ضعيفة جداً يمكن لرميها بحصاة أن يثقبها، بينما جماجم المصريين بالمقابل شديدة الصلابة، يصعب كسرها حتى بصدمها بصخر الصوان. والسبب الذى قُدم لى يبدو واضحاً: فالمصريون يحلقون شعر الرأس منذ صغرهم، وبهذه الطريقة تتصلب عظام الجمجمة تحت تأثير الشمس؛ والأمر ليس كذلك عند الفرس، فجماجمهم لينة جداً

لأنهم يغطون رءوسهم منذ الطفولة بأشرطة من الصوف الـ enfurtida.»

لا تسألنى أيها البروفيسور عما تعنيه كلمة «enfurtida». فقد قال لى بينتو: «يا رجل، enfurtida تعنى هذا بالضبط: enfurtida. ماذا تريد؟» ولم أستطع أن أخرج منه بأكثر من هذا. فى يوم آخر قال لى، بصورة مباغتة، إن مدينة ديار بكر كانت تسمى فى زمن الأشوريين كاركاتوحيرتا. وقرأ لى الاقتباس التالى عن سينَحارِب، أحد ملوك أشور: «استوليتُ على كاركاتوحيرتا التى قاومتنى، وصلبت فيها ثلاثة آلاف رجل» ثم أضاف بابتسامته المفيستوفيليسية: «ممارسة الصلب لم يخترعها الرومان. لقد كانوا تلاميذ متدربين على الدوام. فأعمال الصلب كانت مزدهرة فى هذه الأراضى، وعلى مستوى صناعى، قبل ألفى سنة من ذلك اليهودى الذى يدعونه يسوع» سألته إذا ما كانت ديار بكر موجودة الآن فى العراق. فنظر إلى بشىء من الرثاء لحالى وأوضح لى أن دياربكر أو دياربكير مدينة كردية قديمة، وهى اليوم ضمن الأراضى التركية.

ومن خلال بينتو توصلت إلى التعرف على بعض أهالى بغداد، وشاركت فى أغرب وليمة فى حياتى، أوشكت أن تكلفنى حياتى. فقد قدمنى إلى سيد وقور جداً، وهو كما قال لى مالك أحد مصانع السجائر الرئيسية، يضع فى يده اليسرى خاتماً ذهبياً بضخامة لا تُصدق، وفيه زمردة تتناسب مع ضخامته.

ويستخدم كذلك حراساً شخصيين (اثنين) من الوزن الثقيل، يجلسان إلى منضدة مجاورة لمنضدته فى المقهى. أحدهما لا يرفع بصره عنه لحظة واحدة، بولاء يفوق ولاء كلب، بينما الآخر يمسح بنظارته القاتمة محيط المكان فى جولة دائرية١٨٠ درجة، بحركة من رأسه أقرب إلى البطء، لكنها لا تتوقف، من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، وببطء أشد عندما يغطى منطقة الباب. ويُبقى يديه طوال الوقت تحت المنضدة (وهو أمر يعتبر قلة ذوق فى تشيلى)، وأفترض أنه يمسك بهما سلاحاً. تفضل الصناعى بمد يده إلىّ (قليلاً) وهز رأسه عندما ألمح إليه بينتو بأننى «فنان كبير» وأننى راغب فى زيارة مصنعه. قال هذا بالعربية، وترجمه لى فيما بعد. فقلت له كمن هو راض وبابتسامة زائفة بأنه ليس لدى أى اهتمام خاص لزيارة مصنع للسجائر. لكنه كان قد قرر بدلاً منى.

فى اليوم التالى، فى حوالى الساعة الحادية عشرة (ولم أكن قد رأيته من قبل فى مثل هذا الوقت المبكر) التقينا للقيام برحلتنا. نقلتنا سيارة أجرة عبر شارع بيوت صغيرة مكعبة، من طابق واحد، بعضها مكسو بملاط ذى ألوان غير متوقعة (بنفسجى، برتقالى، أصفر)، وبعضها الآخر ببورسلين، كأنها غرف استحمام، وبعضها بالفسيفساء. ولها جميعها نوافذ مزودة بقضبان حديدية، وحديقة ميكروسكوبية فى المقدمة. وصلنا أخيراً إلى عنبر خشبى هائل،

استقبلنا عند مدخله بمبالغة فى الانحناء والتملق ما يبدو أنه رئيس العمال أو مدير المشغل الذى أُعلم بزيارتنا.

دخلنا فى أثره إلى الهنكار الهائل، حيث الهواء مشبع بغبار التبغ الذى سرعان ما سبب لنا العطاس وحرقة فى العيون. كانت هناك مناضد طويلة جداً ذات أغطية معدنية تجلس إليها مئات ومئات النساء (لا أبالغ)، كثيرات منهن يرتدين السواد، وأخريات يتلفعن بأثواب رمادية لها لون الفئران، وجوههن نحيلة وكئيبة، وأيديهن طويلة الأصابع، وأذرعهن سمراء عارية (الأكمام مرفوعة كى يتمكنّ من القيام بعملهن)، ينجزن مختلف مراحل التصنيع. كل مراحل العمل تتم يدوياً: فرم التبغ بضربات سكاكين صغيرة وحادة جداً فوق سطح المنضدة المعدنى، وصنع الأنابيب الورقية التى يجرى لصقها باللسان (حسن، هذه المرحلة لسانية)، ثم يلى ذلك ملء هذه الأنابيب - السجائر - بالتبغ المفروم، وبعد ذلك بعض الضربات لرص التبغ فى السجائر، ثم وضعها فى علب مختلفة التصاميم، حسب النوع. وفى بعض اللحظات، تنتقل أزواج من النساء من قطاع إلى آخر، يحملن سلالاً كبيرة مملوءة بتبغ مفروم أو لفائف فارغة، أو سجائر تامة الصنع. كان الحر خانقاً. وغبار التبغ الملتصق بالبشرة المتعرقة يُحدث فى اللحم حكة من الصعب تحملها. وكان ضوء الشمس يدخل من نوافذ جانبية، متسخة جداً، فى حزم ضوئية، عبر عوارض خشبية رفيعة، منفصلة

ومائلة، تشكل كل الجزء العلوى من جدران العنبر. حزم ضوء الشمس تلك التى يمكن من خلالها تقدير كثافة غبار التبغ المعلق فى الفضاء، تحوّل هيئة العاملات اللاتى تسقط عليهن إلى مظهر سجينات بزى مخطط فى معسكر اعتقال نازى. قمتُ ببعض الرسوم الأولية، بينما رئيس العمال يراقبنى بارتياب، ويوجه إلىّ انحناء تحية متوالية وابتسامات تأييد.

سأوفر عليك التفاصيل. لقد بدت لى صناعة من عصر ما قبل الصناعة. ماذا أقول من العصر الوسيط. وكان بيفتو يتفحصنى ليلاحظ ردود فعلى، ولكن... الهندى لا يُظهر مشاعره.

بعد بضعة أيام، أخبرنى هذا البدين قاطع الطريق بأننا مدعوان للغداء عند أسرة مربى خيول، أناس متنفذون يمتهنون تجارة الخيول الأصيلة وتربيتها. وقال لى إنهم يعيشون فى بغداد منذ سنوات طويلة (هم فى الأصل من الصحراء الغربية، ومن مواطنيه بطريقة ما)، ويحافظون بغيرة، دون أحكام مسبقة، على عاداتهم التقليدية، باستثناء حياة البداوة والترحال التى استبدلوها الآن، بعد ازدهارهم، بحياة الاستقرار فى بيت فخم.

أهو بيت فخم؟ من الخارج سور طينى بارتفاع خمسة أمتار، وباللون الأمغر الذى لا مفر منه، وباب صغير، أكاد أن أقول إنه حقير. وبعد اجتيازه، وهو ما تطلب قرع جرس بشد حبل، والانتظار لبعض الوقت، بينما كان يُسمع فى الداخل سحب سلاسل وعوارض

ومزالج وأقفال، وجدنا نفسينا فى بستان.. حديقة أشجار سامقة، وشجيرات كثيفة ومروج عشب صغيرة، وعبق أزهار، اجتزناها فى أثر خادم، عبر درب متلوٍ. كان يُسمع خرير ماء، وفى البعيد صوت موسيقى كئيبة وعذبة، مختلفة تماماً عن الأنين والتأوه ـ والزعيق أحياناً ـ ألماً (أو حباً) التى تصدرها الآلات الموسيقية العراقية فى مقطوعات متماوجة بلا بداية ولا نهاية، تبثها الإذاعة من الصباح حتى المساء، وتلاحق أحدنا فى الشوارع، وفى البيوت، وفى المكاتب، وفى المقاهى، وفى سيارات الأجرة، وفى كل مكان.

وصلنا أخيراً إلى البيت، وهو قصر حقاً، من طابق واحد شاهق الارتفاع، وسقف أبيض مزخرف كالنسيج المخرم، يستند إلى غابة أعمدة ممشوقة تنتهى بأقواس مقنطرة.

ينفتح المدخل الرئيسى بباب مذهب من مصراعين، ارتفاعه نحو ثمانية أمتار. وكان ينتظرنا إلى جانبه شابان طويلا القامة، وشديدا السمرة، لهما شعر مجعد جداً ويضعان نظارات خضراء. وكانا يرتديان ثوبين أبيضين واسعين، ويبتسمان ابتسامات متألقة. تقدما لاستقبالنا مبديين سعادة مبالغاً بها. ليس هناك فى حياتيهما، على ما يبدو، ما سبب لهما سعادة عظيمة مثل زيارتنا. عانقانا، قبّلانا، اقتادانا وهما يتأبطان ذراعينا برفق عبر بهو ذى بلاطات صغيرة مزينة برسوم تجريدية بالغة الرهافة بالأحمر

والأصفر والأخضر، وفى منتصفه نافورة من حجر أبيض يُبَرّد تدفقُ مائها الجو، حتى بلغنا قاعة مهيبة، حيث حُيينا بمظاهر مودة جديدة وغير مبررة من قبل عدة سادة آخرين، يرتدون ثياباً مشابهة. ومن بعيد، من خلال باب مفتوح، انحنت لنا بالتحية عدة سيدات باسمات، وبدا لى أن بعضهن شابات وجذابات. لكنهن لم يقتربن سنتيمتراً واحداً. وكانت هناك طقوس أخرى: غسل للأيدى فى جفنات فضية مملوءة بماء معطر، تلاه تجفيف بمناشف من نوع مناشف فندق ستة نجوم، ثم قُدم لنا بطريرك له هيئة موميائية، أشبه بحرذون، كان جالساً فى غرفة مجاورة فوق ما يشبه عرشاً من خشب قاتم (لا أظن أنه انتبه لوجودنا، على الرغم من أننى أقدمتُ ـ مدفوعاً بالجو ـ على تقبيل يده اليمنى؛ وقد ذهب بينتو إلى أبعد من ذلك، فقبل كتفه الأيسر). وإضافة إلى هذا كله، فاتنى أن أقول لك إننا جُردنا من بعض ثيابنا وأُلبسنا الجلابيب البيضاء الضرورية، وقد تبين لى أنها باردة ولطيفة حقاً.

حان موعد جلوسنا إلى المائدة. لم يكن جلوساً. لأن التعبير الأدق هو القول اتكاء. أو استلقاء. وكان بينتو يفعل ذلك كله بتلقائية كاملة، دون أن يتوقف عن تبادل الحديث بالعربية مع مضيفيه، مرفقاً ذلك بإشارات متواترة إلىّ، وهو ما كنت أفهمه من النظرات والإيماءات المفعمة بالمحبة التى يوجهونها إلىّ، وأرد عليها أنا بأفضل ما هو ممكن. تمددنا إذاً على

سجادة سميكة، وسط حشايا ووسائد، إلى جانب مائدة منخفضة، مترعة بالأطعمة ومزينة بأزهار وفواكه. وعملاً بما أشاروا به إلىّ، صار جسدى يشكل زاوية مقدارها ٧٥ درجة مع المنضدة، وهو وضع بدا لى فى البداية غير عملى. وسرعان ما عرفت السبب. فعندما بدأ استعراض المأكولات، جلس إلى جانبى الشابان اللذان استقبلانا - أحدهما إلى يسارى والآخر إلى يمينى - وهما ابنا صاحب البيت، حسب ما همس لى به بينتو. وهذا يعنى، كما هو مفترض، شرف كبير. وكانا قد خلعا نظارتيهما الخضراوين وظهرت على وجهيهما رسوم زرقاء لامعة. وكانت زرقاء أيضاً راحات أيديهما. وقد شرح لى بينتو فى ما بعد أنها عادة طقوسية لدى أصحاب الخيول. الحيرة كانت إحساسى السائد خلال الوليمة، ولأن مرافقى كان فى الجانب الآخر من المنضدة، فإننى لم أستطع سؤاله عن أى شىء، اللهم إلا بنظرات متسائلة، ويائسة فى بعض اللحظات، يرد عليها هو بابتسامة ماكرة.

على صفيحة معدنية ساخنة، تميل انحداراً، ويبدو أنها تغطى موقداً، راح مضيفاى، واحد من كل جانب، يضعان بحركات سريعة شرائح لحم رقيقة، تفرقع وتتلوى على الفور. ثم يبادران بعد ذلك إلى إخراجها وغمسها على التوالى، بنوع من المنهجية، فى اثنين أو ثلاثة من اثنى عشر إناء خزفياً صغيراً تحتوى صلصات مختلفة الألوان والطعوم. ثم يحولان شرائح اللحم الصغيرة المشوية والمبللة بالصلصات إلى

كرات، مستخدمين فى ذلك راحات أياديهما، ويدسانها بالتناوب، بإيقاع سريع، فى فمى. لم أكن قادراً على المضغ كما يجب، إذ أجد نفسى مضطراً إلى فتح فمى من جديد لتلقى كرة صغيرة أخرى. كانت الطعوم غريبة ولذيذة: تتبدل أحاسيس البرودة النفاذة التى يبعثها النعناع، مع طعم الفلفل اللاذع، وحموضة اللبن الرائب البلسمية. لكننى كنت أجد صعوبة فى الاستمتاع بذلك كله لأن الإيقاع سريع جداً، ولأن كل ما كنتُ أبتلعه (فى نصف الساعة الأولى على الأقل) كان أزرق اللون، مما سبب لى القلق، بالرغم من أنه كان يحرض، بطريقة ما، ميولى التصويرية.

كنت أتوسل، بعينى، مساعدة بينتو الذى كان يبتلع مثل هيليوجابالو(*) فى حمامات تيرموبيلس. وكان التعيس يضحك منى بصورة سافرة. وقد قال لى فى ما بعد إنه لن ينسى مدى الحياة مشهد ذينك النسرين وهما يتناوبان بأقصى سرعة تغذية فرخهما الذى هو أنا نفسى.

توالى إحضار الأطباق، يحملها فى موكب مهيب عدد من الخدم بسترات بيضاء وبنطلونات سوداء، كما فى مطعم. وكنت فى بعض اللحظات أتمكن من التحرر من مُرضِعَىَّ، رافضاً إحدى اللقم بإطباق فمى بشدة وهز رأسى، مثل طفل مراوغ، وأمد يدى إلى

(*) هيليو جابالو: إمبراطور رومانى (٢٠٤ ـ ٢٢٢) اشتهر بجنونه وقسوته. مات مقتولاً.

المائدة لتبديل الطعم بإلقاء حفنة من الرز أو قطعة سمك فى فمى، لكن العنيدين يخضعاننى على الفور لقصف بمزيد من الصنف الذى اخترته. أكلنا لحم خراف، ولفافات رز مع لحم وتوابل فى ورق الكرمة، و«كبب» هى أشبه بفطائر مكورة مملوءة باللحم والبصل واللوز والصنوبر ولا أدرى أى أشياء أخرى. إلى أن أزفت لحظة الشؤم.

أحد أصحاب البيت، وهو شخص بدين وشحمى، توجه إلى بينتو ببعض الكلام. وانتشرت حماسة بين المدعوين، وهم حوالى ثمانية أشخاص كما بدا لى. واتجهت أنظار الجميع نحوى. ومن الجانب الآخر من المنضدة، قال لى بينتو: «يسألون إذا ما كان يروقك أكل الجراد». نظرت إليه باستغراب: «جراد؟ ولم لا؟ نادراً ما تناولت هذا الصنف من الطعام، لكنه يلقى رواجاً فى بلادى». ترجم هو كلماتى، وكانت هناك تعليقات تأييد قوية، وضحك، ووصل الأمر ببعضهم إلى التصفيق بيديه.

قال لى بينتو: «ليس هذا طبق مآدب، بل هى وجبة يقدرها أهالى الصحراء القساة. إنها تذكرهم بأصولهم، ببداياتهم القاسية» ظلت بعض أسئلتى معلقة فى الفضاء، لأن الخدم كانوا يدخلون حاملين على صوانٍ خشبية نوعاً من الأوانى المعدنية المسطحة، تفرقع فيها عجة أو أومليت إذا كنت تفضل هذه التسمية. فكرتُ فى أنها طريقة غريبة فى طهو الجراد، لكننى تصورت أن ذلك لا يعنى شيئاً سيئاً.

سكبوا إحدى تلك العجة فى طبق فضى كبير، أمامى وأمام من يمكن تسميتهما «مساعدىّ» قطعوها بأيديهم إلى أربع قطع، كانت محمصة جيداً، مقرمشة، ولدى رؤيتها عن قرب اكتشفت أنها ليست مكونة من جراد البحر.

وبينتو الذى كان يراقب ردود أفعالى من الجانب الآخر، قال لى بلطف مقرف: «آمل أن تروقك هذه الجنادب المعدة على الطريقة الصحراوية» لعنتُ أمه فى ذهنى، وبنوع من الافتتان المقزز، انتزعت لقمة كبيرة من قطعة قدمها إلى مساعدى الذى إلى يمينى. هيئة الجرادات الهشة المحمصة، أو المحروقة من الخارج بكلمة أدق، بدت أشبه بصورة شعاعية أو بواحدة من أحافير الزواحف المجنحة التى عُثر عليها فى كهوف أوروبية. كان ذلك الأومليت من الداخل أقرب إلى الخضرة ووافر العصارة. توصلت إلى إيهام نفسى بإمكانية أن يكون المذاق مختلفاً عما هو مُتخيل، أو أن تطغى عليه كثافة التوابل. ولكن لا. كان له المذاق نفسه الذى يمكن لأحدنا أن ينسبه نظرياً إلى هذه الحشرات. مذاق شىء غير مناسب، ولا بأى حال، للطعام البشرى. وبفم ممتلئ، وشعور بالقرف والرعب، نظرت فيما حولى، ولم أجد سوى نظرات تبدى الرضا. كان بينتو يستمتع على هواه، وكنتُ مستعداً لقتله. شعرتُ أننى غير قادر على ابتلاع ذلك الشىء، ومن المستحيل على أيضاً إعادته، مع أنه التصرف الأكثر عقلانية. وفكرت: «يا للبراز! أنا

التشيلى. والمابوتشى فوق ذلك!» وفكرت فى كاوبوليكان وجالفارينو وابتلعت الجرادات.

شعرت بندم فورى. وكان خادمى فى الجانب الآخر يدنى من فمى قطعة كبيرة من العجة نفسها. أزحت عرضه بحزم وظللت ساهماً، أشعر بغرابة كبيرة فى داخلى، كما لو أن أحصنة الشيطان تلك قد بدأت تتقافز، ببطء فى البداية، ثم بتسارع متزايد أكثر فأكثر.

لحسن الحظ أن أصحاب البيت لم يُلحوا. وكانت هناك بعد ذلك فواكه، وحلويات مغموسة بالقطر وطقس طويل جداً فى إعداد القهوة وتذوقها. وقد شهدت ذلك كله فى حالة من الوجوم والغيبوبة، دون أن آكل أو أشرب أى شىء سوى كأس ماء مثلج كبير أحدث فىّ نوعاً من الراحة الاستثنائية بينما أنا أتناوله، ولكنه بعد ذلك، وقد استقر فى المعدة، صار له مفعول قنبلة.

بدأت أشعر بحرقة وألم متزايدين، أخفيتهما بالصبر «أحد خصائص عرقى» كما يقول بعض الكُتَّاب الوطنيين.

وأخيراً، بلغ كل شىء منتهاه. وكانت هناك عبارات مطولة عن المحبة الدائمة، وقبلات وتحيات. وقد ورطنى بينتو بالتزام (بدا لى أنه السبب وراء الوليمة) رسم صورة بالحجم الطبيعى لسموم، أشهر أحصنة الأسرة، الفائز فى مسابقة ديربى فى إنجلترا سنة ١٩٥٧ وبعد ذلك انصرفنا عائدين.

كادت إيفا أن تموت حين رأت وصولى، محتضراً، مع بقع بنفسجية فى وجهى وفى جسدى المترنح. كان ردّ فعلها الأول غضباً، لظنها أننى مخمور، لكنها ارتعبت بعد ذلك. أمضيت ثمانى وأربعين ساعة من التقيؤ والإخراج من الجانب الآخر، يصاحب ذلك صداع وحمى شديدين. تمكنت إيفا من جعل طبيب السفارة التشيكية يأتى لزيارتى، وقد قدم لى جرعات هائلة من السلفات وقدَّر، دون أن يكون متأكداً، أنها قد تكون الكوليرا. وفى الليلة الثانية كنت على وشك أن أسلم روحى إلى «بييّان». وكان خلاصى فى عشبة شديدة المرارة جاءنى بها بينتو، فى محاولة متأخرة منه للندم، هى نوع من الطحالب المائلة إلى الحمرة أعدت منها إيفا، حسب تعليماته، عدة ليترات من نقيع أو مغلى يتوجب على شربه فى كل وقت. بعد يومين كاملين أحسست أخيراً، وأنا بوجه له لون النيل، وساقين مرتعشتين خائرتين، أن جسدى أخذ يتخلص من السموم.

وعندما عدت إلى الحياة بهذا القدر أو ذاك، سلمتنى إيفا كتابين صغيرين كان قد أحضرهما بينتو فى أشد مراحل الحمى قسوة، عندما لم يكن بمقدورى التعرف على إيفا نفسها. وقد نظرت إلى الكتابين فى البدء دون اهتمام كبير. ولكننى فى اليوم ما بعد التالى، عندما بدأت بالتنفس حقاً، بعد أن تناولت أول وجبة أرز مسلوق، اكتشفتُ بذهول غير محدود، أنه كتاب من مجلدين، مطبوع فى سانتياجو

دى تشيلى عام ١٩٤٧ بعنوان «بريد بغداد» لأدولفو ريفادينيرا. وفى المجلد الثانى وجدت فقرة، كلّف بينتو نفسه بوضع خط تحت سطورها بقلم أسود، تشير بالتحديد إلى الجراد اللعين. وأنا أستنسخ الفقرة لك، أيها البروفيسور العزيز، لقيمتها التوضيحية:

«من أجل تكوين فكرة عن نهم وشراهة هذه الحشرات التى شهدتُ غزوها عدة مرات فى سورية، خلال ثلاثة أيام متتالية، من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية بعد الظهر، ظننت خلالها أننى أشهد احتجاباً عظيماً للنور. يكفى القول إن كثافة أسرابها المتراصة بلغت حد إظلام الشمس بكل معنى الكلمة لبضع ثوان. والاعتقاد الشائع هو أن هذه الحشرات تأتى من عمق جزيرة العرب، بعد شتاءات دافئة، أو بعبارة أخرى، عندما لا يكون البرد شديداً بما يكفى لإتلاف بيوضها».

غير أن الطبيعة التى توازن عادة فى الميزان نفسه بين منافعها ومضارها، تخفف بين حين وآخر من أضرار هذه الجائحة، فتحقق القضاء عليها بطريقتين مختلفتين: فى بعض الأحيان تحملها الرياح الشرقية أو الجنوبية الشرقية وتدفعها بقوة نحو البحر حيث تغرق، وفى أحيان أخرى تلحق بها سحابة كثيفة من العصافير التى تسمى بالعربية سمرمر، تخفق بأجنحتها، وتندفع فوق الجراد، فتطرحه على الأرض حيث لا يعود بمقدور الحشرات النهوض، وتأكلها هناك. وتبدو مذهلة حقاً السرعة التى تهضم بها تلك

الطيور طعامها وتفرزه. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من هذه الممارسة النهمة، يحتاج طائر السمرمر إلى الشرب، فإذا وجد ماء، فإنه يسترد طاقته خلال لحظات ويعود للهجوم وقتل ملايين من تلك الحشرات؛ أما إذا لم يجد الماء قريباً، فإنه يموت دون مفر»

وأنا، دون أن أكون طائر سمرمر، كنت على وشك الموت. وفى فترة نقاهتى، أربعة أيام أخرى، لم يكن لى من مرافق فى ساعات الصباح سوى الكتاب وصاحبة البيت ذات الشارب، السيدة ساندرا. كانت تحدثنى مطولاً بالعربية، وأظن أنها كانت تخبرنى بقدر كبير من أحداث الجيران، دون أن أرد عليها بشىء أكثر ملاءمة من كلمة «شكراً» وبإيماءة احترام كلما قدمت لى إبريق الشراب المر، وهو شرابى الوحيد، أو طبق الأرز المسلوق، طعامى الوحيد. وقد كانت قراءة «بريد بغداد»مبهجة لى، لأنها أشبه بتعليق، من زمن آخر، على كثير من تجاربى هنا. على سبيل المثال:

«حول طبق من الصفيح، قطرة حوالى بارا(*) مملوء بأرز أبيض وشرائح من لحم الخروف، ومزين بأرغفة من خبز البلاد، اجتمعنا خمسة عشر شخصاً نجلس القرفصاء. وبعد أن شمَّر كل منا كميه، وقال باسم الله، سكب عبدان يحملان أبريقاً وطستاً الماء على أيدينا، وتناول محسن ـ زعيم القبيلة ـ حفنة أرز من الجرن الضخم، وغمسها فى الزيد الذى يشكل

(*) وحدة لقياس الطول تساوي ٨٢٥ سم.

الذروة، وكان مذاباً فى حفرة صغيرة، وراح يعجنها، معرياً فى الوقت نفسه عن مشاعر سعادته بالتآخى مع بارزين مثل «الطاطار» ومثلى. سال السمن على طول ذراعه كثيف الشعر، فكان يلحسه بين حين وآخر من المرفق حتى الكف. وهكذا بدا أن كرة الأرز قد تُبِّلت تماماً، فوضعها فى فمى، كدليل على الأخوة التى يجب أن تربط بيننا منذ الآن. ثم فعل الشىء نفسه مع «الطاطار؟» ورددنا بدورنا على لطفه بالطريقة نفسها. وبانتهاء طقس المجاملة هذا المسمى «أُخُوَّة الخبز والملح»، وهو يمثل فى نظرهم عمل تبجيل ورابطة مقدسة تربطهم بمن يمارسه معهم. انقضضنا جميعنا بالقبضات على كومة الأرز الضخمة، محدثين فى قاعدتها مجموعة من المغاور، إلى أن تزعزع فجأة أساس البناء المتماسك.

ولأن يدىّ الضعيفتين كانتا تحترقان بسخونة الطبق، فقد اعتادوا هم على تقديم شرائح من اللحم لى ينتزعونها بأنفسهم؛ وكنت أرغب فى تجنيبهم ذلك العمل، لكننى كلما ألححت عليهم ألا يزعجوا أنفسهم، كانوا يسرعون أكثر فى وضعها أمام فمى.

عندما استنفدت هذه الملاطفات شهيتى بالكامل، التفتُ نحو الشيخ قائلاً له: شبعت. وحذا الآخرون حذوى، ونهضنا ونحن نحمد الله، وتركنا المكان لمن كانوا وراءنا ينتظرون متلهفين. غسلنا على التوالى أفواهنا وأيدينا بالصابون، ولكن بمرافقة تف وتفل وتجشؤات استثنائية يمكن لها أن تسبب حرجاً وضيقاً

عظيمين حتى لأولئك الذين يوصفون بانعدام اللباقة. هذا الأمر الذى قد يبدو فظاظة للقارئ، يمر هنا كشىء عادى وشائع. ولا بد من الإشارة إلى أن استخدام الصابون وتناول مأكولات فاترة أو باردة، يساهم بقوة، على ما أظن، فى الحفاظ على أسنان العرب سليمة، ذلك أن لهم جميعهم أسناناً بديعة.

وفى أثناء ذلك، كانت جفنة الأرز الهائلة لا تزال فريسة ورديات آكلين جديدة ومنهمكة، إلى أن جاء دور زمرة الصبيان الذين انتهوا إلى انتزاع الأجزاء الأخيرة القاسية من الخروف الأكثر من ممزق، وتنازُع حبات الأرز المتفرقة فى الطبق الذى ما إن وضع أولئك الولدان أيديهم فيه حتى كان يلمع بنظافة صافية.

بينما كنت أقرأ هذا الكلام، تذكرتُ عدة مرات المأدبة التى أخذنى إليها بينتو، وكذلك حفل الاستقبال مع الزعيم عبد الكريم قاسم. ولمعلوماتك أقول لك إن «الطاطار» هى التسمية التى كانت تُطلق فى القرن الماضى، فى هذه البلاد، على البريد، على الرجل المسئول عن توزيع البريد على حصان، وربما بمرافقة مسلحة. وهو ما كان يسمى فى الفترة نفسها، فى الولايات المتحدة («pony express» انظر مارك توين).

لم أعرف ما هو تعليقك، بسبب شح البريد، حول رسم إيفا التخطيطى بالباستيل. أظن أنه ليس سيئاً بالكامل. إننى أعمل بصورة مكثفة فى برجى. لقد أنجزتُ ما لا يقل عن سبعة عشر رسماً أولياً، ومخططاً للوحة كاملة، مع تحديد الكتل والألوان.

ستكون لوحة فخمة، ارتفاعها أكبر من عرضها، بطول متر وثمانين سنتيمتراً وعرض متر واحد تقريباً. زيتية. أظن أنها ستفاجئك عندما تراها ناجزة. لكن أموراً كثيرة مازالت دون حلّ.

فى ظل عدم اليقين، وعلى سبيل تصفية الذهن، أواصل العمل بمجموعتى عن التمور التى حدثتك عنها، ألم أفعل؟ إنها بمجملها إحدى وأربعون لوحة صغيرة، منمنمات تقريباً، وجميعها لها الحجم نفسه. وفى كل لوحة منها علبة تمر مفتوحة ومائلة، مثلما تُعرض هنا فى متاجر الثمار. الاختلافات فى الرسم والعناصر التكميلية ضئيلة إلى أدنى الحدود. فى إحداها يظهر هرٌّ جالس. وفى أخرى شبحٌ متهرب لفأر صغير... إلخ. الطرافة فى تدرج اللون. الفكرة هى أنه إذا ما وضعت اللوحات مثنى مثنى فإن الفارق بينها لا يكاد يُلحظ. أما إذا تجاورت اللوحة الأولى مع الحادية والربعين، فإن القفزة ستكون من اللون الأمغر (الأمغر دائماً) إلى لون رمادى أقرب إلى الأسود الزيتى.

إيفا، بحسها العملى التشيكى، تهز رأسها. لقد قالت لى ذات يوم: «ولكن هذه المجموعة ليس لها معنى إلا إذا نُظر إليها كمجموعة» وأجبتها: «صحيح» فقالت لى: «ولكن، إذا لم يكن هناك متحف أو صالة عرض أو جامع لوحات مهتم باقتنائها كاملة، أو حتى بعرض كل هذه التمور، فما الذى ستفعله؟» أجبتها: «يمكن بيعها مفرقة أو كل اثنتين معاً» .«نظرت إلىّ غاضبة وقالت: «التحدث معك غير ممكن» أرجوك

أيها البروفيسور، هل ترى أن هذا ردّ فعل عقلانى؟

وعلى هامش مثل هذه الاختلافات، لابد لى من القول إن ابنة أخيك باهرة الجمال، وقد أثبتت كذلك أنها بروفيسورة من الطراز الأول، استطاعت أن تتعلم العربية خلال شهور قليلة، مما سبب هنا ذهولاً غير محدود. الشىء الوحيد السيئ بالنسبة إليها هو أن جميع الأبواب، فى هذا البلد الإسلامى المبارك، مغلقة أمام النساء بعد الساعة السادسة مساءً. إمكانات الحياة الاجتماعية تقتصر على الجالية التشيكية الصغيرة المقيمة، وثلاثة أو أربعة لاتينيين، وبعض أسر المراسلين السوفييت أو البولونيين، وتوقف عن العد. وفى فترات متباعدة، تأتى فرقة موسيقية من أحد البلدان الاشتراكية. إنهم يعلنون الآن عن مجىء سيرك موسكو. أما السينما فلا مجال للتفكير فى الذهاب إليها، اللهم إلا فى السفارة.

حسن، لن أقول لك المزيد. وآمل أن تصلك هذه الرسالة سريعاً عن طريق الحقيبة الدبلوماسية. لك عناق المنبعث حياً.

هويركيو.

ملاحظات على الرسالة السادسة

رسالة وصلت إلى يدى فى لحظة علاقات صعبة مع هويركيو لأسباب واضحة. إنها مكتوبة بالتأكيد فى منتصف فبراير١٩٦١ وحامل رسالة الآن مهندس تشيكى عائد من بغداد، وهو من مدينة ليبيرك، ومنها أرسل إلىّ صندوقاً صغيراً، فيه رسالة مع علبة جميلة مزينة، فى داخلها دزينة حبات تمر كبيرة وحلوة جداً، مصفوفة بدقة، ولا تزال متصلة بغصن معلقة به (استُهلكت فوراً، خاصة من قبل روزينا) ورسالة من إيفا إلى أمها، سارعتُ إلى وضع طوابع وإرسالها إليها فى براغ.

إنه شتاؤنا، وفرة ثلوج استثنائى فى شمالى بوهيميا، أيام رمادية، معتمة، غيوم ثقيل منخفضة، شوارع ثلج وسخ وأسود، السير خطر، ولكن حياة بالنسبة لأنا مشرقة. رسالة تشير إلى استغراق رسام تدريجى وغير سهل فى حياة بغدادية، ومرة أخرى تعكس ملامح من طبع رسام وعناده الفنى. عن زيارة إلى مصنع سجائر نتجت لوحته عظيمة لنساء مضاءات بخطوط مائلة، قال عنها السيد الناقد فى جريدتكم إنه يرى شكلانية، وتجريدية، و«مؤثرات مدرسة باريس» وفى وقت نفسه «مظهر قديم من تعبيرية ألمانية» وأتجرأ على القول

باحترام إن هناك أشياء أخرى غير متناسبة فى المقال. وهويركيو، بمزاجه الساخر الذى لا سبيل إلى إصلاحه، جعل عنوان لوحة «مدخناً أنتظر» وهو عنوان أغنية شعبية كما علمت. وهذا يزيد حدة السيد الناقد الذى لا يفهم أن خفة عامية فى بعض عناوين تتناقض مع صرامة عمل تصويرى، هى وسيلة سيكولوجيا دفاع ذاتى متستر بقشرة سخرية.

تضحك روزينا حتى دموع عندما تتعرف، من ترجمة أنا، على صورة السيد بينتو ووليمة تقاليد صحراوية ترويها رسالة رسام. وبعد ذلك مفكرة، وعيناها دون نظارة سميكة وزرقة غموض خفيف تكتسبان، تسألنى: «إنه فنان كبير، صحيح؟» أقول لها نعم هذا ما أعتقد، إنه كذلك. ودون أن تنظر إلىّ تدمدم: «رسالة خاصة جداً، مثل أديب. هل هو كاتب أيضاً؟» أقول لها لا، لكن رسائله تُظهر هذا الطبع «إنه شخص مرموق جداً» وأنظر إليها عن قرب لأرى ردّ فعلها وأشعر فى وقت نفسه بوخزة ألم عميق (ليس من الجيد دون شك أن أذكر مثل هذه تفاصيل حميمة. ولكن لا بأس). «هل تشتاقين إليه؟».

ولكنها هادئة جداً رأسها تهز وتقول: «لا تخطئ يا بيبيك. يسعدنى التفكير بأنى تعرفت على شخص مثله، لكننى سعيدة أكثر بأنى تعرفتُ عليك أنت؟» وتقبّلنى باندفاع طفلة مفاجئ، فأحمر خجلاً.

لا شيء فيها يشير إلى تحولها الجسدى نحو التكاثر، ولكن لديها ميل إلى الراحة، والنوم طويل، وحاجة إلى دلال، ومظاهر أخرى بدنية المفعول. طمأنينة كبيرة، مباركة كلينا، تشع بعد مشاحنة فى براغ، مواجهة

مع زوج روزينا مثل أورلاند مجنون، طمأنينة نحن ـ هدوء أنا أيضاً، تفاجئ أنا بالذات، «أجل يا سيدى، أنا وروزينا نعيش معاً، نريد الزواج، وهى ستنجب ابنى» ـ رد فعله تهريجى: «لا تفكروا أنكم تحصلون على هذا بيت وأثاث. مطلقاً!» ومفاجأته كبرى عندما تقول روزينا» «فقط فرشاة أسنانى، وبعض ملابسى، وخمس كتب، هى ما يهمنى. يمكنك الاحتفاظ ببيت وأثاث، وأن تأكله إذا رغبت. وأنا مع جوزيف سأذهب. وداعاً».

أتساءل ماذا سيقول رسام عندما يعرف هذا وضع يجهله ولا يستطيع تصوره. عندما يتجاوز انطباع أول سيضحك بكل تأكيد. أو ربما لا.

قراءة المخطوطة

في حوالى العاشر من يوليو طلبتُ إجازة مرضية، وذهبت باكراً إلى البيت، وبدأت قراءة المخطوطة بجد. (ومن أجل إبعاد الشكوك أقول إننى كنت مريضاً بالفعل، نتيجة المناوبات وقلة النوم والتوتر الدائم؛ وكانت لدى بضعة أعشار الدرجة من الحرارة، وآلام فى الحنجرة، وأشعر برأسى مثل حبة بطاطا.

استلقيت فى الفراش، تدثرت جيداً، وسط الرائحة المنزلية لمدفأة البرافين، مع نصف لتر من الليمونادة مع الزيزفون على منضدة السرير الصغيرة ـ مع قليل من خمر البيسكو ـ، قرأت فى الساعات الأربع والعشرين التالية، مع بعض الانقطاعات المتفرقة، قصة هويركيو، من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. وكلما تقدمت فى القراءة، كانت حرارتى ترتفع، ولكن ذلك لم يمنعنى من مواصلة القراءة. لا بد أنها أفضل حال لدخول مثل هذه المياه.

وبما أن أموراً مجهولة راحت تطوقنى، فقد بدأت أدون ملاحظات كى أجلو الغموض. وأول مجهول بالنسبة إلىّ هو شخصية هذا الرسام المابوتشى، الذى يأخذ بالبروز كفنان استثنائى، أو بارز على الأقل، والذى لا يُعرف عنه إلا القليل فى تشيلى. أيعرف المدّعوون شيئاً عنه؟ وفكرت فى استشارة رسامين ونقاد رسم. ودونت بعض الأسماء.

وفكرت فجأة فى أن فكرة كتابة تحقيق صحفى عن رسام مجهول، أعماله غير معروفة تقريباً، واختفت آثاره منذ سنوات فى بغداد، سيكون بلاهة غير معقولة وسط «عملية التحول» أو ما يسميه البعض الثورة التشيلية. هكذا سيبدو الأمر على الأقل لبعض الرفاق. ولكن، فى نهاية المطاف، لم لا؟ فإذا كانت الحيثيات دقيقة، فإنه فنان ملتزم بالحقيقة، ومتطابق مع القضايا الشعبية، ولكنه كان إضافة إلى ذلك، وقبل كل شىء (ويبدو أنه لا يزال) فناناً حقيقياً، قادراً على أن يعكس فى أعماله تعقيد هواجسه المفاجئ دون الوقوع فى التبسيط الشعارتى. تان تان. هـأنذا قد بدأت أكتب مثل ذلك البروفيسور التشيكى بإسبانيته الملتوية والدبقة.

وكيف لى أن أعرف كل ذلك وأنا لم أر قط لوحة واحدة من رسمه؟ وأى براز هم أولئك الأكراد، وكيف يُأكلون، أين يعيشون، ماذا يتكلمون، وما أصلهم؟

عدت إلى دوامة العمل فى اليوم بعد التالى. كانت الإشاعات تعج وأمور كثيرة تحدث. فى يوم٢٦

يوليو، قامت جماعة يمينية باغتيال المقدم أرتورو أرايا، المستشار البحرى للرئيس الليندى. لم تعد هناك هدنة. كنا نتقدم باتجاه الانقلاب العسكرى دون توقف وبأقصى سرعة. الشقاق كان معلناً، ولم يكن بإمكان أحد تغيير نص السيناريو.

الرسالة السابعة

قلق على روزانا/ رسم حصان/ زكية، طلال، الأكراد/ دراسة رسم شَعرىّ.

عزيزى البروفيسور: لقد بدأت أشعر أن هذه المراسلات هى من جانب واحد. فمنذ شهور لم أتلق منك شيئاً، منذ أن مر بينتو من هناك وأرسل إليك بالبريد رسالتى أو طلبى المساعدة. وبعد ذلك لم أعد أعرف أى شىء. هل رأيتَ روزينا؟ هل سلمتها المبلغ الذى طلبته منك؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ وباختصار، لن أقول إن الانتظار يمنعنى من النوم، لكننى أرغب فى معرفة شىء مما جرى.

من المحتمل أن أسافر فى وقت قريب إلى فيينا، من أجل ترتيب تفاصيل معرض هناك، ولألوى عنق تاجرى كى يقدم لى حساباً بما باعه (تركت له خمس لوحات، إضافة إلى بعض أعمال الجرافيك) ويدفع لى. وأفكر فى أن أراكم لوحاتى هناك من أجل معرض فى تشيلى. وربما سأتمكن أثناء وجودى فى

فيينا من القفز إلى براغ. سأخبرك كيف سأمول رحلتى إلى النمسا.

أيمكن لك أن تتخيل كيف هو ميدان سباق الخيل فى بغداد فى الساعة السادسة صباحاً؟ وأنا أيضاً لا أستطيع ذلك. وأحد أقل الأمور التى كان يمكن لى أن أتخيلها هو أن يكون شبيهاً، وشبيهاً جداً بميدان الخيل فى تيموكو، باستثناء أنه فى ميدان تيموكو (ولست أدرى إذا ما كان له وجود) لم تُرَ قط ناقة لها عينان فاترتان ورموش مجعدة تقضم العشب، كما أنه لا يُسمع هناك صوت المؤذن يدعو من فوق مئذنة الجامع القريب إلى صلاة الفجر. لقد صرت بفضل كتاب السيد التشيلى ريفادينيرا واسع الاطلاع على «شرائع المسلمين» وعلى «معتقداتهم وطوائفهم» الأساسية. أول صلوات اليوم، عليك أن تعرف يا بروفيسور، موعدها يبدأ ««عندما يكسر الفجر الشمس البازغة» وينتهى مع «بياض النور الذى يهزم الظلمة وتختفى النجوم قبل أن تبزغ هدب الشمس» والصلاة يجب أن تقام فى الفترة بين هذين الزمنين. أقول لك هذا لأنك قد تقرر فى لحظة غم اعتناق الديانة الإسلامية.

ذلك الكلام عن «بياض النور»و«هدب الشمس» دقيق بالضبط، فضلاً عن أنه شاعرى، وهكذا رأيت الفجر فى ميدان خيل بغداد الذى ذهبت إليه لأتعرف بنفسى إلى سَموم، يرافقنى بينتو واثنان من آل حسن،

هما الشابان الشقيقان اللذان أطعمانى كفرخ فى تلك الوليمة طيبة الذكر.

من جهة المذاود جاءنا صهيل تحية كأنه نفير بوق. أحضر خادمان البطل، وأكاد أقول إنهما عبدان، فقد كان توقيرهما وخضوعهما عظيمين أمام ملك ميادين السباق. وصل الحصان شامخاً بنوع من الخبب الهجين المتناوب مع عدو دون تقدم، لا أدرى إذا ما كنت تفهمنى، فالتظاهر بالعدو دون التحرك من المكان هو مثل الملاكمين الذين يتبادلون اللكمات مع شبح. إنه أبلق محمص اللون، شديد القتامة، أصغر حجماً من حصان إنكليزى أصيل، ولكن برأس دقيق الكبرياء والنبل، وقائمتين أماميتين عصبيتين، وجسد إسطوانى ممتلئ، دون أى عظم ناتئ، وجلد لا توازيه نعومة الزنبق أو الحلزونات. إنه نموذج كامل للحصان العربى، هذا ما قاله لى بينتو مخرجاً صوته أول مرة من داخل لثام الجلابية. جاءوا به بالرسن، ولكن دون سرج، تغطى ظهره عباءة بحمرة الدم تبرز هيئته وزهوه الأرستقراطى. عندما صار أمامنا، توقف فجأة، رفع رأسه وأطلق صهيلاً بوقياً جديداً. ورد عليه صوت المؤذن، الذى سبب لنا الصمم بفعل قوة مكبر صوت من ماركة تيسلا المعتمدة من جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية.

أنا أرى أن الحصان ينتمى إلى جنس أسمى من الكائنات البشرية. ربما ورثتُ هذا عن أسلافى الذين اعتقدوا أن الفارس والحصان يشكلان معاً كائناً

واحداً خارقاً. لكنهم سرعان ما تبينوا أن الفارس إنسان، وأنه شديد البهيمية، بينما حافظت البهيمة بالمقارنة معه على حُسن سمعتها وزادت منها، لاسيما مذ تعلمنا امتطاءها فى الحرب والسلام، وأكل لحومها أيضاً. وهناك، من جهة أخرى، أبحاث جديدة تشير إلى أن الخيول وصلت إلى أميركا من آسيا قبل قرون من وصول الإسبان إليها. ولابد أن الخيول راحت تنزل جنوباً حتى صارت معروفة ومستخدمة لدى بعض شعوب سهوب البامبا الأرجنتينية. أما مملكة تشيلى، فلم تصلها الخيول إلا مع الفاتح الإسبانى الماجرو كما هو معروف. وفى طفولتى البائسة إنما المذهبة، والتى أحتفظ بها حية فى ذاكرتى على الدوام، إلى حدٍّ أننى أفاجئ نفسى فى أحيان كثيرة وأنا أنظر إلى بعض الأشياء أو المواقف كما الطفل ـ آه ـ الذى لم أعده. وفى طفولتى تلك تعلمت امتطاء الخيول. وهذا شىء لا يُنسى.

رويتُ لك ما تقدم كى تدرك إلى أى حد أثر فىَّ حضور سموم. أضف إلى ذلك أن له مظهر، وحجم، وحتى طباع الحصان التشيلى التقليدى، أو على الأقل ذاك الذى يصفه إخباريو مرابع الخيول فى الوادى الأوسط.

لم أعر اهتماماً لكلمات المالكين المحذرة، ودنوت منه. كانوا قد رفعوا عنه العباءة. تناولت الأعنة من يد السائس بتسلط طبيعى لا أدرى من أين أتانى، وربت براحتى على صفحة عنق سَموم، وقلت بضع كلمات

فى مسمعه (بلغة المابوتشى طبعاً). فهز أذنيه فى إشارة إلى أنه فهم. عندئذ، بقفزة واحدة اعتليتُ صهوته. لم أفتقد السرج والركابين؛ لأنى لم أستخدمها قط للركوب. أطلق بينتو والأخوان حسن صرخات، لا أدرى إذا ما كانت إعجاباً، أم ذعراً، أم انزعاجاً؛ لكننى لم أصغ إليها. أدرت الحصان باتجاه مضمار عشب تتخلله بعض الفجوات وتخالطه الرمال، وأطلقته بأقصى سرعة منعطفاً مع المنحنى حيث مازال يخيم بعض بياض الضباب. سمعتُ صرخة، لكننى سرعان ما خلّفتها ورائى. انطلق سَموم بأقصى سرعة، يكاد لا يحرك رأسه، ودون أى تردد، كأنه الحرير.

كنت أنحنى فوق رقبته بصورة قليلة الأناقة. لكنى لا أتقن الامتطاء بطريقة أخرى، فعندما كنت طفلاً لم تكن لدينا أعنة، وإنما فى أحسن الحالات حبل ينتهى بخصلة شعر مثبتة بأنف الجواد، أضف إلى ذلك أنه عند امتطاء الحصان عارياً لابد من ضغط الساقين بقوة ولف القدمين نحو الداخل، كى يثبت أحدنا نفسه بصورة أفضل فى الفجوة التى تلى قائمتى الحصان الأماميتين، وعندئذ لا يفكر المرء بأناقة الأسلوب، ولا بإلصاق المرفقين بالجسم أو غيرها من ترهات أراجيح الخيول الخشبية. قطعنا على هذه الحال حوالى ألف متر، حسب تقديرى، وأردت الرجوع. وتبدى هنا أول اختلاف مع مطيتى. فقد هز سَموم رأسه عندما أردت كبحه واندفع بسرعة أكبر. كلمته، لكنه لم يشأ

الإصغاء إلىّ. فلم يعد أمامى سوى التصرف على الطريقة العسكرية. ثبّتُ العنان جيداً بيدى، وجعلته قصيراً جداً، ثم دفعت نفسى فجأة إلى الوراء، وبكل ما لدى من قوة. أحس بالشد وكبح عدوه، لكنه لم يشأ التوقف. يا للحمار الكبير! ثبّتُ العنان من جديد، بلفتين حول معصمى، ودفعتُ نفسى إلى الوراء بكل ثقلى، إلى أن كدت الامس كفليه بظهرى. فتوقف الآن فجأة فى مكانه، ورفع للحظة قائمتيه الأماميتين. نخر غاضباً ووجه إلىّ نظرة ضغينة، مفاجأة، حب ذات جريحة. دعوته للرجوع وأن نمضى بعدو قصير وبعنان مشدود. وكان عليه أن ينصاع. وهكذا رجعنا إلى نقطة الانطلاق، حيث رأيت لدى الوصول خمسة أفواه وخمسة أزواج عيون مفتوحة على اتساعها. قفزت إلى الأرض وكأن شيئاً لم يحدث، ووجهت إلى سَموم بضع تربيتات محبة، وسلَّمت العنان للعبد.

ولكى أخبرك بالصعود المفاجئ لشهرتى، ليس فقط فى دائرة آل حسن الضيقة، وبينتو والأصدقاء، وإنما كذلك فى دوائر أبعد، إلى حدّ أن إيفا نفسها أخضعتنى لاستجواب دقيق فى أحد الأيام، لأن إحدى طالباتها أخبرتها، بإعجاب ومبالغات واضحة، أننى نوع من القوزاق، الكاوبوى، السنتاور، ولست أدرى أى أشياء أخرى.

كانت لى لقاءات وجلسات أخرى مع سَموم، لأن مسألة الصورة بالحجم الطبيعى كانت جدية. إنه تحدٍ كامل بالنسبة إلىّ، إذ لم تتح لى الفرصة من قبل

لأكون رساماً «حيوانياً» (وكنت أرى على الدوام سخف هذه الطريقة فى تصنيف الرسامين حسب الأجناس؛ ولكنهم موجودون، موجودون). أضف إلى ذلك أن المكافأة المالية الموعودة معتبرة. لا تسألنى كم هى. فقد تركت هذا التفصيل لعناية بينتو، مقتنعاً أنه لن يلعب معى لعبة قذرة.

اللقاءات التالية كانت أقل حركة من الأولى. أنجزتُ الكثير من الرسوم التخطيطية للموديل، لرأسه، لقوائمه، لجسمه، ومن كل الزوايا، بما فى ذلك دراسة خاصة لشعر العرف والذيل، وكلاهما طويل وبلون لؤلؤى أفتح بكثير من لون الجسد. راقبته وهو يعدو، ويخب، ويأكل، ويتقلب، ويمشى. ووصلت إلى حد شراء ـ من البازار الذى حدثتك عنه فى رسالة سابقة ـ صورة لوحةٍ لصيادين على خيول ثعالب إنجليز، أو ربما يتوجب القول لصيادين إنجليز على خيول ثعالب، أو إنجليز على خيول صيد الثعالب، وهى صورة أتاحت لى مقارنة الخصائص العظمية والمورفولوجية للحصان الإنجليزى والعربى. الفرق شاسع.

فى صباح أحد الأيام، قبيل الظهر، بينما أنا عائد من ميدان الخيل، التقيت بزكية. كانت برفقة شخص أسود وضئيل، يغطى رأسه بقبعة مدورة، ويضع نظارة مدورة العدستين كذلك، وله لحية سوداء تأكل وجهه، يحمل كتباً تحت إبطه ويرتدى سترة طويلة سابغة. إنه تشخيص رمزى للعالم الإسلامى

فى طور التكوين (لأنه شاب دون شك)، كأن نقول التلميذ المتقدم الأول فى مدرسة دينية إسلامية فى البصرة. توقفت زكية حين رأتنى وعرفتنى على مرافقها بوقار مبالغ فيه قائلة: «هذا طلال» شددت على يده وقلت «enchanté» وأنا أنوى مواصلة طريقى. ولكنها اقترحت أن نذهب إلى مقهى لتبادل الحديث قليلاً.

كان حديثاً طويلاً ومتعدد الأوجه، وتعليمياً جداً بالنسبة إلىّ، وتأكيداً جديداً على سذاجتى، كى لا أقول جهلى بالعالم الذى أعيش فيه. هذا العالم الذى أنا فيه مثل أمىّ جاهل، بل أسوأ، مثل أصم أبكم ثقافى، فكل معلوماتى عن السياسة المحلية الوعرة تأتينى من تلميحات بينتو المداورة، ومن بعض أعداد جريدة ليموند المتأخرة التى تحصل عليها زكية. وقد تبين لى أن طلال ليس عربياً وإنما هو كردى، وليس متديناً إسلامياً بل هو ماركسى ـ لينينى. طريقته فى رؤية الأمور وتفسيرها ذكرتنى بزملاء قدماء فى جامعة تشيلى، لكننى احترمته لكمية الأشياء التى يعرفها.

بدا اللقاء فى البدء على شىء من الصعوبة، لأنى ضحكت عندما قال إننا فى العراق «نجلس على برميل بارود» (كان يتكلم بالفرنسية، مثل زكية، لأنه أمضى سنتين سوربونيتين فى باريس). لم أستطع كبح ضحكى، وقلت له إن إحدى العبارات التى تتردد بكثرة فى الخطابات السياسية فى تشيلى هى: «إننا على

شفير الهاوية» أرادت زكية أن تصعقنى بنظرتها، غير أن طلال تلطف بالابتسام (كمن يبتسم بوجود ألم فى أضراسه) واعترف بأن هذه عبارات خطابية عتيقة. وتابع قائلاً: الوضع على كل حال جدىّ ومعقد جداً.

بدأ يحدثنى عن تاريخ الأكراد. وهو مثل تاريخ كل الشعوب الساعية للتحرر، فيه الكثير من الأساطير. حدثنى عن الزعيم العسكرى مصطفى البرزانى وعن مسيرته العظمى فى الجبال عام ١٩٤٦ بعد سحق شاه إيران جمهورية مهاباد الكردية التى لم تدم طويلاً. لست أدرى لماذا تكتسب عمليات الهروب الطويلة هذه شهرة ثورية واسعة، كما هى مسيرة بريستيس فى البرازيل وماو فى الصين. أيكون السبب هو العناد الذى تتكشف عنه، والإصرار على مواصلة العيش كجماعة مهما كلف الثمن؟ أياً يكن السبب، تمكن البرزانى بعد مسير ٣٥٠ كيلومتراً، فى أشد جبال العالم وقممه وعورة، من الوصول إلى الأراضى السوفيتية. وهناك تلقى الخبر الطيب بانتصار ثورة ٥٨ التى أوصلت قاسم إلى السلطة.

جماعة الضباط الوطنيين الشباب الذين قادوا التحرك الذى قوض ـ وشنق ـ جلالة الملك فيصل الثانى فى الرابع عشر من يوليو، برز فيها على الفور تياران اثنان: تيار عبد السلام عارف، الناصرى والمدعوم من حزب البعث (البعث العربى الاشتراكى)، وقد اقترح انضمام العراق الفورى إلى الجمهورية العربية المتحدة. التى تشكلت قبل خمسة شهور من

ذلك باتحاد مصر وسورية؛ وتيار عبد الكريم قاسم، وهو قومى أيضاً، يمينى (حسب قول طلال). ومع ذلك، ومن أجل تثبيت سلطته، شكل قاسم حلفاً مع الشيوعيين الممتلئين بالقوة والسمعة لمشاركتهم فى الانتفاضة، ومع الأكراد الذين كان فرسانهم المسلحون قوة عسكرية معتبرة.

وفى هذا الصراع على السلطة، هُزم عارف وعزل من موقع الرجل الثانى فى قيادة الجيش. وبدلاً من إعدامه، مثلما كان يأمل البعض، أرسله قاسم سفيراً إلى بون.

رجع البرزانى بتمجيد وتبجيل إلى العراق واستُقبل كبطل وطنى. كان ذلك صيف الثورة الشعبوى، ووصل الأمر بالأكراد إلى الإيمان بيوتوبيا دولة تقاسم السلطة مع العرب، وحكم ذاتى فى الشمال، حيث يشكلون أغلبية. فى الخامس من شهر نوفمبر، حاول أتباع عارف القيام بانقلاب، وقد شارك فى إخماده بفعالية الحزب الديمقراطى الكردستانى بقيادة البرزانى والشيوعيين. وتكررت المحاولة بقوة أكبر فى الموصل فى شهر ديسمبر من السنة نفسها (إننا نتحدث عن العام ١٩٥٩). وكان التحرك فى هذه المرة عسكرياً، باستخدام المدافع وكل شىء. عبأ البرزانى حوالى ثلاثين ألفاً من فرسانه البشمرجة (من يزدرون الموت) وسحق التمرد. وسال الدم بغزارة.

عاش قاسم ساعة مجده القصوى؛ وكذلك البرزانى.

وجاء الازدهار الكردى العظيم. فقد ظهرت أربع عشرة مطبوعة باللغة المذكورة.

فى الحادى والعشرين من مارس، رأس السنة الكردية (النيروز)، قُدم فى السليمانية عمل مسرحى مستوحى من أسطورة كاوا، وهذا لا علاقة له بالقهوة، كما يمكن لك أن تفترض، وإنما بشخصية أسطورية بهذا الاسم، نوع من الهرقل المُحرر. ففى الجبال المحيطة ببلاد الرافدين، حسب الأسطورة، عقد أمير وغد يدعى أزدهاك (الضحاك) حلفاً مع الشيطان وقتل أباه، مثل أى أوديب عادى، كى ينتزع منه العرش. هنأ الشيطان قاتل أبيه على عمله الجيد بتقبيله من كتفيه، على الطريقة الشرقية، ثم اختفى. وهذا يفترض أنه خلف على الكتفين رائحة الخبز المحروق المعروفة.

لم تكن القبلتان بلا نتائج. فقد برز ورمان فى كتفى أزدهاك، ما لبثا أن تحولا إلى ثعبانين. لجأ أطباء البلاط إلى الجراحة واستأصلوهما، لكن الثعبانين نميا من جديد. أعادوا إجراء جراحة البتر، غير أن الثعبانين كانا يظهران فى كل مرة أكبر حجماً وأشد تهديداً. وفى هذا الوقت، جاء الشيطان إلى أزدهاك متخذاً هيئة طبيب، وقال له إنه لن ينجو إلا بتغذية زائدتيه المزعجتين بمخىّ شابين كل يوم. نفذ أزدهاك ذلك. وفى كل ليلة، صار يجرى اقتياد شابين، من العامة أو الأشراف، إلى القلعة، حيث يتولى طاه انتزاع مخيهما وتقديمهما للثعبانين. وبهذه الوصفة،

عاش أزدهاك ألف سنة، ضحى خلالها بسبعمئة ألف شاب. الأسطورة تتمتع بدقة حسابية. لم تعرف المجزرة المتواصلة أى نوع من التوقف، ولو فى الأعياد المتعارف عليها. كاوا الذى يُصوَّر حاملاً مطرقة عامل منجم على كتفه فى التمثال المقام له فى السليمانية، شمال العراق، انتفض عندما حاول مبعوثو أزدهاك أن ينتزعوا منه ابنيه الأخيرين. وبالتحالف مع جاره الأمير، تمكن من هزيمة خصمه الفظيع وقطع رأسه.

وبالطبع، فى العرض المسرحى الذى قُدم عام ١٩٦٠ حسب ما أخبرنى طلال، تحول الثعبانان فى إسقاط سياسى إلى الإمبريالية والناصرية.

بدأت القوة التى يتمتع بها الأكراد والشيوعيون تستثير عصبية قاسم. وبمساندة اليمين القومى العراقى شرع بشن هجوم قوى ضد الشيوعيين، بعد أحداث كركوك، حيث جرى سحق محاولة تمرد أو انتفاضة جديدة على يد الطلاب وعمال البترول الذين ذبحوا خمسة وخمسين شخصاً من المنتفضين، بينهم بعض زعماء اليمين التقليدى. وكان القادة الطلابيون والعماليون جميعهم تقريباً من الشيوعيين.

«بدأتُ أفهم» قلتُ لزكية، «هذا هو سبب أحكام إعدام الطلاب، ولهذا السبب كان احتجاج النساء يوم وصولنا إلى المؤتمر الطلابى...»

قالت هى أجل، بالضبط. وأضاف طلال بأن حملة قاسم كانت موجهة، فى البدء، ضد الشيوعيين

وحدهم. وواصل البرزانى دعم الحكومة. «فى تلك الأيام، حذرته قيادة الحزب الشيوعى من أن قاسم سيهاجم الأكراد بعد ضربه الشيوعيين»

«كما فى قصيدة برخت»، قلت له معلقاً.

فابتسم طلال: «بالضبط».

حاولت أن أعرف بمزيد من الدقة: «ولكن، هل أنت شيوعى أم كردى؟»

أجاب: «أنا شيوعى كردى»

«حسن. وماذا سيحدث الآن؟»

«هناك مفاوضات. البرزانى يتداول مع قاسم. يسعى إلى تنفيذ الوعود بالحكم الذاتى. ولكن الجريدة الحكومية، الثورة، تقول إن مستقبل الأقلية الكردية مرتبط بالأمة العربية. إنها تشير بوضوح إلى الاندماج»

«إذاً، أنتم تشعرون بالتشاؤم...»

«أجل» قالت زكية، «أبى يرى أن الأمور ستسوء بالنسبة إلينا نحن الأكراد. يستعجل اتخاذ بعض الإجراءات الدفاعية. القادة السياسيون والعسكريون تحولوا، أو أنهم يتحولون إلى السرية، وآخرون يذهبون إلى الجبال».

«وماذا سيحدث؟»

«الحرب» قال طلال برصانة.

ظللنا صامتين. وعندئذٍ جاء ما كنت أتوقعه:

الطلب. وبصوت بالغ العذوبة قال طلال: «نحن نعرف أنك شخص مستقيم. وهذا ما تعتقده زكية»

«يا رجل، شكراً جزيلاً؟» قلت له ونظرتُ إلى زكية التى احمر وجهها حياء، كى تنظر إلىّ بعد ذلك مواجهة، مثلما هى عادتها. (اكتشفت فى تلك اللحظة أن الملمح الأبرز فى وجهها هو الجبهة، فهى مرتفعة جداً ومنحسرة، إضافة إلى العينين الرماديتين - الخضراوين، وحاجبين شديدى السواد، كما لو أنهما مرسومان بريشة، يميلان إلى الالتقاء فى الوسط، فوق الأنف. وقبل ذلك كله، هناك شىء ما فى طريقتها بإبقاء رأسها منتصباً، مع هزة خفيفة بين حين وآخر لدفع شعرها إلى الوراء، هو ما يضفى ذلك الإحساس بالصراحة واستقلالية وجهة النظر التى أظن أننى حدثتك عنها من قبل).

«ما المطلوب؟» سألتهما.

تبادلا النظرات كمن هما مترددان. ضايقنى ذلك. وكنت على وشك النهوض واعتبار المقابلة منتهية، غير أن طلال سبقنى: «نحن نعرف أنك تسافر بسهولة، وربما أنك ستسافر قريباً إلى الخارج». نظرت إليه بعدم اهتمام، لكننى كنت أشعر بالحيرة: كيف يمكنهم أن يعلموا الآن بنيتى غير المؤكدة فى السفر، وهو أمر لم أتداوله إلا مع إيفا... حسناً، أجل، ومع بينتو أيضاً؟ انتظرتُ أن يكمل كلامه. وكان هو بدوره ينتظر أن أقول له شيئاً، فظل كل منا ينظر إلى الآخر لدقائق بدت كأنها سنوات.

تدخلت زكية: «انظر، أنا أعرف أنك شخص نزيه. وأعرف كذلك أنك تنتمى فى بلادك إلى أقلية، مثلما هم الأكراد هنا. ولهذا نرى أنه يمكنك أن تفهمنا و... تساعدنا».

قلت لهما إننى باعتبارى أجنبياً، ومتزوجاً فوق ذلك من مواطنة تشيكوسلوفاكية، لا يمكننى ولا يتوجب علىّ التدخل فى السياسة الداخلية، بالرغم من أننى أتفهم بالطبع الوضع الذى تعيشونه.

«صحيح» قال طلال - وهو ليس أحمق بأى حال - رافعاً إحدى يديه، وأضاف: «لا شىء من التدخل فى السياسة الداخلية. هذا واضح جداً. ولكن، بما أنك تسافر، يمكن لك أن تحمل رسائل وتسلمها فى بلد آخر إلى شخص محدد، إلى أحد أخوتنا. من الضرورى بالنسبة لنا الآن توضيح ما يجرى، والتمكن من جعل مطبوعة صحفية أوروبية تتحدث عن المسألة الكردية فى العراق. ومن المؤكد أننا لا نستطيع استخدام البريد العادى، ولا يمكننا كذلك الاقتراب من أية سفارة أجنبية هنا».

قلت لهما إننى سأفكر. وإذا ما برزت لى أية رحلة إلى الخارج، سوف أخبر زكية. ولكننى لم أحسم أمرى، لأسباب عديدة بينها الأسباب المالية. بدا عليهما شىء من خيبة الأمل، لكننا افترقنا بمودة.

إننى أخبرك بهذا على سبيل الاحتياط، إذ قد يحدث شىء فى لحظة ما، وأستغل أن هذه الرسالة ستصلك دون وسيط غير مرغوب فيه. فحاملها

ألكسندر فيسبيرك الذى كنت قد حدثتك عنه من قبل (تعارفنا فى الطائرة من براغ إلى بغداد)، سيقضى بعض الوقت عندكم وسيتصل بك من براغ. وهذا سيتيح لك إرسال ردك إلىّ بسرعة عبر الوسيلة نفسها.

بعد لقائى بزكية وطلال عدت إلى كتابى المقدس، أعنى «بريد بغداد» لأرى إن كان يقول شيئاً عن الأكراد. إنه يقول أشياء، لكن ما أعجبنى بصورة خاصة هو ما يرويه عن بعض قبائل الأكراد الرُّحل، «ويحملون الاسمين غير العاديين: ساتشلو، أى كثيفو الشعر، أو سيكيسبيلو، وهذا لمن له لحية من ثمانية فروع، وهى كثيفة إلى أقصى الحدود، ويعدونها هكذا: فرعان يتدليان من الشفتين، وفرعان يُرفعان فوق العينين، وفرعان يخرجان من فتحتى الأنف، وآخران من الأذنين».

وأنا الذى لدى قليل من الشعر فى وجهى، وفى جسمى عموماً، باستثناء ما هو فوق رأسى، بدا لى ذلك مفاجئاً ومسلياً جداً. أمضيت يومين فى وضع دراسات «رسوم شَعريّة» بالحبر، وقلم الرصاص، والألوان الزيتية، بل ورسم تخطيطى لرجل بشمرجة كثيف الشعر، أرسله إليك كذكرى. القسوة تكمن فى الشعر. وقمت كذلك بإجراء بعض الدراسات للشرير أزدهاك، من أجل تمرين يدى ومخيلتى. وبأشد الطرق مصادفة - أقسم لك - خرج معى وبه بعض الشبه بستالين.

لاشىء خاص أخبرك به عن إيفا، لأنها هى أيضاً ستستغل كرم صديقنا المسافر، وتنهمك الآن فى كتابة رسالة إلى أمها، كما فهمت، وأخرى لك، وثالثة لروزينا. أرجوك أن توصل هذه الرسالة الأخيرة إلى اتحاد الطلبة فى براغ. إيفا ستقدم لك أخباراً موسعة عن نفسها، كما آمل.

إذا استطعت التحدث مع فيسبيرك فلا تضيع الفرصة. إنه رجل لطيف، ذكى، وهو أوسع اطلاعاً من كثيرين.

معانقة أخرى من صديقك الدائم وابن أخيك

هـ

الرسالة الثامنة

المرسم وبرج الحمائم على السطح/ مصاعب فى العلاقة مع الفنان/ بغداد/ هوس الابن.

عمى العزيز: أنتهز الفرصة الطيبة التى أتاحها لنا السيد فيسبيرك كى أكتب إليك وإلى أمى وصديقتى روزينا، وهى من معارفك كما أظن.

أنا على اطلاع على أن أليرو قد كتب إليك عدة مرات. وهو لا يفعل شيئاً فى أيام كثيرة، على ما أظن، سوى كتابة رسائل طويلة جداً لك. وهو حريص على ألا يسمح لى بقراءتها. وأنا أيضاً لا أطلب منه الاطلاع عليها. وهذا يجعلنى أفترض أن تفاصيل كثيرة من حياتنا هنا معروفة لديك. ولهذا سأحاول أن أخبرك بما لا يخبرك هو به.

هل أخبرك، مثلاً، أن هناك على سطح منزلنا برج حمام هائلاً؟ بغداديون كثيرون لديهم مثل هذه الأبراج للحمائم، وهى سبب مشاجرات تكون حامية أحياناً، إن لم تكن دامية. فعلى الرغم من الكلام الذى يقال عن غريزة الحمام، إلا أنه يحدث ضياع، أو

خيانات، أو أعمال خطف. وبرج الحمائم الذى عندنا لا يروقنى، وهو فى الواقع ليس لنا وإنما لأصحاب البيت. ضجيج متواصل، هديل، لهاث، لدى هذه الطيور حمى جنسية لا تُصدق ولا يمكن تصورها. والوساخة! إنها تمتد بعيداً خارج بيت الحمائم، على الدرج، وعلى الجزء الخاص بنا من السطح، ومُدخل مرسم أليرو. وعلىّ أنا «طبعاً» تولى النظافة.

المرسم هو بيت حمائم آخر. إنه سقف مرتفع على أعمدة معدنية، يبدو أنه كانت تقوم هنا فى السابق صناعة صغيرة، الأرضية أسمنتية، وهو مفتوح من الجانبين، مع وفرة غزيرة جداً من الضوء. وأليرو يقضى هناك ساعات طويلة، لا أدرى كم ساعة. وعندما لا يبقى ثمة ضوء، يظل هناك فى أحيان كثيرة منكباً على دراساته وملاحظاته حين لا يكون منهمكاً فى كتابة رسائل لك؛ ولكن ليس لديه أى جدول توقيت نظامى. إنه يخرج فجأة ولا يعود إلا فى وقت متقدم من الفجر، ويعود فى بعض الأحيان كى يخرج مرة أخرى بعد حوالى ساعتين. وتمر أيام كاملة، يومان أو ثلاثة أيام متتالية، دون أن يرى أحدنا الآخر. ولا نتبادل سوى كلمات قصيرة من مقطع واحد، أو من مقطعين فى أقصى الحدود، مثل: nazdar, ahoj, tek Salaam, na shle Buh.(*)

(*) عبارات شائعة بالتشيكية، يمكن أن تترجم كتحية، مرحباً ahoj كلمة بحرية ربما هي جيرمانية، ولا أجد سبباً لاستخدامها في بلد متوسطي، الله معك. وسلام salaam بالعربية، كما هو معروف، هي جزء من صيغة «السلام عليكم» وعبارتنا التشيكية المعروفة na shledanou التي تُختصر بالقول nashle وتعني إلى اللقاء. (ج ب.)

النتيجة بالنسبة إلىّ هى وحدة هائلة، وغير محتملة أحياناً. لأن يوم عملى ينتهى مع انتهاء دروسى، فى منتصف النهار، والعودة إلى البيت بعد تناول وجبة الغداء نفسها على الدوام فى الكانتين الجامعى. يكون الرسام منهمكاً فى العمل، ويبقى لى التنظيف، والغسيل، والقيام ببعض المشتريات، والتجوال فى غرفتينا إلى أن أشعر برغبة فى ضرب رأسى بالجدران. بعد الساعة السادسة لا يعود بإمكان المرأة الخروج وحدها. ولا مع مرافقة. فالشارع ذكورى وشديد العدائية، مشحون بنظرات لبيدوية. نظرات!... النظرات ليست شيئاً يُذكر. الأسوأ هو الإيماءات... وملامسات جسدية غير مرغوبة.

أعرف مدى تقديرك لزوجى. وأتفهم ذلك. إننى أفكر أحياناً فى أنه فنان كبير. ولكن كونى زوجته يشكل محنة كبيرة. إنه لا يرفع صوته أبداً. فطبعه شديد الهدوء، عادى، مثل نهر بطىء. لكنه لا يقول ما يفكر فيه. لا يناقش الأمور اليومية الصغيرة معى. لا يتبادل كلمة عاطفية، محبة، بالرغم من أننى واثقة منه، أعنى من حبه لى، وهناك لحظات تواصل حميم جداً. لكنها متباعدة جداً. وبعد ذلك يصيبه الهوس. أنت لا تعرف مدى هوسه! ثلاثة أسابيع كاملة كرسها للتمور! لا يرسم شيئاً سوى تمور، بدقائق تفصيلية وتدرجات لونية، والبيت ممتلئ بتمور فى مختلف مراحل النضج، وأكلها كل يوم (أنا من تأكلها، لأنه لا يحب التمر)، حتى الإحساس بالرغبة فى عدم رؤيتها إلى الأبد. والآن الحصان. لحسن الحظ أنه لم يأتِ به

إلى البيت، ولكنه ذهب للعيش معه تقريباً. فهو يخرج كل يوم قبل اختفاء النجوم تقريباً.

إننى أعيش، إذاً، تجربة غنية ولكنها ليست سهلة، متزوجة من هذا الأجنبى المختلف من نواحٍ كثيرة عن رجالنا، وفى هذا العالم المختلف جداً عن عالمنا. ولكن لابد لى من القول إنه ربما كان السبب الأساسى لاختلافى مع هويركيو هو فى رفضى الواضح لإنجاب ابن هنا. إنه يرغب فى ذلك إلى حدٍّ لا أجد له تفسيراً! وهو يتقبل عقلانياً حججى المنطقية فى أنه لا يمكن عمل شىء مع طفل وليد هنا، فضلاً عن عدم ضمان الشروط الطبية، وأنه يمكننا إنجابه بعد شهور، أو ربما بعد سنة إذا ما جرى تجديد عقد عملى، ولكن فى البيت، فى براغ. يقول أجل، يخفض رأسه، لكنه يزمجر بشىء من بين أسنانه، ولا يخبرنى بما يقوله، حتى لو طلبت منه ذلك. هناك عدم اتفاق ثابت بطريقة ما، نوع من الاستياء الأصم، ومعه، تباعد.

أرجوك يا عماه أن تغفر لى هذا التفريج عن النفس. لا يمكننى التحدث إلى أمى فى هذه الأمور، لأنها ستقلق كثيراً، بل يمكن أن تصاب بجلطة. لدى أمل كبير فى أن يصير كل شىء مختلفاً عند عودتنا.

أرجو منك أن تسلم رسالتىّ، إذا ما ذهبت إلى براغ، أو ترسلهما بالبريد إلى أمى وصديقتى روزينا التى يمكنك أن تجدها فى اتحاد الطلاب العالمى. لك قبلة وتحيات

إيفا.

ملاحظات على الرسالتين السابعة والثامنة

كلتا رسالتين مكتوبتان فى أسبوع أول من إبريل. هاتف مفاجئ أخبرنى يوم ٧ بأن ألكسندر فيسبيرك سيأتى. عرّف بنفسه، وقال إنه سيسافر لبعض الأعمال إلى ميلنيك (عند ملتقى نهر لابى، أنتم تسمونه إيلبا، ونهر فلتافا الذى تسمونه مولدافا) وقرر مجىء إلى أوستى ناد لابيم كى يسلمنى شخصياً رسالة من هويركيو، والتعارف وتبادل حديث معى، وهذا سيكون رحلة إضافية ثلاث ساعات على رحلته الأصلية. ويوم كامل سيبقى فى يوستى، ومن فضلك، هل تستطيع أن تحجز لى غرفة فى فندق ليوم واحد؟ وأرد عليه بحرارة شاكراً زيارته، وأقول له إننى سأهتم بكل شىء، ومتى يجب أن أنتظره فى محطة قطار؟ فيقول لى إنه يفضل أن يأتى فى حافلة، ويخبرنى بموعد تقريبى وصوله، إلخ..

إلى تفاصيل صغيرة غير ضروى يدفعنى هوس إلى تدوينها فى ملاحظاتى، ربما أعتقد أن كل شىء مهم. ومن جديد أطلب معذرة. وصل إذاً إلى أوستى وإلى بيتى سيد فيسبيرك، من أفضل أن أناديه سودروخ (رفيق)، وأعقد معه على الفور علاقة ودية،

مثل معارف قديم. ساعات كثيرة تحدثنا حول صديقنا مشترك ومواد أخرى.

ولكن قبل إشارة إلى تلك المحادثة، يجب على أن أطرح مسائل متعددة. يفهم انطباع عنيف ومشاعر مختلطة فى رسالتين ٧ و٨ مذنب كثيراً يبدو لى صمتى أمام صديق رسام حول علاقتى مع روزينا. أدافع عن نفسى بأن مراسلة الرد مع بغداد صعب. صوت داخلى يرد علىّ أنه يمكن بذل جهد لاكتشاف وسائل، مثل: طلبَ من وزارتنا لشؤون خارجية إرسال رسالة عن طريق حقيبة دبلوماسية. أو تجريب بريد مباشر. ولا حاجة إلى قول كل شىء بشكل سافر، هويركيو يفهم بنصف كلمات. كل شىء معقد، أصر، من أفضل انتظار مناسبة مثل هذه. نعم، ولكن، هل سأبعث الآن حقاً رسالة صريحة كل شىء أقول فيها؟ أشعر رأسى يدور ويصعد فجأة حر عنيف إلى وجهى. أحاول إخفاء هذا عذاب أو عاصفة، نفس شىء إحساس أنثوى روزينا سيكتشف.

ساشا رجل متكتم إلى أقصى حدود، يسلمنى فى محطة حافلات رسالتين ويقول إنه سيقوم ببعض أعمال غير ضرورية ثم يلتقى معى بعد ذلك. حددنا موعداً فى ساعة ثالثة بعد الظهر، عندما أكون انتهيت من دروسى وهو من مشاغله. افترقنا، وأنا أقرأ رسائل وأعيد قراءة، جالساً على مقعد فى ساحة حيث تزهر شجيرات أزهار صفراء معلنة الربيع. وبهذه حالة معنوية أنصرف باتجاه بيت، بدلاً من جامعة، وبشرود

أضغط جرس، بدل استخدام مفتاح. روزينا تفتح فوراً، كأنها تنتظر وراء باب، وعندما تراني تسأل بقلق: «ماذا حدث؟ مريض أنت؟» وبتسرع أرد «لا، لا؟» وأقول بشيء من اضطراب: شيء نسيته، وأحبس نفسي في مكتبي صغير، حيث أمسح عرق عن جبهتي، أحاول إنتاج هدوء من داخلي وأخرج من جديد. هي تسألني: «وصل رجل من بغداد؟ .«أقول لها نعم، مبدياً جدية بشكل سيئ جداً، وأنه سيأتي الساعة الثالثة، ويمكننا تبادل حديث. تقتصر هي على توجيه إليّ نظرة طويلة وقبلة طبية لطيفة جداً. يجب أقول، ملتفة بروب أزرق طويل ناعم ووبري، وعيناها واسعتان، زرقاوان وهادئتان، وأفكر أن كل شيء على ما يرام، كل شيء سيكون على ما يرام.

ولكن أعود إلى جامعة، ويبقى تشتت أفكار، فيكون أنا مضطراً إلى إلغاء درس والطلب، كذريعة أكثر منه ضرورة شخصية، زيارة مستوصفنا. دكتورة تكتشف ارتفاع شديد في ضغط دموي، تعطني حقنة، تأمرني براحة بعض الوقت. أنصاع وبعد بضع دقائق أتمكن من تهدئة هياج داخلي، وأقرر أن أواجه وضع بعقلانية.

بعد ذلك، في مكتبة هومانيتاس، أعيد قراءة رسالة من هويركيو وعندئذ أستمتع بما تستحقه قصة لقائه غير معقول مع حصان يدعى سموم وصورة محارب يزدري موت له ثماني خصلات شعر، الواقع لا يظهر هنا وجه، وإنما شعر فقط، خشن، واخز، حتى

بعث إحساس ثلاثى أبعاد. التأثير فقط بوسائل تصويرية يمكن حصول عليه. لأن الشعر، فى اندفاع بركانى، لا يصور وجه فقط، وإنما كذلك الطبع. رسام استخدم فى هذه مرة قلم رصاص بلون دم جاف، لون دموى حسب قول معجم. هل هذا صحيح؟ ليس لون عدوانى يسبب لى عادة الصد. هنا لا يمكننى إلا أن أقدر خدمة نوايا فنية، فهو لون وحيد مناسب لمحارب دموى.

ولكن يجب عدم ابتعاد عن مسألتى أساسية، وسأقول بالترتيب أفكارى:

أ) فى البيت سيأتى فيسبيرك وسيتعرف إلى روزينا.

ب) لا حاجة إلى تحدث عن علاقتها مع هويركيو ولا دخول فى تفاصيل (لا مجال لأى شك فى أن رسام لم يتحدث معه حول مسألة روزينا).

ج) هو سيلحظ ما يبدو ظاهراً للعين وفيما بعد سيتحدث فى الأمر مع هويركيو.

د) يجب أكتب رسالة إلى رسام (فقط له حصراً) أقدم تفسيرات مطلوبة: قرار روزينا بعدم وقف حمل، وقرار أنا بالانضمام إليها وموافقتها.

هـ) ضرورى رسالة أخرى إلى إيفا، إخبارها أن روزينا هى الآن زوجتى إلخ.

و) رسائل هذه يجب أن يحملها فيسبيرك.

هذا ترتيب نقاط منهجى أحدث سلام داخلى،

وإن يكن فى وضع جوهرى لم يتغير شىء. بجهد ذهنى حاد استبعدتُ مشاعر ذنب لا حاجة لها، وبعد طبق لحم خنزير معهود، وملفوف وشرائح خبز، رجعت إلى بيت.

حضر فيسبيرك بموعد دقيق ومعه زجاجة نبيد أحمر ياقوتى من ميلنيك سلمنى إياها عند باب الشقة بارتباك. طويل أكثر منى برأس، نحيل، يضع نظارة مثلى. سرعان ما شعرنا براحة واحد مع آخر. القسم الأول محادثة طويلة فى مكتبى، حيث متسع فقط لمنضدة ثقيلة موروثة عن أبى، وكرسى، وأريكة من جلد مستهلكة جداً، وما تبقى ثلاثة جدران كتب، ترتفع رفوف حتى سقف بسبب عدم وجود مجال حيوى. روزينا لم تسرع لاستقبال ضيف لأسباب غامضة، لكنها فيما بعد جاءت وجلست معنا.

كيف ألخص تلك محادثة؟ الموضوع كان بالطبع، قبل كل شىء، هو هويركيو، حياته فى بغداد، رسومه، إيفا. لم يضف كثير على ما أعرف أنا من تفاصيل فى رسائل رسام. فيسبيرك تحدث بتقدير كبير عن لوحة ستُعرض فيما بعد فى تشيلى يعنوان «فلاحون هاربون من إصلاح زراعى». وبكثير من تحفظ يحاكم (العنوان على ما أظن وليس اللوحة) مقال نقدى فى جريدتكم محترمة. وبعد وقت طويل جداً، أتيحت لى فرصة، مرة واحدة، لرؤية هذه لوحة.

فيسبيرك تحدث طويلاً أيضاً عن هوس هويركيو الزخم فى العمل، عن وحدته فى مدينة قاسية،

خطرة، وأيضاً سحرية أحياناً، ومصفوعة دائماً بشائعات وتآمرات، بائسة، جميلة، لا تزال غير مفهومة بعد حتى لمن يعرف لغة مثله. فكم ستكون أكثر بالنسبة إلى هويركيو الذى تقتصر معرفته على قشتالية تشيلية وفرنسية، وقليل من إنجليزية، وقليل من تشيكية، وبعيد جداً جداً عن تلك عوالم، ثقافة، تاريخ. ويسعى مع ذلك إلى فك رموزه بالغريزية المحضة أو التكهن البدائى، أو أكثر من هذا، برسم شهادته. وهذا الحديث باختصار شغل ثلاث ساعات.

وعن تشيلى أيضاً حدثنى فيسبيرك، بدفء كثير لا يتحدث به عن أراض سلوفاكية حيث ولد قبل أكثر من خمسين سنة.

وبالرغم من أنه متكتم أقصى، فقد ظهرت عليه ملامح مفاجأة مكبوحة حين دعوته لنجلس إلى مائدة وقدمت إليه روزينا قائلاً اسمها ببساطة وإنها «زوجتى» تصافحا بيد، وهو دون مداراة راح يتأملها من قدمين حتى رأس، مع إلحاح ظاهر على منطقة وسطى من جسمها. وبينما أنا منهمك فى فتح زجاجة نبيذ كان صمت ثقيل ينتشر وكلاهما، روزينا وساشا، يمارسان مبارزة فى تفحص من وراء عدسات نظارتيهما.

سكبت كؤوسًا واقترحت نخب صداقة ولقاء. شربنا وعندئذ فيسبيرك بتصميم مفاجئ قال: «إذاً، روزينا نحن التقينا من قبل، أليس كذلك؟». وبهدوء كبير أجابته: «هكذا أظن. فى طائرة اتحاد طلاب إلى

بغداد .«قلتُ أنا: «نعم، هى عملت فى اتحاد طلاب إلى ما بعد قليل من مؤتمر، لكنها قررت المجىء للعيش معى فى أوستى» قال فيسبيرك «هممم» وترك الموضوع، وإن رأيته بعد ذلك مرتين ينظر إلى بطنها.

هذا الرجل كثير سفر، ذهب بعقود تجارة خارجية إلى بلدان اكزوتيكية، لديه امتياز اتصال مع مستويات عليا تتيح له رؤية، وهو صاحب تأمل ثاقب، وقليل من مرارة من عالم نعيش فيه. كانت محادثتنا حيوية جداً. أولاً سألنى عن ظروف سيرة حياتى، اعتقال، معسكر تجميع نازى، هروب من قطار نقل سجناء. بدا له غريباً ـ لكنه لم يقل ذلك ـ بقائى خارج الحزب فى الوقت الذى كل مسيرة حياتى تشير إلى أننى يجب أن أكون عضواً فى الحزب. لم يلح كثيراً على هذا موضوع، ولكننا فهمنا كيف كان أمر واضحاً له دوماً، منذ طفولة، ذلك الطريق، بطريقة ما أشار إليه أبوه. مهندس، متخصص مراجل وتقنيات إغناء حرارى لفحم أسود، تجنب قدر إمكان العمل فى جهاز حكومى ـ حزبى. وحافظ بذلك، كما قال، على نوع خاص من استقلال، ونقد روحى، ولكن غريزة عدم إلقاء نفسه تحت سنابك خيل، حسب ما يقول هويركيو، ولا محاولة تبديل قبل الموعد ما لا يمكن تبديله، وهذه حكمة خاصة جداً بأهالى مقاطعة بوهيميا الذين خضعوا ثلاثة قرون لهيمنة إمبراطورية جيرمانية وكذلك شعبنا.

حدثنا فيسبيرك عن إقامته فى كمبودجى، بالإسبانية تسمونها كمبوديا؟، تحت أمير نوردوم

سيهانوك. عاش شهوراً فى فنوم بينه لأسباب بناء مصنع حديد مباع، بكامله، من تشيكوسلوفاكيا. كثيراً ضحكنا من وصفه علاقات بين سفارات، ودبلوماسيين، وفنيين من بلدان اشتراكية مع بلاط أمير كمبوديا.

«سيهانوك يحلم باشتراكية أسيوية، سلالية حاكمة، بوذية ولطيفة، تحت دفته. أمضى الأمير عدة سنوات يدرس، هذا قال، فى باريس. يحفظ فى قصره روائع ثمينة من ذهب وعاج، ثماثيل ضخمة حجر يشب كريم، وسجاد يخجل أحدنا أن يدوس عليه، وأجراس ذهب لاستدعاء خدم، وتمثال بوذا مع زمردة ضخمة فى جبهته، زائد مكتبة واسعة لكلاسيكيين ماركسيين لينينيين فى طبعة فرنسية من مطبوعات اجتماعية وغيرها. وهو يقرأ أيضاً ويستشهد بها. وأشياء أخرى تعلمها فى باريس تعجبه أكثر».

فيسبيرك يصمت، تلمع عيناه بشرر خبيث.

«مثل ماذا؟» تسأله روزينا باهتمام.

«مثل الجاز. الأمير يعزف كلارينيت بصورة مقبولة، وأحياناً آلات نقر. يرافقه فريق من أربعة عازفين: عازف جيتار فرنسى، وآخر أمريكى زنجى (عرفت أنه من الـ CIA) يعزف ترومبيت وساكسو وترومبين، وقارع إيقاع خلاسى من جاميكا، وعازف بيانو كمبودى. ومعزوفته المفضلة هى «هانيسكل روز». ويكفى بعض تصفيق مجامل كى يعيد المعزوفة مرة أو

مرتين، بارتجال جديد وأبعد فى كل مرة عن الأصل، ولا تكون سعيدة دوماً، خاصة عندما تطول كثيراً وتتكرر».

«ومن هو جمهور تلك حفلات موسيقية؟» سألته.

«سلك دبلوماسى، أو بكلمة أدق، بعض سلك دبلوماسى، من أصدقائه مقربين. وخاصة عاملين فى سفارات سوفييتية، تشيكية، جمهورية ديمقراطية ألمانية؛ وكذلك بلدان أخرى، حسب نزوة أمير. وهناك أيضاً أناس من البلاط، لا أدرى، نبلاء البلاد، وقائد عسكرى ما، ودوماً يكون حاضراً رئيس شرطة سرية. جماعات لا تزيد على عشرين شخصاً. ويلى حفلة موسيقية على الدوام ولائم فاخرة يقدم فيها ثمانية عشر طبقاً على الأقل، مع نبيذ فرنسى، وفى بعض الأحيان، لأسباب برتوكولية، نبيذ هنجارى أو سوفييتى من القرم. ويكون تناول طعام على الدوام تقريباً على شرفات عالية أو فى حدائق، مع أوركسترا محلية تعزف موسيقى كمبودية لذيذة، يكون فيها غالباً أجراس صغيرة، وخشبيات. أصوات رنانة حادة مع خلفية إيقاعات قوية وأنغام حسية شرقية، لكنها محلاة بطريقة ما لسمعنا الهمجى الأوروبى».

روزينا تستمع بافتتان: «وهل كان يدعو الأمريكيين أيضاً؟»

أجاب فيسبيرك بأنه كان يفعل فى مناسبات نادرة فقط. «الأمير لا يثق بهم، ويقول بصوت عالٍ، وأحياناً بحضور سفير ولايات متحدة، إن CIA رتبت أربع عشرة محاولة انقلابية وتسع محاولات اغتيال

ضده. وقد خطر لأحدهم، أظن أنه قنصل سوفييتى، أن يقول إن ذلك كله مثل قصة فيلم مغامرات فى الحياة الحقيقية. امتلأ الأمير حماسة، وأحضر مصورين وتقنيين وكتّاب من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا، وأشرف بنفسه على كتابة سيناريو فيلم يُصور فى قصر ملكى بالذات وفى أماكن تاريخية فى فنوم بينه حول مؤامرات الـ CIA. »

«وجرى تصويره؟»

«أجل، فالأمير شخص عملى ومن عادته تنفيذ ما يقوله دون أن يستشير أحداً. أضف إلى ذلك أن له مصلحة خاصة فى هذا عمل. هو نفسه أدى دور الأمير، لأنه قدر أنه لن يستطيع أحد أن يؤدى أفضل منه دور... نوردوم سيهانوك. وكانت زوجته الأميرة مونيك هى البطلة»

ضربت روزينا كفيها ضاحكة: «أتمنى لو أرى هذا الفيلم».

«قد يكون له عرض افتتاح فى براغ إذا استدعت مصلحة الدولة ذلك. سيكون افتتاحاً ضخم الأبهة دون شك. وربما تستطيعين رؤيته عندئذ. ولكنه ليس مشوقاً جداً. يستمتع المرء أول نصف ساعة، بذهاب ومجىء سيهانوك يرتدى الأبيض مسلحاً بمسدس صغير مفضض، ويحبط محاولات اغتيال بين ردهات وأعمدة معابد متداعية وقصور فخمة، بينما متآمرون أمريكيون يكبحون بالعبوس نواياهم شريرة. ولكن ساعات تالية من الصعب تحملها».

«ساعات؟» صرخت روزينا ضاحكة، «ساعات كثيرة، كم ساعة؟.«

«آه، لا أدرى. أربع، خمس ساعات».

حاولنا أن نتصور كيف ستكون تلك السينما. بعد ذلك أضاف فيسبيرك، بجدية: «شريط مؤامرة فى فنوم بينه قُدم فى الصيف الماضى فى مهرجان موسكو السينمائى. وكان هناك نقاد (سوفييت) امتدحوه، ومنحته لجنة تحكيم جائزتها خاصة لأفلام من بلدان على طريق التطور فى آسيا وإفريقيا وأميركا لاتينية».

قلت له إنه محتمل تصور أسباب سياسية ومصالح دولة وراء هذه جائزة، ولكن ذلك لا يساعد سمعة مهرجان موسكو. فيسبيرك ضحك حتى الدموع. «بالفعل، لا يساعد»؟ كرر دون أن يتوقف عن ضحك.

بعد ذلك أبدى سيهانوك حماسة بفرق عمل تطوعى تشيكية. حتى أنه قرر تنظيم واحدة منها لغرس أشجار فى حديقة ملكية.

«كنا مدعوين خاصين تشيكيين وسوفييت، إضافة إلى دبلوماسيين معهودين وجماعة البلاط. شبابنا والشباب الروس وصلوا فى وقت مبكر جداً، وكنتُ معهم، مرتدين سراويل قصيرة وقمصان عمل. عديدون أحضروا رفوشاً وأدوات أخرى. ومن نقطة انطلاق، من القصر الملكى، خرجنا بعد حوالى ثلاث ساعات فى قافلة، خلف عشر سيارات مرسيدس بنز

أو أكثر لموكب الأمير تنطلق بأقصى سرعة فى طريق أقرب إلى الضيق، لكنه معبد. وبعد نصف ساعة انعطفنا وتقدمنا تحت مظلة متصلة من أشجار عملاقة حتى مكان مختار. وبتنظيم من مسؤول أمنى فى سفارة سوفييتية توجهنا بمشية عسكرية إلى قطعة أرض مغطاة بقدر كبير من نباتات برية، وتسلمنا من وزير زراعة شخصياً حوالى ثلاثين غرسة شجرة علينا أن نزرعها».

«عملنا فى ذلك حر مثل ساونا وأنجزنا مهمة فى أكثر قليلاً من ساعة واحدة، حسب تقديرى. أما الأمير الذى يرتدى الأبيض من الرأس حتى قدمين، بزى أميرال أو شىء من هذا قبيل، تأملنا عشر دقائق بتقدير واضح، وشارك رمزياً فى غرس شجرة. ثم انسحب إلى مكان مختار جيداً، ظليل ويغطيه العشب، حيث كان ضيوف سلك دبلوماسى وسيدات وسادة محليون يجلسون متكئين على سجاجيد ووسائد، أحضرها منذ الفجر خدم قصر ملكى، ويشربون فى كؤوس طويلة مرطبات مترعة بثلج. وبعد أن أنهينا عملنا، دعانا قهرمان أو كبير خدم محلى بانحناءة احترام إلى مكان مختف بين أشجار، حيث أقاموا نظام استحمام متنقل فيه ستة دوشات ماء بارد استمتعنا بها كما يجب. وجميعنا، أو جميعنا تقريباً، كنا قد أحضرنا معنا قمصاناً نظيفة، أى أننا حين وصلنا إلى المكان الظليل كنا بمظهر لائق. استقبلونا بالتصفيق وألقى نوردوم خطبة ليست قصيرة بأى

حال، عن تفوق الاشتراكية، وجمال عمل تطوعى، عمل متحرر، مبادرة عظيمة كما قال لينين، إنسان جديد يولد من مجتمع جديد، وعن غدر الإمبريالية. جميعنا هززنا رءوسنا مؤيدين. وبعد ذلك، طبعاً، أتت المأدبة. هكذا كانت فرقة عملنا تطوعى فى كمبوديا».

ضحكنا مرة أخرى، ولكننا الثلاثة بعد ذلك ظللنا مفكرين وصامتين بصورة غريبة. وقال فيسبيرك:

«أجل. أحدنا يتساءل...» ولم يقل أكثر. ثم أضاف فقط: «فى أثناء ذلك، هناك فى كمبوديا شعب، **عمال**، وخاصة فلاحين. معهم لنا علاقة مباشرة. مهذبون جداً، أيدٍ عاملة ماهرة، بديهة سريعة. وفقراء جداً جداً. وهكذا يشعر أحدنا هناك شيئاً خفياً، ربما تقع مفاجآت فظيعة. الصينيون يمارسون عمل سياسى، يتكلمون عن ماوية، عن ثورة حقيقية، عن محاصرة ريف لمدينة، وعن عدم ثقة برجل أبيض، أوروبى (وأقرأ سوفييتى). يتفاهمون معهم بسهولة، لديهم كوادر تتكلم اللغة، يعرفون تقاليد...»

وبعد توقف قصير، بجدية: «هناك تناقضات. يقولون إنه من دونها لا شىء يتقدم. ولكن، فى ميداننا، بين ما نقول وما نفعل، ألا يوجد تناقض؟ أنا كنت فى مصر عندما كان حليفنا الرائع جمال عبد الناصر يقيم عرضاً عسكرياً خارج القاهرة. عرض عسكرى عظيم على شرف... على شرف من تظنون؟»

نظر إلينا منتظراً جواب. ولم ندرِ ما نقول له.

«جنرال هتلر المشهور إرفين فون روميل، قائد قوات إفريقية الذى كان يجول مع فرقته البانزر مثلما يتجول أوتو فى بيته، إلى أن هزمه منتجمرى فى العلمين. ليس هذا فقط: ناصر أحضر من ألمانيا أرامل ضباط وجنود ألمان ماتوا فى إفريقيا. كانوا لطخة سوداء على منصة، حيث كان يقف كذلك سفراؤنا اشتراكيون، بعضهم بوجوه مأتمية. جنود مصريون يمشون على طريقة ألمانية حاملين بنادقنا الأوتوماتيكية التشيكية. وفوق رءوسهم، على شرف رومل، تمر مزمجرة على ارتفاع منخفض مطاردات ميج سوفييتية. أحد رجالنا، من إحدى مؤسسات تجارة خارجية، يحمل على يده وشم رقمه فى معسكر اعتقال نازى، قال لى وهو يضغط على أسنانه: ما الذى نفعله يا رفيق، هل تفهم ما الذى نفعله؟».

المحادثة ابتعدت عن هويركيو، لكننا كنا مرات كثيرة نعود إليه، واستمر الحديث حتى بعد منتصف ليل بكثير. اتصلنا بالفندق لتأكيد حجز، لكن صوتاً معكر مزاج رد علينا قائلاً «لا شىء، لا حجز، كل غرف مشغولة بفريق هوكى» ولهذا اضطر ساشا النوم على صوفا ليست طويلة كفاية له، فى غرفة صغيرة حيث تضع روزينا ماكينة خياطة وأشياء منزلية أخرى، بينما أنا رجعت إلى مكتب محاولاً أن أكتب ما يتوجب أن أقوله لهويركيو، وروزينا فى السرير تكتب رسالتها إلى إيفا.

خرج فيسبيرك باكراً، شاحباً مع بقع سوداء عميقة تحت عينيه، مثل أنا بالتأكيد. رافقته حتى محطة أتوبيسات، حيث تحدثنا أكثر وشربنا بيرة صباحية من نوع بيلسين ١٢ درجة. سلمته الرسالتين، وطلبت أن ينقل تحياتى حارة إلى رسام، ورأيته يرحل ملوحاً بيد الوداع من نافذة حافلة متوجهة إلى براغ.

الرسالة التاسعة

ردود أفعال بشأن روزينا/ اقتراح للقاء في براتسلافا/ صورة سَموم/ هوس الجراد/ عقاب رجل أشوري/ على ضفة النهر.

الجمعة، ١٦يونيو ١٩٦١.

العم - البروفيسور السامى والمفاجئ: الأخبار التى تتضمنها رسالتك، وقد سلمنى إياها ساشا فور وصوله بالضبط، دوختنى. وإذا لم يتضح لك ما الذى يعنيه هذا، فإننى أبحث فى المعجم وأجد هذه المرادفات التشيكية: (zpitomely)، (rozpacity)، (omameny) ولنقل إننى أشعر بأنى «pitomy»أو ربما «أوما»وهو ما يجب أن يعنى شيئاً ما فى إحدى لغات سكان قارتنا الأصليين. الأرجنتينيون يقولون «أوبا» وهى تعنى شيئاً مشابهاً على ما أظن.

ليس لدى ما يدفعنى إلى أن أخفى عنك أنه خالط مفاجأتى فى البدء شيء من السخط

الأخلاقى. شعرتُ بأننى خُدعت، على الرغم من أن هذا قد يبدو سخيفاً. ضحية استغلال للثقة. أنا ضحية! أتلاحظ ذلك؟ بعد ذلك غلبنى الضحك وأظن أننى تقدمت خطوة نحو فهم الجريمة العاطفية. فهى فى جوهرها عمل مضحك، بالرغم من تراجيديته. لم أشعر بأى دافع للقتل، لكننى أحسست فى أعماقى بقوة ارتداد وراثية مجهولة، ردود أفعال غير متوقعة من الكبرياء الذكورى. وأنا الذى كنت أظن أننى مرتقٍ تماماً. يمكنك القول إن الهندى الكامن فىّ راح يخرج.

بعد ذلك تفهمت صواب حجتك، وهى فوق ذلك، كما يبدو لى، عقلنة لدافع مشروع جداً. وتفهمت عظمة ما أقدمتَ عليه. واكتشفت فى نهاية المطاف أيضاً المكسب الكبير الذى حصلتَ عليه، فإلى جانبك الآن امرأة رائعة، وسيكون لديك ابن عما قريب؛ دون الحديث عن استعادة الشباب المفاجئ الذى سيجلبه، أو جلبه إليك ذلك. لابد لى من الاعتراف أننى كنت أراك أكبر سناً مما أنت عليه، «ورقة محروقة» هذا ما يقولونه فى تشيلى (لا أدرى إذا كانوا لا يزالون يقولونه)، ولكننا إذا ما فكرنا فى أن عمرك الزمنى يزيد قليلاً على الخمسين، وأن أمل حياتك سيصل بكل راحة إلى ما بعد الخامسة والسبعين، فمن المنطقى القول إنك مازلت شاباً. ولنقل ناضجاً. ولكنك لست عجوزاً بأى حال. وليس بالإمكان، يا عزيزى جوزيف، أن نعتبر عجوزاً من هو قادر على اتخاذ خطوة كالتى اتخذتها أنت.

لقد أطلعتُ إيفا على رسالتك. وكانت مفاجأتها أقل منر ـالت إن روزينا ذكية جداً، وإن حياتها إلى جانب زوجها السابق كانت مملة، وغير سعيدة. وبدا لها أمراً عظيماً أنك اكتشفتها وقررت أنه عليك الاتحاد معها دون تأخير. النساء مستعدات على الدوام للاحتفاء بمثل هذه القرارات. قالت إنه أمر عظيم فى نظرها، وإن العم جوزيف «رجل جذاب جداً».

حسن، أظن أنه سيكون بإمكاننا قريباً جداً التحدث فى هذا الأمر، وفى أمور شخصية أخرى كثيرة. وإليك اقتراحى: سنلتقى فى براتسلافا، أمام اللجنة الوطنية، يوم ٢٣يونيو، فى منتصف النهار. سأحجز لك غرفة فى فندق يطل على الدانوب، وسأتحمل كافة نفقاتك. إذا كنت موافقاً، لا حاجة بك لأن ترد علىّ. يكفى أن تصل فى الموعد المحدد. أما إذا كانت لديك أية مشكلة؛ فأرجوك أن ترسل رسالة باسمى (أليرو ماتشوكا، لأن هويركيو لا وجود له هنا)، إلى فندق براتسلافا.

لقد اشتغلتُ كثيراً كثيراً، وأظن أن مواد معرض العام القادم فى سانتياجو ستكون وافرة ومتنوعة. أجل، إننى أتساءل، كيف سيستقبلونه. لقد أنهيت لوحة سَموم الضخمة، مثلما طُلبت، بالحجم الطبيعى، وبدقة شبه علمية. أظن أن شيئاً من طبع الحصان الرائع ينعكس فى اللوحة، وقد أحسست بأسى كبير لاضطرارى إلى تسليمها. لقد سمحت لنفسى ببعض

التجاوزات فى الخلفية، ووضعت وراء صورة الحصان منظراً ميزوبوتامياً، مع دجلة أشد مهابة ونظافة مما هو عليه اليوم، ونسخة من دراستى لبرج الصحراء جنباً إلى جنب مع جامع ذى قبة براقة. لكن هذا كله باهت بعض الشىء بالطبع، كما لو أن فى ذلك إشارة إلى أنه شىء غابر (هذه أمور يكتشفها أحدنا أو يختلقها فيما بعد)، والضوء كله مركز على الشخصية الأساسية التى تبدو شديدة الهدوء، وإن كان رأسها منتصباً، وأذناها متيقظتين، وحيدة، بلا رسن وبلا سرج، بكل روعة وضعها.

الحرذون الهرم، بطريرك الأسرة، انفجر بالبكاء حين رأى اللوحة، وكان عليهم أن يعطوه كورامين. أما الآخرون: الأعمام، الأخوة، أبناء الأخوة، فكانوا جميعهم متأثرين أيضاً. وكنت قد طالبت بألا يرى أحد اللوحة خلال مراحل إنجازها.

عملية النقل والتعليق تمت واللوحة مغلفة بنوع من أغلفة الفرش خاطته لى صاحبة بيتنا، السيدة ساندرا. وقد كانت العملية بالغة التعقيد، لأنى لم أنتبه مسبقاً إلى أن سلّم البيت لن يتسع لمرور اللوحة؛ فكان لابد من إنزالها بالحبال، وسط حشد كبير، معظمه من الأطفال، من السطح إلى الشارع، من أجل حملها بعد ذلك، بين أربعة رجال، إلى شاحنة يستخدمها آل الحسن عادة لنقل خيولهم. لم يكن بالإمكان العثور على وسيلة نقل مناسبة أكثر منها. حتى أنه كان فيها كيس جاهز من البرسيم. وكانت حزمة اللوحة معقدة

بسبب اتساع سطحها، كما أن الإطار ثقيل ثقل شيطان. إنه إطار بسيط، من خشب مصمت عاجى اللون، فيه خط ذهبى رفيع. لقد صنعوه لى فى ورشة موبيليا فى الحى، حيث يوجد حرفيون مدهشون. أما من ساعدونى فكانوا ثلاثة حمالين، تعاقدت معهم فى شارع هارون الرشيد مقابل قروش قليلة، وقد تعرقوا بغزارة بينما كانت إيفا، من فوق، تصدر الأوامر بعربيتها ذات اللكنة التشيكية. وأنا صعدتُ ونزلتُ على الدرج مرات عديدة حتى أوشك قلبى على الانفجار فى إحدى اللحظات.

خصص آل حسن لسَموم، بحس سليم، صالة كبيرة خالية من الأثاث، إلا من سجادة فى الوسط ومصباحين قائمين فى زاويتى الجدار المحجوز للوحة. وكان نصب اللوحة فى مكانها سهلاً وسريعاً نسبياً. فقد تولى ذلك رجل ضئيل يقوم فى البيت بكل مهمات الكهربائى، والنجار، والميكانيكى، والبستانى، وقد جاء ومعه مازورة قياس، وصندوق عدّة إنجليزى معدنى بديع، وسُلَّم قابل للطى، وعلى رأسه الكوفية التقليدية السوداء والبيضاء. أشرتُ له إلى الارتفاع المناسب، وقام هو بتنفيذ كل ما عدا ذلك بمهارة. ثم علقنا اللوحة مساعدة شبابى الحمالين، وتفحصنا التأثير، بتقريب المصباحين وإبعادهما، إشعالهما وإطفائهما، وهو تصرف أقرب إلى العبث، إذ كان هناك ضوء طبيعى رائع من خلال الباب الزجاجى المزدوج المطل على فناء النافورة، ونافذة واسعة تطل على الحديقة فى الجدار المقابل.

وأخيراً جاء طقس رفع الستارة (فعملاً بإحدى أفكار بينتو، أبقيت اللوحة مغطاة بقطعة قماش بيضاء، كى يتولى أصحاب البيت الكشف عنها بأنفسهم). وقد أخبرتك من قبل: كانت هناك انفعالات شديدة، وتصفيق، ومعانقات. حتى أننى وجدت عينىّ فى إحدى اللحظات ممتلئتين بالدموع. ربما لأن مرات قليلة جداً أثار شىء من أعمالى ردود فعل حارة. وبعد أن استرد السيد أحمد، بطريرك الأسرة، أنفاسه من نوبة البكاء، ألقى خطبة مطولة مفعمة بغصات التأثر والتشنجات الحلقية ما جعل الخطبة تبدو أشبه بدعاء ابتهال. وكان أفراد الأسرة الحاضرون، وجميعهم من الرجال، يطلقون بين وقت وآخر صيحات صماء، لاهثة بعض الشىء، تعبيراً عن تأييدهم. وأخيراً، انحنوا جميعهم، بالتناوب، أمام الرجل الهرم الجالس، كعادته، على عرشه، وقبّلوا يده.

وفى اندفاع لا إرادى، قمت أنا ظاهرياً بالحركة نفسها، فأثار ذلك أصوات رضا جديدة. وقد فكرت فيما بعد فى سبب إقدامى على ذلك. فأنا أشمئز، نظرياً على الأقل، من فكرة أن أتذلل أمام شخص آخر. لكننى حين أتذكر تلك اللحظة، أظن أننى شعرت بالشىء نفسه تقريباً فى المرتين أو الثلاث مرات - ليس أكثر - التى تحدث فيها إلىّ أبى طوال حياتى. لأنه زعيم قبلى قليل الكلام وقليل الملكية من الحيوانات، لكنه زعيم على أى حال، لديه طاقية الزعامة وعصاها. وفى تلك المناسبات انحنيت فى

حركة طاعة دون أى إحساس بالمهانة، بل على العكس من ذلك، أحسست بنوع من الرضا الداخلى الطبيعى... الشعور بأننى أفعل ما يتوجب فعله. وقد دفعنى ذلك إلى تأملى الذهنى القديم حول الطاعة الذى قررت إسقاطه من حسابى وأنا أمضى، فى تفكيرى، على طريق الطائفة الفرانسيسكانية.

بعد ذلك، وعلى انفراد، قام أكبر أبناء الجيل الجديد من آل حسن، وهو مدير مصرف بغداد فضلاً عن مناصب أخرى، بتسليمى شيكاً بالدولار فى مكتبه ذى المئة وأربعة وأربعين متراً مربعاً، والمنقول من نيويورك. تسلمتُ الشيك ودسسته فى جيبى كأننى غير مهتم، واحتفظت بمعنويات عالية، بالرغم من أننى لم أكن أتخيل أنه يمكن دفع مثل ذلك المبلغ مقابل لوحة. وخاصة لوحة لى أنا.

عرضت فيما بعد نسبة مئوية من المبلغ على بينتو، والذى لولاه ما كان هناك تكليف برسم اللوحة أصلاً. لكنه رفض قبول عرضى، وأخيراً، بشىء من الاستياء لإلحاحى، أخرج إحدى وريقاته وقرأها علىً بنبرة حكيمة حاسمة: «يتوجب على الرجل، وفقاً للظروف، أن يكون أسداً أو كلباً أو هراً أو قرداً».

ظللت أنظر إليه لأنى لم أكتشف، كما فى مرات سابقة أخرى، العلاقة بين هذه العبارة المقتبسة والموقف الذى نحن فيه. سألته: «وما هذا؟»

«مثل عربى قديم»

«إنه جميل جداً. ولكن ما علاقته بما نحن فيه؟ وهل أنا أم أنت الأسد أو الكلب أو الهر؟»

«أو القرد» قال بوقار.

«حسن، أو القرد. ثم ماذا؟»

أبدى وجهه ارتباكاً مضحكاً، وأعاد البحث فى جيوبه كمهرج، وأخرج قصاصتين أو ثلاث قصاصات، تفحصها وهو يحرك رأسه وشفتيه، دون أن يجد ما يبحث عنه. ثم أعادها إلى جيبه وفتح ذراعيه معتذراً: «كل شىء له علاقة، ولكن المثل فى هذه الحالة، يا للعنة! الحقيقة أن له قليلاً من العلاقة»

بدا حزيناً إلى حدّ شعرت معه برغبة فى الضحك. ونظراً لهذا الوضع دعوته لتناول كأس فى بار الفندق ذى العدد الأكبر من النجوم فى بغداد.

ظل على كآبته وهو يرشف كأس العرق ببطء، وسألنى: «ذلك المثل العربى، ألم تكن تعرفه؟»

فقلت له: «لا يا رجل. وهل يُفترض بى أن أعرفه؟»

«إنه وارد فى الكتاب» قال لى، وأضاف: ـ«كتاب ذلك الرحالة التشيلى من القرن الماضى».

«كتاب عجوزى المحبوب ريفادينيرا؟ حقاً؟ المسألة فى الحقيقة أننى لم أقرأه قط بصورة متواصلة، من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. إننى أفتحه لا على التعيين، وأقرأ فيه كما لو كان قرآناً. وبهذه الطريقة فى القراءة لا مفر من إفلات بعض الأمور. وهل مسألة المثل مهمة جداً؟».

«ياه، صحيح أنه ليس مهماً إلى الحد الذى يمكن أن يقال إنه مهم. ولكنه مؤثر. انظر، اسمع».

مدّ يده إلى جيبه وأخرج واحدة من وريقاته المشهورة. وقرأ لى بحكمة وهو يضبط الإيقاع بسبابته:

«ومع أن الوقت كان منتصف الليل، إلا أننا وجدنا جماعات كثيرة من الناس، يبدو من خلال أصواتهم ونوعية إيماءاتهم أنهم يتحدثون عن حدث خطير. وجاءوا إلى النزل ليوضحوا السبب للطاطر؛ لكننى لم أفهم شيئاً على الفور، إلا بعد أن أخبرنى هو نفسه بأن تركياً قد قتل للتو يهوديين خارج القرية، وأنهم اقتادوه فوراً إلى السجن، وهناك محاولة لمعاقبته بالعقوبة القصوى. وأضاف: إنه ظلم وفق القانون التركى. لأن المسلم لا يستحق أن يحكم عليه بالموت إلا إذا قتل عشرة يهود»

فقلت له: «رائع. والقانون التركى هو الذى كان سائداً فى هذه البلاد فى القرن الماضى، أليس كذلك؟».

«نعم ولا» أجابنى بينتو، وأضاف: «كانت البلاد خاضعة للإمبراطورية العثمانية، وكان فى كل ولاية حاكم تركى، لكنهم ما كانوا قادرين على تطبيق قانونهم بصرامة على الدوام... ولكنك تقاطعنى. اسمع ما يقوله بعد ذلك مواطنك...»

وتابع القراءة:

«أنا لا أجهل القانون وأجد تلك الشكوى غير منصفة ـ هذا ما كتبه ريفاديفيرا. وأضاف أيضاً: ولكن، بالرغم من ذلك كله، بدا لى أن الحذر يستدعى عدم معارضته، وأعطيته كامل الحق، منقاداً لمثل عربى شائع يقول: يتوجب على الرجل، وفقاً للظروف، أن يكون أسداً أو كلباً أو هراً أو قرداً»

احتفيت بالقصة وقلت له إن المثل فى هذه الحالة مناسب للوضع، ولكن هذا لم يكبح حرقته حسب ما استطعتُ ملاحظته.

شعرت بالحزن لوداعى اللوحة وتفكيرى فى أننى لن أعود لرؤيتها إلا فى مناسبات محدودة جداً. كان عملاً مجهداً، أحد أصعب الأعمال التى أنجزتها، والأول فى حياتى الذى أقوم به بتكليف مسبق، وليس بدافع خاص وشخصى. صحيح أن سَموم استحوذ علىّ فوراً، ومواجهة هذا التحدى أجبرتنى على دراسة وتعلم أشياء كثيرة جداً لم أكن أعرفها. لقد احتفظتُ على أى حال ببعض العزاء، فقد استبقيتُ لوحة لرأس سموم، ثلاثة أرباع الحجم الطبيعى، ارتفاعها متر وعرضها متر وستون سنتيمتراً، ينظر مباشرة إلى المشاهد، إنها لوحة زيتية غير سيئة، حسب ظنى، كدراسة لشخصية.

بعد أن تسلمتُ الرسالة التى تخبرنى فيها بزواجك من روزينا، ووسط محاولتى تمثل الخبر، بدأت وأنا فى حالة شرود برسم جرادات. ملأت أربع أو خمس ورقات بالجراد: جرادات ثابتة على الأرض،

ومتأهبة للقفز، وقافزة، وطائرة، مفردة أو فى أسراب. أسراب؟ أظن أن جماعات الجراد لا تسمى أسراباً، وإنما هى أثوال، تسمية كانت تبعث فىَّ، فى طفولتى، الإحساس بأن كمى قميصى ممتلئان بحشد من الجراد الحى والهائج. ربما هذا أشبه بأن تكون الأحشاء ممتلئة بجراد حى وهائج. حسن، إننى شخص شديد الهوس. ظللتُ خمسة أيام مع شطر كبير من لياليها منهمكاً فى رسم الجراد بقلم الرصاص، بالريشة، بالحبر الصينى، وبتقنيات أخرى. رسمت صور نيجاتيف لجرادات، بكشط ورقة كرتون بالشفرة بعد أن سكبت عليها مسبقاً لطخة من الحبر الأسود. رسمت رأس جرادة كبيراً بالريشة والتظليل، وجرادة بالألوان الزيتية، سمينة وفى أوج طيرانها. وفى بطنها المنتفخ إلى حد الشفافية، هناك سبع جرادات صغيرة متقوقعة. إنها جرادة حبلى. وفى أثناء ذلك تصفحتُ مجموعة رسوم جراد فى كتاب تاريخ طبيعى ألمانى جميل وجدته لدى صديقى المكتبى، وانتهيت إلى شراء مجموعتىَّ حشرات محنطة بينها بعض الجراد، واحدة منها ضخمة الحجم.

وأخيراً قالت لى إيفا: «ماذا أصابك؟ إلى متى ستواصل رسم الجراد؟ ستصاب بالجنون» المسكينة لا تعرف أن لدى جنوناً متجذراً. ولكننى قررت فى سبيل سلامتها (وسلامتى) الذهنية، أن أستبدل الموضوع. وعلى كل حال، أظن أننى سأستبقى زوجاً من الجرادات للمعرض، على سبيل التكريم للسمرمر وآل الحسن.

بغداد، كعادتها، مشحونة بالإشاعات، مع أننى بعيد عن تلقيها بصورة مباشرة. مصدر معلوماتى الأكبر هو، كالعادة، بينتو. وفى بعض الأحيان فيسبيرك. وأنا أراه فى الأزمنة الأخيرة أقرب إلى الكآبة. فقاسم يندفع فى عملية ضخمة لإعادة التنظيم العمرانى، أو التحديث كما يرغب أن يسميها، وفق الأسلوب العسكرى. هناك كما يبدو مخطط لشوارع جديدة فسيحة ومستقيمة، وساحات مستديرة تصب فيها الشوارع العريضة، وجسور، وميادين. ومن أجل نقلها إلى حيز التنفيذ، يأتى جنود فى شاحنات، مسلحين ببنادق أوتوماتيكية، يحاصرون الأحياء المحكوم عليها بالاختفاء، ويمنحون الناس أربعاً وعشرين ساعة لمغادرة بيوتهم. التضرعات والشكاوى، المشاهد المؤثرة لنساء يبكين، يرتمين على الأرض، ينثرن حفنات تراب على رءوسهن، يرفعن صغارهن عالياً بأذرعهن؛ التماسات أرباب الأسر لا تفيد فى شىء. وعندما يرفعون أصواتهم يُضربون أو يعتقلون، كما يقال.

وفى اليوم المحدد، منذ الفجر، تأتى بلدوزرات ضخمة، وتقطع البيوت الطينية ذات اللون الأمغر كما الزبدة، تشق فراغات فسيحة مستقيمة حيث كانت أزقة متعرجة أو منحنية، وحدائق وراء أسوار، وبيوت من طابق واحد أو طابقين، بعضها قديم جداً. وفى كل الأوقات تظهر من بعيد سحابات غبار أصفر لها شكل الفطر تتعالى من المناطق التى تنطلق فيها عملية

التحديث. ويقال إن الأسر المنتزعة من بيوتها تُحمل فى شاحنات عسكرية، مع فرشها، وقدورها، وأثاثها القليل الذى تمكنت من إخراجه، ويتركونها خارج المدينة، بينما الصحافة الرسمية تتحدث عن برنامج ضخم لتعمير البيوت، وتؤكد أنه سيكون هناك بيوت للجميع.

الاستياء هائل، والإشاعات تئز نهاراً وليلاً. ولكن ليس هناك من يُشكى إليه. فالصحف والإذاعة والتليفزيون تترنم بأناشيد الإشادة بالثورة. ويدور الحديث، من جهة أخرى، عن عمليات عسكرية تأديبية شرسة ضد الأكراد فى مناطقهم الشمالية، وعن معارك يسقط فيها قتلى. والصحافة والتليفزيون يتحدثان طوال الوقت عن خطط هدامة خبيثة يدبرها الشيوعيون، تتمثل فى عمليات ذبح وتسميم للماء. وهذا لا يتعارض فى اليوم نفسه، وفى الجريدة نفسها، أن تظهر صور وأخبار زائرين سوفييت ومن بلدان اشتراكية أخرى فى الصفحة الأولى، يصافحون قاسم بابتسامات عريضة.

قبل أسبوع، وأثناء مرورى أمام مبنى المؤتمرات التابع لوزارة العلاقات الخارجية، وهو المكان الذى عُقد فيه مؤتمر الطلاب، رأيت مشهداً أثر فىَّ كثيراً. قبالة المبنى تقريباً يوجد مستشفى. بناء متداع، فيه شبه كبير من مستشفى تشيلى قديم. وتظهر أمامه على الدوام جماعات من الناس ينتظرون: نساء معهن صرر ولفافات، بعضهن يحملن أطفالاً بين أذرعهن،

وصبية صغار ضجرين يلعبون كرة القدم بأحجار على تراب الشارع، وكذلك بعض الرجال المقرفصين وأذرعهم إلى الأمام: إنهم الصبر مجسداً. ويكون هناك فى العادة أيضاً بعض المرضى، يخرجون إلى الباب ليتبادلوا الحديث مع ذويهم. إنهم هزيلون، لحاهم نامية، يرتدون نوعاً من الجلابيب الرمادية الطويلة، مربوطة بحبال عند الخصر، وجميعهم يضعون الكوفيات المعهودة على رءوسهم. على أذرع بعضهم أو أرجلهم جبائر جبس، أو ضمادات مفلتة، متسخون بالتراب وبالدم الذى يظهر عند رقابهم. إنه مشهد غير منشط أراقبه دوماً باهتمام، ولكن دون أن أتوقف كثيراً، بسبب الحياء والحذر. لقد رسمت بعض الرسوم التخطيطية الأولية للنساء والرجال الجالسين القرفصاء، إنها ملاحظات ذهنية أنقلها إلى الورق عند وصولى إلى البيت.

حسن، إننى أبتعد عن الموضوع. كنت أمرّ إذاً فى أحد هذه الأيام، فرأيت أحد المرضى، رجلاً أقرب إلى السمنة، له وجه أحمر ومنتفخ بصورة غير معقولة فى أحد جانبيه (الورم بنفسجى)، يتقدم بخطوات شبه مترنحة، ويجتاز الشارع باتجاه مدخل البناء الوزارى، حيث يوجد، كالعادة، جنديا حراسة يحملان البنادق. الرجل المريض أشورى، على الأقل هذا ما أظنه أنا الذى أمضى فى الشوارع بحثاً عن السكان الأوائل لهذه الأراضى. إنه يختلف كثيراً عن العرب الذين يشكلون الأغلبية السائدة، يختلف بهيئته، برأسه

الكبير وأنفه المعقوف، وأكاد ألمح اللحية المجعدة التى يمكن أن تكون له.

عند بلوغه منتصف الشارع ـ توشك سيارة أن تطيح به ـ يقول شيئاً بنبرة متضرعة. أحد الجنديين يصرخ به بصوت جاف وقاس. الرجل ألح وتقدم بضع خطوات أخرى باتجاه الجنديين. صرخ الجندى الآخر بغضب وصوب إليه بندقيته.

وعند باب المستشفى، حيث كان الناس يتكلمون بأصوات أقرب إلى الخافتة، ساد صمت مفاجئ. تقدم الأشورى خطوة أخرى ورفع يديه كمن يتوسل. أومأ الجندى الأول للآخر كى يخفض بندقيته. ثم اقترب بخطوات مطمئنة من الرجل الذى كان يتلعثم بخطبة شكوى مطولة، ورفع بندقيته بكلتا يديه، ممسكاً إياها أفقياً من السبطانة والعقب، وبادر إلى ضرب المتضرع بكل قوته فى منتصف وجهه، فى منطقة الأنف والفم بالضبط. ظل الرجل ذاهلاً، بيدين متهدلتين، وبدأ الدم يسيل منه بغزارة. كان الجندى يراقبه باهتمام. أعاد رفع بندقيته بالطريقة نفسها ووجه إليه، بنوع من الحذلقة العسكرية، ضربة ثانية مطابقة للأولى، ضربة عسكرية نظامية، وربما أقوى من سابقتها. أجل، لقد وقع الرجل الآن أرضاً. ظل هناك على ركبتيه ويديه، برأس منحن. ومن أنفه وفمه ينزل الدم وشىء آخر، ربما هى أسنان؟ دمدم بشىء آخر، وبعد ذلك، دون أن يحاول النهوض، استدار وتقدم وهو بذلك الوضع نحو المستشفى. كان

تقدماً بطيئاً جداً. يتوقف أحياناً، يهز رأسه ويُصدر نوعاً من السعال الأصم. ويخلّف وراءه على التراب أثراً من الدم. كان الجنديان يراقبانه. ومن ضربه قال شيئاً فضحك الآخر. ثم راح الاثنان يضحكان ويشيران بالإصبع إلى المؤخرة الضخمة للرجل الذى يمشى على أربع.

عندئذ سمعت ضحكات أخرى من الجانب الآخر للشارع، ورأيت أن المرضى كذلك وعدداً من زائريهم يضحكون من الضحية. النساء لا يضحكن. إنهن يحتفظن بجديتهن، وتتقدم إحداهن وتساعد الجريح الذى صار يبكى الآن ناشجاً، مثل طفل. تساعده على النهوض والمشى بصعوبة كبيرة، مستنداً إليها، نحو داخل المستشفى.

عدتُ إلى البيت مريضاً، ولكى أفرج عن نفسى أخبرت إيفا بما حدث. فبدأت ترتجف، وقالت لى: «علينا أن نذهب من هنا! إنهم متوحشون. لا يمكننا البقاء فى هذه البلاد». ومثلما نفعل عادة، أو مثلما أفعل أنا، شعرت بدافع فورى يدفعنى لأن أعارضها، ووقعنا فى جدل عشوائى، أظهرنا فيه خلافاتنا حول موضوعات متنوعة، وانتهيتُ إلى اتهامها بعدم فهم الشعوب المتخلفة التى لم تصل مع ذلك، بأى حال، إلى إفراط فى القسوة بالغة العلمية كالنازيين. وفى هذا السياق واجهتها بإحراق جان هوس، وحاميات براغ، وحرب الثلاثين عاماً، و«أخطاء» الرفيق ستالين، ومحاكمات براغ. وأخيراً، صفقةُ بابٍ منها، وصفقة

باب منى وخروجى إلى الشارع بحثاً عن هواء الليل البارد الذى يصير أقل برودة مع اقتراب الصيف.

قادتنى خطاى دون تدخل كبير من الإرادة نحو الفندق الذى يداوم فيه بينتو. لم أجده بين شلة أصدقائه المعهودة. لكننى التقيت بالمقابل مع ساشا، وكان يتناول قهوة ويبدو مغموماً جداً. حين رآنى أشرق وجهه ودعانى للجلوس إلى مائدته. تبادلنا الحديث حوالى نصف ساعة واقترح علىّ نزهة على ضفاف دجلة.

اقتادنى إلى جادة عريضة محاذية لضفة النهر، فيها أندية ليلية، وفنادق، وبيوت بها شَبَهٌ غامض بالبيوت الكاليفورنية، محاطة بحدائق، وتتجه نحو النهر. كنا السائرين الوحيدين على الأقدام، وقد أُصبنا بالذعر لأن السيارات الضخمة الفارهة - بالرغم من أننا كنا نمشى قريباً جداً من الضفة - كانت تخرج، بأذيالها غير المعقولة، بسرعة كبيرة من الظلمة، وتكاد تلمسنا بطريقة تبدو متعمدة. ثم تتوقف بعد ذلك (وكان هذا مشهداً مكرراً) أمام المحلات الفاخرة. فيهرع بوابون ببدلات إمبراطورية مستعجلين لفتح أبواب السيارات كى يخرج منها، وسط الضحك، ضباطٌ عسكريون، ونساء بأثواب طويلة ومعاطف فراء (على الرغم من الحر الرطب السائد) ورجال سمر يرتدون وفق الإتيكيت، وجميعهم تقريباً يضعون وردة بيضاء فى عروة السترة، كما فى فيلم هوليودى.

عند أول الشارع، أرانى ساشا تمثالاً لم أكن أعرفه، للشاعر الوطنى أبى نواس، أشبه بجان نيرودا،

يجلس وفى يده كأس. قلت له إننى أجد غرابة فى تكريم الخمر فى بلد إسلامى.

«ما الذى جعلك تعتقد أنه خمر؟» سألنى فيسبيرك بمنطق مهندس.

«صحيح، ليس لدى دليل فى هذا الشأن. ولكن، هل تعتقد أنهم كانوا سيكرسون له تمثالاً لو أنه يحمل كأس ماء؟ وهل يمكن، عموماً، تصور شاعر لا يشرب الخمر؟ أنا أرى أنه من الممكن وجود شاعر chantado وقد عرفت بعض هؤلاء، ولكن ليس غير كحولى»

استغرق فى تحليل المسألة ذهنياً. وبعد ذلك قال لى: «أمر صعب، بالرغم من أن البعض يؤكدون أن القبلات الأنثوية هى خير من».

كنت ساهياً قليلاً، فقلت له، لأنى لم أفهم: «ماذا، ماذا؟».

«خير من القبلات» أجابنى.

«يا للغرابة» قلت له (لمجرد الإزعاج)، «إنه عنوان رواية لمانويل روخاس».

«غير ممكن»، قال. ثم أضاف «إنها لسليمان». من «نشيد الإنشاد»

لم ألح على الموضوع ومشينا بصمت بضعة أمتار. وفجأة، وجه إلىّ نظرة جانبية وسألنى: «وما معنى chantado لقد عرفت الكلمة يوماً لكننى نسيتها».

chantado «هو من يقوم بفعل الـ chanta من يتوقف فجأة. وتقال لمن هو مفرط فى تناول الشراب، ويمتنع عنه فجأة لأسباب صحية، أو زوجية أو أسباب أخرى»

أخرج فيسبيرك مفكرة صغيرة من جيبه ودوّن التعريف، من أجل استخدام مستقبلى. وقد قدرت روحه العلمية.

وفى أثناء ذلك، دون تنبيه مسبق، انحرف باتجاه النهر. كان هذا الجانب من الضفة مرتفعاً ويبدو أن فيه قطعاً شاقولياً، لكننا عند اقترابنا من الحافة رأينا أن هناك فى الأسفل، بجانب الماء، نوعاً من الشاطئ الترابى القاتم، يعج، كما بدا لى، بكثير من الناس. وتطلق الدخانَ شموعٌ من الشحم مشتعلة فوق مناضد طويلة خشنة، وتظهر فى الظلمة أشباح تذهب وتجىء وأخرى منحنية على صف من المواقد المرتعشة التى يُطهى عليها شىء ما.

«هلم بنا» قال لى ساشا بثقة كبيرة وانطلق يمشى. وعلى بعد نحو كوادرا أو أكثر قليلاً وجدنا انهداماً فى حاجز الضفة يسمح بالنزول إلى تلك الموائد الطويلة والمواقد.

«ما هذا؟» سألته بصوت خافت.

«سمك» أجابنى، «إنهم يُحَضِّرون المسكوف».

تذكرت أنه اسم سمك، نوع من غريان البحر الخاصة بنهر دجلة التى تلقى إقبالاً كبيراً من السكان المحليين. لقد تذوقتها فى حفل استقبال زعيمى عبد الكريم قاسم، وكذلك فى بيت آل الحسن على ما أعتقد. اقترينا من أحد المواقد، ورأينا أن القائم عليه يجهز سمكة تزن حوالى كيلوجرام ونصف، أو أكثر، فوق منضدة. بسكين صغيرة جداً، ذات حد مرهف،

تكاد تكون مبضع جراحة، قطع رأس السمكة بسرعة كبيرة، وشقها من منتصفها وانتزع منها الأحشاء. وبعد ذلك، غسل بماء وافر، من دلو لديه، الشكل البيضوى الكبير الذى حصل عليه ـ أبيض من الداخل، ورمادى قاتم من جهة الحراشف ـ وغرس بعد ذلك، قريباً من زعنفة الذيل (التى استبقاها)، وعند مستوى الزعنفتين الأماميتين قضيبين مستقيمين ورفيعين من الخشب. ثم أمسك بالقضيبين، ورفع السمكة المفتوحة وتأملها كمن يقرأ جريدة المساء. بعد ذلك غرز القضيبين فى التراب الرطب المختلط بالرمل، بحيث صار الجانب الأبيض من اللحم باتجاه لهب الموقد، ودقّ القضيبين بحجر إلى أن ثبتهما بصورة جيدة. بدت لى العملية بمجملها أثرية، كأنها عرض أكاديمى لتقنية تعلمها الإنسان قبل عشرين قرناً، كى لا أبالغ أكثر. وقفنا نتأمل السمكة. راحت ألسنة اللهب تلعقها، وربما تحرقها قليلاً. وكانت تنتشر فى الجو روائح مختلطة ولم تكن لطيفة كلها (فهناك فى العمق رائحة نتانة وحليّة) وكنا فى الوقت نفسه نشعر بصف المواقد الطويل أكثر مما نراه. نحو ثلاثين أو أربعين موقداً على امتداد النهر الأسود، غير المرئى تقريباً، والصف الآخر الموازى، وهو أعلى قليلاً، من الشموع المدخنة، والشبح الذى يبدو كصورة نيجاتيف لشخص يمر أمام النار، أو آخر يجلس القرفصاء ويأكل، ظاهراً فى الظلمة بفضل قميصه الأبيض وبياض عينيه أو أسنانه.

توجه صيادنا إلينا وقال لنا بضع كلمات مبهمة. فرد عليه ساشا بعربيته ذات اللكنة التشيكية؛ لكن الرجل فهم ما قيل له فوراً ومدّ يده اليمنى ليتلقى النقود.

«سنأكل مسكوف» قال فيسبيرك.

راح الصياد يُسعّر النار بقطعة من الكرتون. وتوصل إلى تسريع الاحتراق، وبصورة مفرطة، أصابتنا معها سحابة من الرماد بما يشبه العمى. وبعد بضع دقائق من التهوية المكثفة، سحب السمكة من صارييها بحركتين أو ثلاث حركات بارعة، وألقى بها مباشرة إلى الموقد، حيث كان الجمر قد تشكل. سّالت من المسكوف بعض العصارة، وبدأ بالتقوس من ظهره وهو معرض للحر الشديد. أدركت أن الحراشف السميكة قد تحولت إلى مشواة، لكننى خشيت على أى حال أن تتحول سمكتنا إلى فحم. لم يكن ثمة خطر من هذا النوع. انتظر الصياد الوقت الضرورى وبعد ذلك، بإطلاق كلمة واحدة مدوية مثل سوط، قذف السمكة من وراء ظهره لتحط على المنضدة الطويلة، وانقضضنا نحن على السمكة. كانت لذيذة جداً. لحم أبيض، كثيرة العصارة، بحد أدنى من الطهو، ما هو ضرورى بالضبط. دون أية إضافات، بما فى ذلك الملح. لم يكن ينقصها شىء. حتى طعم الدخان فيها كان لذيذاً. رحنا نأخذ قطعاً كبيرة باليد ونأكلها بملء الفم، متبادلين صخب سعادة حيوانى.

ولكن لا وجود لسعادة تدوم طويلاً، كما هو معروف.

سُمعت فجأة صرخة، وصيادنا الذى كان مقرفصاً بينما نحن نأكل، نهض واقفاً، وتقدم بضع خطوات باتجاه النهر، وراح يتطلع بثبات إلى المياه المظلمة. سُمعت أصوات مختلطة، ركض أحدهم، وبدا أن صوتاً ذكورياً آخر يُصدر الأوامر. لمحنا على بعد حوالى خمسين متراً منا جماعة تدفع زورقاً صغيراً على الرمل باتجاه الماء، وفى الوقت نفسه تقريباً سمعنا بوضوح ضجة هدير. ارتفعت وتيرة الأصوات، كأنها تعرب عن آراء متناقضة وانفعالات.

كان ساشا يراقب ذلك كله بتركيز هائل، ولكننى لا أظن أنه استطاع رؤية شىء أكثر مما رأيته. «ما الذى يحدث» سألته بصوت خافت. فأجاب هامساً: «لست أدرى. هناك شىء فى الماء وهم يحاولون إخراجه».

كنت أشعر بقلق متعاظم، مع أننى لم أعرف حقيقة ما يحدث. سُمعت أصوات أقوى، مذعورة. ويبدو أن أحدهم طلب خفض وتيرة الصوت، وبدأ يُسمع شىء أشبه بأسئلة وأجوبة خفيضة جداً. وتلا ذلك من جديد صخب ماء يتموج، وحزمة زبد تلاشت فوراً جعلتنى ألمح الزورق فى الماء، ورجلان يجدفان نحو الظلمة الأشد كثافة فى منتصف النهر. وعلى الضفة الأخرى للنهر كانت تُلمح بعض الأنوار الباهتة. وبين حين وآخر يجوب سطح دجلة انعكاس وميض متحرك.

استدرت لحظة مولياً ظهرى للنهر، ورأيت على ارتفاع كبير، من خلال جدار زجاجى، الصالة المتوهجة لمطعم فاخر، يتحرك فيه ندل بسترات حمراء بين موائد عليها شراشف بيضاء، يجلس إليها رجال ونساء بملابس السهرة.

ومن وراء ظهرى سمعت صوت فيسبيرك يقول: «هناك ميت. ثمة شخص ميت فى النهر».أدرت رأسى وكان المشهد قد اختلف كثيراً، بحيث بدا كل شىء غير واقعى. أربعة أو خمسة رجال، اثنان منهم شبه عراة ويقطر الماء منهم، يحملون جسداً أبيض شبه مغطى بقطعة قماش. استطعت أن أرى أنه رجل شاب، له لحية. فكرت فى أنه يشبه المسيح. كان ذلك كله يظهر بصورة متقطعة، على ضوء مرتعش من شموع يرفعها بعضهم، ويحيطها كل منهم براحة يده كى لا تنطفئ. وأكثر من الرؤية، كان المرء يعيد بناء الصور أو يتخيلها انطلاقاً من أجزائها المفككة.

قال لى ساشا بحذره التشيكى: «من الأفضل أن ننصرف من هنا» وسار قدماً. كنت أريد أن أعرف وأن أرى، فوق ذلك، المزيد. لكننى بدأت الابتعاد ببطء ـ وأنا أنظر إلى الوراء أكثر من الأمام ـ عن المكان الذى تركوا فيه أخيراً الجسد الميت. ظل محاطاً بتلك الشموع بائسة الإضاءة، فوق إحدى المناضد الطويلة التى تستخدم لتنظيف السمك وأكله، ولأغراض أخرى، مثلما تأكدتُ من ذلك الآن.

صعدنا مجدداً إلى شارع الأندية الليلة. كانت تُسمع موسيقى عربية رتيبة وداعرة. مرت بجانبنا سيارة ليموزين لم تكن تصدر عنها وهى تتقدم أية ضجة أكثر من فرقعة حسية من احتكاك العجلات على الأسفلت وخرخرة عميقة لهر سعيد. ومن بوابة أحد الفنادق جاءت ضحكة امرأة. فبدا ذلك كما لو أننا لسنا فى عالم آخر، وإنما فى كوكب آخر.

بعد ذلك، حين صرنا فى شقة ساشا الصغيرة، تناولنا قهوة على الطريقة التركية، وتبادلنا الأسئلة حول من يمكن أن يكون الميت، وعلقنا على سلوك الصيادين وكل أولئك الناس الذين كانوا يتحركون على ضفة النهر، بين الظلال. لماذا كانوا يبدون مذعورين إلى ذلك الحد؟ ما الذى يحدث؟ فكان فيسبيرك يهز رأسه، ويقول بين حين وآخر «to se mi nelîbî»(*) هذا التعبير التشيكى الذى كان يبدو لى مضحكاً من قبل. تبين لى الآن أنه مثير للقلق. وأخيراً، ودعته وعدتُ إلى البيت.

وفى اليوم ما بعد التالى فقط، علمتُ ـ نشرت ذلك الصحف، وأخبرنى به بينتو ـ أن الجثة التى عُثر عليها فى النهر هى لأحد قادة اتحاد المعلمين، وهو شيوعى. كان الجسد مصاباً بعشرين طعنة أو أكثر. وكان الشاب (وهو فى الرابعة والعشرين) قد اعتقل، حسب قول الجيران، على يد دورية عسكرية بالقرب من بيته. لكن هيئة أركان الجيش قالت فى تصريح لها

(*) «هذا لا يعجبنى».

إنه ليس لديها أى علم أو مشاركة فى الواقعة؛ وبالتالى فإن كل شىء آخر يقال أو يشاع إنما يهدف إلى النيل من سمعة الدولة والثورة العراقية. وأعلنت الحكومة من جانبها عن إجراء تحقيق شامل يتولاه القضاء العسكرى.

لم يكن من السهل علىّ أن أُبعد من ذهنى صور النهر، والليل، والمسكوف، والجثة، وشارع الأندية المترفة، لكننى بدأت بإجراء بعض الرسوم الأولية لكل ذلك. وكذلك لحادثة الأشورى قبالة المستشفى. وهكذا أتحرر من الضيق والغم؛ لأن الموضوعات تصبح موضوعية، وتتحول إلى مسألة جمالية، وأكاد أقول تقنية، ولا أعود أشعر كما فى ليالٍ كثيرة حين أستيقظ فجأة فى ساعة من الليل، بأن عقب البندقية يلطمنى على أنفى وأسنانى، وأننى أنا من يتقدم على أربع بينما تسقط الأسنان مع الدم من فمى، وأشعر بطعم الدم ممزوجاً بالرائحة المعدنية للبندقية وبالغبار. وفى لحظة أخرى، أو فى الوقت نفسه، أكون أنا من يخرجونه من الماء متيبساً، مبللاً، ومغطى بجراح لم تعد تنزف.

هنا أتوقف. عزيزى جوزيف، لدى رغبة كبيرة فى رؤيتك. لا تخلف الميعاد. أنتظرك يوم ٢٢ فى براتسلافا. Do svidenia هل تُكتب هكذا؟).

لك تحيات هـ.

ملاحظات على الرسالة التاسعة

لقاؤنا في براتسلافا جرى مثلما هو مخطط له. أمام دار لجنة وطنية يعتز بها البراتسلافيون، مع شك في أنها مبناهم الأنتيكا، هم ليس يملكون ولو من بعيد مبان تاريخية كبراغ ومدن أخرى. عناق رسام وأنا، تحت مطر ربيعي أكثر دافئ وليس أقل تبليلاً. «أكاد لا أعرفك، عودة شبابك مبالغ بها» كانت هذه أول كلمات هويركيو.

لن يكون صدقاً أن أقول أنا أيضاً للرسام إننى لم أتعرف إليه، ولكن التغير كان بارزاً. في مكان أول، سمرته الفاقعة، هي دون شك نتيجة من شمس بلاد ما بين نهرين قوية. وهذا أضاف سنوات إلى عمره بطريقة ما. أم يكون ما عاشه في شهور قليلة هو سبب هرمه؟ له شعر طويل جداً كثيراً، سبط، أشبه بلبدة، وشارب رفيع. لهجته هندية أمريكية تخرج بوضوح. يبدو، من جانب، واثقاً من نفسه؛ لكنه في الوقت نفسه قلق، شيء من عصبية لم يكن يبدو عنده من قبل. مزاجه الخاص يحافظ عليه، لا أعني طبعاً أنه مرح.

ولكن الترتيب ضروري. أول شيء تقديم جرد لقائنا الموسع وحوارنا. يجب تسجيل تعليق موجز على رسالة من فيينا في ١٦ يونيو ١٩٦١ الوحيدة المؤرخة بين مراسلاته).

لا يغيب مزاج ساخر، ولكن في وقت نفسه، وأكثر من رسائل أخرى، تكثر في هذه رسالة صور قاتمة ووقائع عن تحديث عمراني وحشي، ورجل مضروب وجسد مستخرج من نهر، لابد لي أقول، هزتني عند قراءة الرسالة أول مرة، وهزتني أكثر عندما أعدت القراءة. أهي تخيلات لتجارب مستقبلية خاصة به؟ أهي نهايته الخاصة؟ آي، لا جواب لدينا.

من وجهة نظر أولية أو نية في إرسال هذه الرسائل إلى الموقرة جريدتكم تقودني، يجدر أن أُبرز ما في رسالته يقول الرسام حول منشأ على الأقل أربع من رسوم متضمنة في معرض سانتياجو سيقام في ١٩٦٢ «صورة سَموم» (وهي واحدة من لوحات قليلة يمتدحها ناقد جريدتكم سيد مالالايت)، و«جرادة حبلى» (محقرة جداً من الناقد مذكورنفسه)، و«إهانة» (يتجاهلها الناقد) و«سمك دجلة» (متجاهلة).

وكما هو معروف، لوحة «إهانة» هي عن حالة «أشوري» معاقب من جندي (انظر رسالة رسام رقم٩) المعالجة مستوحاة من الحفر الغائر الأشوري، الشخوص جانبية تمثالية، شبه جامدة. جندي يمسك بندقية بيديه اثنتين. ذراعان مشدودان. المتوسل يبدي ذهولاً من ضربة أولى تلقاها للتو، لكنه لم يسقط

أرضاً بعد. يبرز تلون محمص فى الصدغ. هناك غموض فى موقف شخصيات، أراد هويركيو أن يهرب من واقعة مباشرة. أتصور، دون نية فى الإساءة، أن السيد ناقد لم يتوصل إلى فهم كامل لمغزى هذه لوحة عظيمة (٢,٤٠×٢,٦٠م) . الشخوص مرسومة بشكل إجمالى فى البعد الثانى هى لمرضى المستشفى وزوار من ذويهم. مريض نحيل برأس مضمد، يضحك بأسنان قليلة. امرأة بثياب سوداء، وتوجه نظرة سوداء جدية. المجموع يبعث فى النفس قشعريرة قوية جداً.

«جرادة حبلى» هى لوحة واقعية، بل طبيعية فى تحقيقها، ولا شك أنها سوريالية فى مفهومها. تؤثر جرادات صغيرة محشورة واحدة بجانب أخرى، بقوائمها مطوية وأعين حيوية جداً، فى داخل بطن، وانعكاس ظل جرادة أم ضخمة فى طيرانها، على ارتفاع عالٍ، على المشهد الصحراوى. ليس من السهل استخلاص عبرة اجتماعية - سياسية من هذه لوحة بارزة؛ ولكن، هل ذلك ضرورى؟ هل متطلبات أيديولوجية، وانصياع لأهداف جماعية، يستدعى تجاهل الوهم، التخيل، وعرض رمزى لفنانين مهووسين، المفهوم الحدسى لواقع ذاتى يكشف، فى معظم أحيان، بعمق أكبر واقع موضوعى؟

«صورة سَموم» هى، فى فهمى، عمل بديع، مدخل سيكولوجى لحصان استثنائى، مؤنسن ليس بنية متعمدة من فنان بقدر ما بسبب تجربة حيوية للمرسوم نفسه، لأنه لا يوجد ما هو أبعد عن الطبيعة

الحيوانية من حياة متطلبة وحتى فاخرة لحصان سباقات، مدلل كرياضى عظيم أو كفنان استعراض، وعروض، لا يمكن أن يكون غريباً عنها، عن مُثل مادية موضوعية - فوز، تصفيق، جوائز - تكون نتيجة محتمة أنسنة الحيوان. استطراد متحذلق اعذرنى عليه.

لوحة «سمك دجلة» إنها دراسة أراد الرسام تقديمها منفصلة رغم أنها جزء، دون شك، من لوحة أكثر شمولاً واتساعاً. لا تفتقر إلى مزايا خاصة. وحول هذا موضوع سأعود.

جالسان وجهاً لوجه إلى منضدة الفندق، بعد البدء ببضع كئوس فودكا، «لمقاومة تأثير رطوبة»، يقول رسام، وكل واحد منا أمام إبريق رائع جداً من بيرة بيليسنكا، وعلينا يخيم صمت طويل، لا يدرى واحد أو آخر أين يبدأ.

«حسن»، قال هويركيو أخيراً «كيف حال روزينا؟ كيف تمضى الأمور؟»

قلت له جيدة، كل شىء على ما يرام. روزينا فى شهر سابع أو ثامن تقريباً، وحمل هادئ، عادى. وأسمع برأس منحن توصية بحمل تحيات خاصة إليها. وبعد ذلك صمت من جديد.

ضحك من بين أسنانه رسام: «يا لهذا أمر. كنت أظن أن موضوعات كثيرة نتحدث فيها ولا يخطر لى الآن شىء. أظن أن كلمات قليلة بيننا كافية. أريد أن أقول هذا فقط: أنا سعيد جداً بما حدث لك، ولروزينا، وللطفل الذى سيولد. ونقطة»

أحسست بصعوبة التحكم بانفعال. لا أتذكر تماماً بماذا أجبت، ولكنه كان بطريقة ما تكراراً لكلماته. هويركيو استدعى النادل وطلب كأسين آخرين فودكا، من أجل نخب، كما قال، نخب مستقبلى مع روزينا زائد ابن، ومستقبل هو مع إيفا، وربما مع طفل أيضاً فى أحد أيام. شربنا ولم نعد إلى حديث فى الموضوع.

لكننا تحدثنا فى موضوعات كثيرة أخرى. وامتد حديثنا على أقل عشر، إحدى عشرة ساعة أخرى، حتى ساعتين بعد الفجر، فى مقهى فندق، وبعد ذلك ونحن نتمشى على ضفة الدانوب (لم يتواصل هطول مطر، وتمكنا استمتاع بسماء أزرق وغروب جميل)، وفى حانة شربنا النبيذ أبيض المحلى، ومرة أخرى رجعنا إلى فندق. نمنا أظن ليس أكثر من أربع ساعات، لأن هويركيو يجب فى الساعة ٦,٣٥ يركب قطار إلى فيينا، وأنا بعد قليل من ذلك إلى براغ، كى أزور ريبيكا، وتسليمها رسالة من إيفا أحضرها رسام، وفى اليوم التالى أعود إلى أوستى.

أية موضوعات تحدثنا؟

هويركيو تحدث أولاً عن علاقة هو جيدة أساساً، محبة، دافئة مع إيفا، لكنها لا تخلو من مناسبات عكرة. وهذه سببها:

أ) طبع خاص الرسام فنى، مشروع حياة لديه يسير بمنطق داخلى خاص لا يرتبط باعتبارات تعايش وأحياناً متصادم مع مؤسسة زوجية.

ب) وحدة نسبية، أحياناً قصوى، لإيفا بسبب كونها شبيبة (٢٣ عامًا)، وعدم خبرة أو صعوبة فى تفهم مسوغات فنان، تتصرف بفظاظة حيال سلوك غير منتظم للفنان زوج هى.

ج) عزلة كليهما عن مجتمع إسلامى حيث يسكنان، ربما أكثر حرجاً بالنسبة إليها بسبب محدودية أكبر مفروضة على النساء، وانعزال مشترك بسبب اختلافات ثقافيات غير صغيرة بين فتاة تشيكية ذات تقاليد يهودية، لا تعرف عادات بلدان أخرى مختلفة، وتشيلى غريب الطباع من أمة مابوتشية.

«إننى أصم أبكم فى بغداد» يقول لى رسام، «وكل يوم، بدل فهم أكبر، أفهم أقل. مؤخراً اكتشفت أن يوم الأحد هو يوم عمل مثل غيره من الأيام، والجمعة بالنسبة لهم هو الأحد. ولا أعرف كذلك فى أية سنة أعيش».

«لماذا؟ إنه العام ١٩٦١» أقول أنا.

«أجل، ولكن أى سنة هجرية؟».

وشرح لى، بتعليمية أذهلتنى، أن التقويم الإسلامى يبدأ من هروب محمد من مكة إلى المدينة فى عام٦٢٢ وقد أطلق الخليفة عمر على ذلك تسمية عربية: هجرة. وبدأ حساب تقويم هجرى يوم الخميس١٧ يوليو ٦٢٢ عند غروب الشمس. سنوات إسلامية هى قمرية، لهذا ١١ يوماً أقصر من سنة مسيحية.

«من السهل تحويل تقويم إسلامى إلى مسيحى»، قال لى هويركيو بابتسامة بعيدة الغور.

سألته: «وكيف ذلك».

«يكفى أن تضرب السنة الإسلامية بـ ٠,٩٧٠٢٢٤ وتضيف إليها ٦٢١,٥٧٧٤ والرقم الصحيح يشير إلى السنة، والرقم العشرى، إذا ضرب بـ ٣٦٥ يشير إلى اليوم تقريباً»

«وهذا تسميه سهلاً؟ إنه أحاجى بالنسبة إلى. ولكن كيف نعرف عكس؟»

«عكس يا بروفيسور؟ ما الذى تعنيه؟»

«عكس يعنى ماهى سنة تقويم إسلامى التى تتوافق مع سنة نعيشها؟»

ابتسم هويريكيو واحدة من ابتساماته التى لا يمكن تفسيرها أحياناً، والمعدية دوماً، حتى دون معرفة السبب. وقال أخيراً: «حسن، فلنحاول أن نعرف فى أى سنة هجرية نحن. فإذا كان العام ٦٢٢ هو السنة الأولى من التقويم الإسلامى، فهذا يعنى أنه يجب أن نطرح٦٢٢ من ١٩٦١ . فيعطينا١٩٦١ . ولكن ليس هذا هو كل شىء. لا بد لنا من استخدام المعادلة التى أخبرتك بها، ولكن مقلوبة».

«كيف مقلوبة؟»

«بدل الضرب القسمة، وبدل الجمع الطرح»

امتلأ منديل ورقى بأرقام بسرعة كبيرة. وأخيراً قال: «العام١٩٦١ يجب أن يكون، بصورة تقريبية، ولا

أستبعد احتمال الخطأ، هو العام ١٣٨٠ فى التقويم الإسلامى. الفرق بين التقويمين الذى بدأ سنة ٢٢٦ تقلص إلى ٥٨١ سنة».

«نظرياً إذاً، إذا كان فرق يتقلص مع مرور الزمن، ستأتى لحظة يتوافق فيها تقويمان»

«باهر يا بروفيسور! يجب أن يتوافقا فى السنة والشهر واليوم. أظن أن أحد علماء الرياضيات فى معهد ماساشوستيس للتكنولوجيا قد حسب تلك اللحظة»

«وماذا سيحدث عندئذ؟»

«ماذا تظن أنت؟ أنا أرى أنها ستكون نهاية العالم» وضحك بسعادة كبيرة معدية، مثل صبى رقيق عينين، وأنا كذلك ضحكت، ونادل مقهى، وحتى زبائن على الطاولات الأخرى ضحكوا كذلك.

طويلاً تحدثنا عن سياسة عراقية معقدة. هو يفكر أن وضع أكثر وأكثر تردياً لحكومة قاسم ثورية نتيجة أخطائه هو نفسه السياسية. يقمع شيوعيين من جهة، وأكراد من جهة أخرى، وكانا حلفاءه سابقاً. لكنه لا يكسب مساندة ناصريين ولا اشتراكيى حزب بعث. إصلاح زراعى فشلت بسبب شيوخ مدعومين من قادة عسكريين محليين، ويتواصل نزوح فلاحين إلى بغداد ومدن أخرى. يمين تقليدى يتقبل هذا كله وجماعته فى الحكومة تنصح بمثل تلك إجراءات، لكنهم لا يغفرون إعدام عائلة ملكية وينتظرون لحظة مواتية لعودة إلى سلطة. شركات بترول إنجليزية وأمريكية

تسعى إلى حل مع قاسم، لكنها لا تثق به أيضاً. ويقال إن وزير التربية يتآمر مع أمريكيين. الجميع يتآمرون وأخيراً لم يبق للجنرال إلا دعم بلدان اشتراكية.

«ما الذى سيحدث إذاً؟ هل ستأتى ثورة جديدة، انقلاب عسكرى؟»

«أجل، هذا ما سيحدث فى الغالب، الانقلاب. وسيسل دم كثير»

حدثنى هويركيو عن طبع ناس عنيف، نتيجة أوضاع اجتماعية وتاريخية، وتقاليد، ولكن نتيجة مناخ أيضاً كما يبدو. وهذه نظرية صديقه بينتو.

«ريح الشمال تهب من مايو حتى أكتوبر، طوال الوقت تقريباً. إنها الريح نفسها التى تسمى بالإسبانية سِموم. وهو اسم الحصان. وقد فوجئت بمعرفة أن اسم عزيزى العجوز سَموم يعنى بالعربية ريح الشمال أيضاً، ويقول بينتو إن هذه الرياح تحمل معها حرارة الصحراء وجفافها وتجعل الناس معكرى المزاج، مندفعين. عندئذ من السهل قتل ناس. خطر كبير. فى بغداد، الحر فى يوليو يصل إلى ٤٥ درجة. ولن نتحدث عن عواصف رملية».

وقال لى إنه منذ مايو فى هذه السنة يوجد حر من صعب تحمله. إيفا عندها إجازة فى يوليو، وستهرب إلى براغ، لكنهم عرضوا عليها تجديد عقد عملها، وقد وافقت. عليها أن ترجع فى سبتمبر. لم يتضح لى إذا كان هويركيو سيأتى معها أم سيقوم برحلات أخرى. تحدث عن معرضه وحنينه إلى تشيلى. ولكن بدا أنه يخفى شيئاً.

فى ڤييقا، فى جاليرى هاوزر، يحتفظون حتى الآن بـ ١٨ من لوحاته الرئيسية، ستكون أساس المعرض. وقال إن ثلاثاً من لوحاته سابقة بيعت بسعر جيد. التاجر يعامله بلطف كبير ويدفع له مبلغاً محترماً. خمس من لوحاته عُرضت فى مارس فى معرض جماعى لفنانين من بلدان «إكزوتيكية» (هذا يجعله يضحك) والناقد البارز فى جريدة «ڤيينر هندلسبلات» السيد أوتو جلوكليخر خصه بإطراء حماسى.

طويلاً تحدث عن عمله المعقد، الأكبر من حيث حجم، «ليل على دجلة» ويتصوره فى ثلاثة مستويات مختلفة: مستوى أعلى لفنادق كبرى «دى لوكس؟» ومستوى متوسط لطريق وعليه السيارات يركبها عسكريو البلاد وأغنياؤها، وفى مستوى سفلى النهر وصيادون ومواقد وأضواء شموع وجثة طافية لرجل بلحية يشبه مسيح.

«إنها بكل تواضع، تشبه إلى حد ما فكرة الجريكو فى دفن كونت أورجاز».

يجب أن أعترف بجهلى. عندما سألته عن مضمون هذه لوحة، اقترح علىّ أن أراها فى كتاب يكون جيد الطباعة. لم أحصل منه على أكثر من ذلك فى هذا مجال، لكن موضوع هذه اللوحة وصعوبات لم يتجاوزها بعد، تتسلط على عقله.

الوقت بعد منتصف ليل، عندما تثاءبتُ مرتين واقترحت ذهاب إلى نوم، تكلم بحنين غريب عن طفولته بالقرب من مدينة ترايجين، فى جنوب تشيلى.

حدثنى عن تعدد زوجات تقليدى عند أسر مابوتشية، وتحدث بمحبة كبيرة عن أمهاته ثلاث، اللواتى يحببهن بالتساوى، مثلما يحبهن الـ «بارفادا» الكثيرون، وهذه الكلمة التى استخدمها تعنى الأخوة والأخوات من مختلف الأعمار. فعندما كان يقع طفل صغير على أرض ويتعرض لصدمة تسبب له البكاء، كانت تواسيه، تقبله، تُنهضه عن الأرض، تنظفه أو تغسل ركبته الصغيرة المخدوشة أقرب «ماميتا» منه. وكانت الأمهات الثلاث محبات بالتساوى وطريقتهن فى المواساة فعالة. وأكد أنه ليست مشكلة أن تكون حملت الصغير المتألم متأكدة من أنها هى أو أم أخرى من أنجبته.

«وتقول لى إن الأم واحدة فقط!» قال هويركيو مبتسماً، وأضاف: «أنا لم أعرف قط ابن أى واحدة منهن، وعندما كنت صغيراً لم يكن ذلك مشكلة على الإطلاق. لم أكن أفكر فى هذا أمر. بعد ذلك غادرت للدراسة ولم أرجع بعدها. ما الذى تراه حدث لأمهاتى؟»

أخيراً ذهبنا للنوم. كنت شبه نائم قبل ذلك، وكان صوت هويركيو يصلنى غائماً. لدى انطباع أنه قال شيئاً مهماً أردت التشبث به، لكن النعاس هزمنى ولم أستطع تركيز. وفيما بعد، حاولت مرات كثيرة استعادة ذلك الشىء المهم. فى وعيى الباطن شىء ينبهنى إليه، لكنى لم أبدأ أستطيع تذكره.

بضع دقائق بالكاد نمت عندما رن تليفون وصوت أنثوى تمنى لى صباحاً سعيداً بالسلوفاكية وقال لى،

بفظاظة كثير: Dusenka zlata» (هذا يعنى «روح ذهبية» إنه موعد استيقاظ يا عزيزى .«بعد دقائق قليل اجتمعت مع رسام فى بهو استقبال، وكل منا يحمل أمتعة سفره، وبعد قهوة سيئة مع كأس من سليفوفيتشى (إلحاح من رسام)، ركبنا تاكسى إلى محطة. وكانت لحظة اختارها هويركيو ليسلمنى مغلفاً سميكاً، أردت رفضه. لكنه قال لى بحزم، وغضب تقريباً: «ليس من أجلك فقط. يجب تأخذه».

باختصار، الوداع كان سريعاً وتواعدنا على اللقاء قريباً، إما فى براغ فى يوليو أو أغسطس، أو فى مكان آخر. ولم أكن أعرف، بوضوح، أنه اللقاء قبل أخير بيننا.

فى قطار، كنت فى قسم أول من الرحلة المسافر الوحيد فى مقصورة وهكذا استطعت أن أتأكد، بذهول وخوف، أن فى المغلف كمية هائلة بالنسبة لى من خمسة وعشرين ألف دولار، مبلغ خيالى لن أرى مثله أبداً وبالتأكيد لم أر من قبل هذه أوراق بنك خضراء. وكانت فى المغلف رسالة قصيرة تقول: «بروفيسور: استعمل هذا المبلغ كما تشاء، من أجل روزينا، والطفل، وبيتك، والحاجات العائلية. وأرجوك أن تشترى، باسمى، هدية جميلة للسيدة ريبيكا. وأنصحك عموماً بالشراء من توزيكس، لأن تحويل النقود هناك أفضل، والمجازفة أقل. لك عناقى.

هـ

إنقاذ المخطوطة

قد يبدو الأمر عبثياً، وهو كذلك حقاً. كثيراً ما تساءلت لماذا، وكيف، ومن أين وجدت الوقت للتحدث مع رسامين ونقاد حول هويركيو الغامض فى النصف الثانى من شهر يوليو والأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩٧٣ عندما كان الانقلاب العسكرى يتقدم عدواً. ربما كانت طريقة للهروب من الواقع القاسى. إنه دواء يشكل بديلاً شرعياً لليبريوم.

أيًا كان الأمر، فى الثالث والعشرين من أغسطس (اليوم الذى قدم فيه الجنرال براتس استقالته، ليس من منصبه كوزير للدفاع فقط، وإنما من الجيش كذلك، فى رسالة لها وقع مأتمى)، كنت أراجع، فى وقت متأخر من الليل، ملاحظاتى حول الرسام أليرو ماتشوكا، وأفكر مرة أخرى فى الطريقة التى سأستخدم بها المخطوطة. وسأورد هنا، فى تحرير موجز، ما قاله لى مَن قابلتهم، وبعضهم عبر الهاتف.

نيميسيو أنتونيث، رسام: إننى أتذكره بالطبع. شاب موهوب جداً. أين هو الآن؟ أحدهم جاء به إلى الحرس القديم، الورشة التاسعة والتسعين، وكان يمضى هناك أياماً كاملة طوال بضعة شهور. لابد أن ذلك كان فى العام ١٩٦٥ أو ١٩٧٥ قليل الكلام، متواضع جداً (أو متكبر جداً) ينظر إلى كل شىء بتينك العينين المابوتشيتين شديدتى الحيوية اللتين له، واللتين تتفحصان بزخم رهيب كل مرحلة من كل تقنية. ومن كانت تتفاهم معه أفضل من الجميع هى «النملة» رأيته عدة مرات يساعدها فى طبع خيولها بالجرافيك. كان يبدو لى متمكناً جداً وفى الوقت نفسه محباً للدرس باندفاع. لكنه بالغ التحفظ! لا يعرض أشياءه على أحد وفجأة توقف عن الحضور. هل وقع له حادث ما مع أحد...؟ ربما رأى أنه قد تعلم معنا ما يكفى. لقد فرحت عندما قيل لى إنه ذهب إلى براغ فى منحة دراسية. ما أخباره الآن؟

ريكاردو مورجان، رسام: مابوتشى؟ كيف يمكن أن يكون مابوتشياً! يتظاهر بأنه مابوتشى. يظن أن ذلك شىء يمكن بيعه. ربما كان بالإمكان بيع ذلك فى أوروبا. أما هنا... كنيته الثانية لا تعنى شيئاً. ومن الذى ليس له كنية مابوتشية فى تشيلى؟ إنه أليرو ماتشوكا. مضحك جداً. مثل شخصية روخاس جاياردو الكوميدية. ألم يكن أليرو ماتشوكا؟ آه، كان تريستان ماتشوكا. «الرسام ماتشوكا» لا يعنى لى شيئاً. أظن أنك تبحث عن شىء آخر. «الهويركيو»

ليس بالسيئ. أما بشأن الموهبة، بسش، هممم، حسن، لا يمكن إنكار أنه كان يرسم جيداً. تلك المنحة إلى براغ التى قدموها إليه هى سياسية بالتأكيد. وكيف وصل إلى بغداد؟ لقد قرأتُ فى مكان ما خبراً عن أنه اختفى بعد الانقلاب العسكرى فى العراق. هل هذا صحيح؟ أم أن الببغاء أصابه البكم ؟ من المرجح أن يكون، كما يخيل إلىّ، قد ظل فى أوروبا. إنه واسع الطموحات، فما الذى سيأتى ليفعله فى بلاد الجرب هنا؟

بوناتى، رسام: أجل، إننى أتذكره جيداً، لقد كنا زميلين فى المدرسة. وكان يركل الكرة بقدمه اليسرى. يتمتع بقوة كبيرة لكنه يفتقر إلى التقنية. لا يلمس الكرة. لكنه عنيد جداً يخرج ببغيته عموماً. ينتزعونها منه فيركض خلف الخصم ويحاصره إلى أن ينتزعها منه. يعودون إلى انتزاعها منه ويعود لعمل الشىء نفسه. لا يتعب ولا يكل أبداً. كنا نسميه الهندى. يا لنا من أصيلين نحن. وكرسام؟ أجل، لا شك فى أنه أحد أفضل الرسامين. إنه موهبة لا ريب فيها. ويا للعناد! كان محباً للمزاح، لكنه يخرج عن طوره إذا ما سموه مابوتشيتو (مابوتشى صغير) أو شيئاً من هذا القبيل. فى هذا الأمر كان شديد الحساسية. وكم كان فظيعاً فى القراءة! كانت لدى كتب كثيرة فى بيتى، وكنت فى ذلك الوقت أسكن فى حى سانتا إيسابيل. وقد قرأ تلك الكتب كلها. كان يحملها بنوع من التوقير، كما لو أنها كنز، ويعيدها إلىّ بعد يومين أو ثلاثة أيام، ويكون

قد قرأها وغلّفها بحرص. أجل، لا شك لدى فى أنه كان يقرؤها، لأننا كنا نتبادل الرأى حولها. ولم تكن قراءته سطحية، بالرغم من سرعتها. حسن، كانت كتباً من كل الأنواع: «التناسب الإلهى» وروايات لكونراد، وجارسيا لوركا، و«بلاتيرو وأنا» ونيرودا، و«الغصن الذهبى» وسالجارى، وجول فيرن، وجراهام جرين، وشيستيرتون، و«ألف ليلة وليلة» وبيرل بيك، وهمنجواى، ودوستويفسكى... لقد حزنت كثيراً عندما قيل لى إنه مات أو اختفت آثاره فى لبنان. فى العراق؟ وما الذى كان يفعله فى تلك الأنحاء؟

أنطونيو روميرا، ناقد: لا مجال للشك لدىّ: إنه أفضل الجميع وبصورة فائقة. معرض أعماله هنا، فى العام ٦٢ إذا لم تخنى الذاكرة، فى صالة جامعة تشيلى، كان معرض رسام سيد. وهذا ما كتبته فى جريدة **الميركوريو**. ولمرة واحدة توافق بينديس معى. أقول لك: تلك اللوحة عن الفلاحين الهاربين من الإصلاح الزراعى، الممددين هناك على الأرض كتصور مسبق للجثث التى سيتحولون إليها دون شك. وبرج بابل المرعب ذاك فى البعد الثانى... شىء مخيف! ليس هناك من يرسم هكذا فى تشيلى. وتلك اللوحة الأخرى عن عاملات مشغل السجائر؟ إنه ماض، أو كان يمضى، على طريق التحول إلى كلاسيكى وحداثى فى الوقت نفسه. هناك بالطبع من لا يريدون تذكره. الأحكام المسبقة مريعة، ورسام مابوتشى لا يمكنه الاقتصار على ما هو بهيج وطريف... وسوف يعتبرونه

عاصياً وخارجاً عن المتعارف عليه! ما الذى جرى له الآن؟ هل عُرف شىء عن مكان وجوده؟ يا رجل! كيف خطر له أن يحشر نفسه فى الشرق الأدنى...

جييرمو نويث، رسام: تعرفت عليه فى براغ. حسن، الحقيقة أننى كنت قد التقيت به مرة فى تشيلى. ولكننى فى براغ كنت ألتقى به أكثر. كنا نستمتع كثيراً معاً. إنه أحد أطرف الأشخاص الذين عرفتهم. لم يكن يبدو كذلك من الخارج. فقد كان يبدى التحفظ. لكنه كان يتمتع بعين ناقدة رهيبة. إننى أتكلم عنه بصيغة الماضى، كما لو أنه قد مات. من المخجل أننا لم نتذكره طوال هذا الوقت. لكن المسألة هى أنه لم يعد ثمة متسع من الوقت هنا حتى للتنفس. فما بالك بتذكر شخص بعيد جداً. هل عُرف أى شىء عنه أخيراً؟ لست أدرى السبب، لكننى لا أتصوره ميتاً فى تلك البلاد. كرسام... إنه!... رائع. إنه قادر على الوصول بعيداً جداً. حسن، بغداد بعيدة جداً، ولكن ليس هذا ما عنيته. سيكون مأسويًا أن...

«النملة» فنانة جرافيك: أجل يا عزيزى، لقد عرفته طبعاً. كان يساعدنى فى أعمال الجرافيك فى ورشة نيمو. شاب لذيذ. وهو عبقرى فى الجرافيك. فى إحدى المرات كنت فى غرفة صغيرة يستأجرها على مقربة من مدرسة الفنون التطبيقية. كان ينجز أعمال جرافيك، وبتقنية استخدام ماء النار، وحفر على الخشب، ورسوم بالريشة، وقلم الرصاص، والباستيل، وبالأحمر... وكان فتياً جداً. قلت له مرات

ومرات أن يذهب إلى باريس، وعرضتُ عليه أن أعطيه رسالة توصية إلى دوكلوس أو إلى بيل هيتر. وحدثته كذلك عن جوتوسو، وأنا متأكد من أنه كان سيستقبله بذراعين مفتوحتين. ثم غاب عن نظرى بعد ذلك. لم يرجع إلى الورشة٩٩ هذه هى عادة الشباب السيئة فى تشيلى. يختفون فجأة. المعرض الذى أقامه فى الجامعة كان حلماً.

مع وقوع الانقلاب العسكرى فقدت أوراقى. جرى تفتيش بيتى فى الثامن عشر من سبتمبر ، وحملوا فى شاحنة كل ما له علاقة بالكتب، والمجلات، واليوميات، والوثائق. حتى أنهم أخذوا دليل الهاتف. ومزقوا فوق ذلك الفراش، والأثاث، وقوضوا حائطاً خشبياً يفصل بين المطبخ وحجرة الطعام، بحثاً عن أسلحة بالطبع، واعتقلوا حماتى مدة يومين فى المدرسة العسكرية. مع أن المسكينة أشبه بمومياء، ولن يعرف السبب أبداً.

أنا كنت، منذ يوم الحادى عشر من سبتمبر صباحاً، فى بيت أستاذ فى معهد التطبيقات، كاثوليكى ملتزم. فتح لى، هو وزوجته، أبواب بيتهما دون تردد. وهناك أمضينا أياماً كابوسية ونحن نرى فى التلفاز أعضاء المجلس العسكرى الأربعة بنظاراتهم القاتمة، والدوريات العسكرية تحرق الكتب باعتزاز وطنى، والمعتقلين فى الاستاد الوطنى، وكل هذه «الأمور» التى صارت إليها تشيلى بين ليلة وضحاها.

عـنـدمـا خـرجت من الجـريـدة، بـشـىء من الاستعجال، ليس لآخذ موقعى القتالى بالضبط، وإنما لأبحث عن ملجأ آمن، تناولت ما وجدته فى متناول يدى: دفتر ملاحظاتى. وعندما تفحصته بعد ذلك، فى ملجئى، وجدت فيه مقابلاتى التى أجريتها بشأن الهويركيو، وضحكت لمجرد إعادة قراءتها. هل هناك عبثية أكبر من هذه! ولكن، ليس هذا هو كل شىء. فقد بدأ الرسام المابوتشى بملاحقتى، فى الأحلام أولاً، وبعد ذلك بأشكال أخرى.

وفى حوالى السابع والعشرين من سبتمبر، بعد قليل من جنازة نيرودا، قالت لى زوجة صاحب البيت إن كاهناً كانت قد تحدثت إليه زوجتى فيديلا، ليساعدنا فى طلب اللجوء إلى إحدى السفارات، قد التقى بشخص من المطبعة، وإن لديه شيئاً بالغ الأهمية بالنسبة إلىّ. فسألت البروفيسور إذا كان مناسباً أم غير مناسب أن يأتى الكاهن إلى البيت. فكر فى الأمر وأجاب بنعم. فقد جاء ذلك الكاهن من قبل إلى البيت لتوضيح بعض المسائل الدينية، ولن تبدو زيارته غريبة.

لقد أدهشنى ذلك الكاهن. فقد جاء فى ستروين صغيرة مخلعة (رأيته من الطابق الثانى، من خلال شقوق أباجور النافذة التى تظل مغلقة دوماً)، كان طويل القامة، له عينان صافيتان بريئتان تحت حاجبين باسكيين كثيفين، وبدا لى أن له هالة. ولم يكن ينقصه إلا أن يطفو قليلاً فوق سطح الأرض.

وكان ينهمك طيلة اليوم فى إنقاذ أناس إلى حد أنه ينسى تناول الطعام. وقد ذُهل تماماً عندما قدمت له صاحبة البيت فنجاناً كبيراً من القهوة بالحليب وقطع خبز محمصة مع الزبد. ومن طريقته فى الابتلاع لاحظت أن لديه.... فلنقل، شهية طيبة. كنتُ أراقبه من المطبخ من خلال تمفصل باب حجرة الطعام.

دخلت عليه وحييته. وجه إلىّ نظرة تساوى سراً مقدساً، وأخبرنى فوراً أن زوجتى والأطفال بخير، وأنه جرى ترتيب كل شىء كى نتمكن من الدخول إلى سفارة ألمانيا، إلخ. وبعد ذلك، انحنى على محفظته السوداء الهرمة، وهى أشبه بحقيبة طبيب من القرن الماضى، ثقيلة جداً، وأخرج منها بوقار شديد... المخطوطة!

مثلما هى. بمغلفها الأصفر ورباطها المطاطى الأحمر.

وضعها فوق المنضدة، ثم وضع يده فوقها وروى لى كيف أن الرفيق لينين فينيجاس، عامل اللينوتيب فى الجريدة، قد أنقذها من درج مكتبى، مدركاً مدى أهميتها بالنسبة إلىّ (لأنه رآنى أقرأ فيها عدة مرات بتركيز رهيب، كما قال) وأخرجها فى يوم الحادى عشر من سبتمبر بالذات (يوم الانقلاب)، وحملها مجازفاً بحياته مخبأة بين قميصه وملابسه الداخلية، مثبتة بالحزام على معدته، وقافزاً من سقف بيت إلى آخر للإفلات من حصار العسكريين، ثم تدلى بعد ذلك

على دالية إلى فناء بيت صغير فى شارع توكورنال، حيث تسكن ابنة عم رفيقة أحد الرفاق.

أحسست باضطراب شديد لم أدرِ معه ماذا أفعل. حاولت رسم ابتسامة غير موفقة، إصدار نوع من قوقأة الدجاج، ثم انفجرتُ فجأة فى البكاء. واسانى الكاهن بوضع يده على كتفى. وكان فضوله واضحاً لمعرفة مضمون المخطوطة الشهيرة، لكنه لم يسألنى شيئاً. وأنا أيضاً لم أقل له شيئاً. إذ، كيف أشرح له إنها رسائل رسام مابوتشى ضاع فى بغداد قبل عشر سنوات وبروفيسور تشيكى غريب الأطوار إلى حد ما؟

بعد أن انصرف، رحت أتأمل الأوراق من جديد وأتساءل عن سبب عنادها بهذه الطريقة للبقاء معى.

الرسالة العاشرة

تأملات عن الزمن المنصرم/ أعمال فى فيينا/ رحلة مفاجئة/ مسيح دجلة ومشاكل تركيبية/ سوداوية المتحف.

عزيزى جوزيف:

أشياء كثيرة حدثت ومنذ وقت طويل لم أكتب إليك، بحيث لم أعد أعرف من أين أبدأ. كيف حالك؟ هذه بداية تقليدية لرسالة. ولكى أواصل فى ظل القواعد نفسها أقول لك: آمل أن تصلك رسالتى هذه وأنت على أحسن حال مع أهل بيتك.

لقاؤنا فى براتسلافا كان مبهجاً لى. ويدهشنى كم أراه بعيداً. حالتى أنا؟ حسن، يا للشياطين، يمكن القول إننى فى حالة جيدة. أجل، على الرغم من كل شىء، أنا فى حالة جيدة. إننى حى على الأقل. وهذه لا تزال نعمة فى هذه الأزمنة، وفى هذه البلاد.

حامل هذه الرسالة، مرة أخرى، هو صديقنا المشترك ألكسندر، وأنا أثق به ثقة كبيرة. وأنت أيضاً

يمكنك الوثوق به. لقد أخبرنى بأنكما تفاهمتما على أحسن وجه عندما زارك فى بيتك. ويمكن له أن يخبرك بأمور أُفَضِّل عدم كتابتها. ولكن عليك أن تحاول الفصل بين الوقائع وآرائه الخاصة. فقد حدث مؤخراً أننا اعتدنا على بعض الاختلاف فى وجهات النظر، وخطر له أن يتصرف معى كما لو أنه أبى، أو فلنقل كما لو أنه عمى، لأنى صرت كبيراً على ذلك.

وبمناسبة الكبر والهرم: لقد أُصبت بهزة عظيمة حين انتبهت إلى أنه بعد أسابيع قليلة ستمر سنة على وصولنا إلى بغداد. فإذا كانت عشرون سنة ليست شيئاً يُذكر، على حد قول جارديل آى لى بيرا، فلك أن تتصور ما يمكن أن تعنيه سنة. ومع ذلك، أشعر كما لو أننى ألفىٌّ هرم، وهذا ممكن، جزئياً، بتأثير هذه الأراضى، أو ربما بسبب مجمل التجارب المكثفة التى عشتها فى هذه الفترة. يبدو لى كأن السنوات السابقة على مجيئى إلى براغ (وهو مجىء يبدو بعيداً جداً) كانت ضربة ملتبسة وليست سوى تحضير لنوع...، كيف أعبر عن ذلك دون أن يكون له وقع الغرور، لنوع من النضج المفاجئ، اكتسبت فيه قدرة على امتصاص الواقع لم أمتلكها من قبل. وقدرة، وهذا هو الأهم، على رؤية أو تحويل كل شىء إلى رسم، بما فى ذلك المشاعر أو الأحاسيس التى هى أبعد ما يمكن تصوره عن الرسم.

يمكننى القول إذاً، بموضوعية، إننى حققت قفزة، وهى قفزة مكونة فى الواقع من عدد غير نهائى من

القفزات الصغيرة ـ على طريقة الجرادات الطفلة ـ وهيكتولترات من الدم والعرق والدموع، وخاصة السائل الثانى من السوائل البدنية المذكورة. ولكننى كنت أعمل أيضاً فى السابق. وإذا ما كانت لى فضيلة، فإنها العمل كزنجى. أو كصينى. والأفضل: كهندى. لكن نتيجة ذلك العمل لم تكن دوماً، أو أنها، بمزيد من الصراحة، لم تكن قط تقريباً، مثلما كنت أتصورها. إننى أعيش اليوم لحظة أخرى، وأقول هذا بأكبر ما يمكن من التواضع.

أجد أن هذا، متشابك مع ما يحدده البعض بكلمة «معايشات» المتكلفة، غير تواصلى فى نهاية المطاف. أو أنه يتطلب ما لانهاية له من الاتصالات، رسائل من حجم «لاروس» عدة مرات كل أسبوع، أو كل يوم. وأخيراً، يشعر أحدنا أنه يقع فى إغراء البرقيات. أو الصمت إلى الأبد، وكان هذا هو الحل المفضل لقومى من السكان الأصليين.

بقول ما قلته، أنتقل لأروى لك شيئاً عن مغامراتى وأعمالى فى هذه الأوقات. عندما تبادلنا الوداع فى محطة براتسلافا، بعواطف مخلصة، راودنى هاجس بأننا لن نعود للقاء من جديد. أيكون ذلك ممكناً؟ كان هاجساً قوياً إلى حدّ أننى مازلت مؤمناً به، مع أنه من المفترض أن نرجع السنة القادمة إلى براغ، أنا وإيفا، ويجتمع شمل الأسرة. وربما يزداد عددها، وهذا هو حلمى. يقولون إن الرجال لا يمتلكون غريزة أبوية مثلما تملك النساء غريزة

الأمومة. لا أدرى إذا كان ذلك صحيحاً، ولست أدرى إذا كان ما أمتلكه غريزة أو شيئاً آخر، لكننى أشعر برغبة عميقة فى أن يكون لى ابن. من إيفا طبعاً. أشعر... كيف أشرح ذلك؟، إننى بحاجة إلى أن أرى، مادياً، وبعينى، امتداداً لى. طفلاً صغيراً.

لقد وردت إلى ذهنى، فجأة، ذكرى شخص إسبانى، يدعى باكو خنتيل، كان يبالغ فى اللطف معى، لأنه يعى - هذا ما قاله لى ذات يوم - أن أسلافه لم يسلكوا سلوكاً طيباً معنا نحن الذين كنا أصحاب البيت فى تشيلى عند مجيئهم. «يا للعن»، لم يكن سلوكهم جيداً» .فالغزو الإسبانى فى نظره هو مسألة سلوك. أتكون كنيته هى السبب؟ لكنه بدا لى جيداً. فهناك آخرون لا تخطر لبالهم مثل هذه الأمور.

تذكرت السيد باكو، المكتبى فى سانتياجو، لأنه مفتون، مثل إسبان آخرين كثيرين، بعرض «نظريات، ومذاهب؟» هذا ما كان يقوله. وإحدى نظرياته أن كارل ماركس لم ينسج هذياناته لأنه أحرق رموش عينيه وهو يدرس الاقتصاد السياسى الإنجليزى، والفلسفة الألمانية وغيرها من الترهات، وإنما لأن - وهنا يرتعش صوتى - «ذلك المسكين لم ينجب ابناً ينظر فى عينيه». إنها نظرية ضعيفة جداً لدحض أو تفسير فكر ماركس، ولكنك لن تنكر علىّ أنها أصيلة. لقد كان خنتيل يسلينى، وكنت أضحك منه بتهذيب؛ غير أن مسألة إنجاب ابن «ينظر فى عينى» ظلت راسخة فى ذهنى.

آخر ساعة: لم أعد أدرى بماذا أفكر، فقاطع الطريق بينتو أخبرنى أن ماركس أنجب ابناً. صحيح أنه مات طفلاً، لكنه استطاع «النظر فى عينيه» لو كان السيد باكو خنتيل حياً لانفجر فى قبره.

لقد قررنا رسمياً، أنا وإيفا، أن نتجنب إنجاب أطفال طالما نحن فى بغداد، لأسباب معقولة وعقلانية. ولكننى بدأت أشعر بنوع من الحكة الأبوية التى لا تشاطرنى إيفا إياها ولا تتفهمها، والتى أدت إلى بعض النزاعات بيننا. لكننى أظن أننا سننطلق بحزم فى عملية التفريخ فور عودتنا إلى أرض الوطن التشيكى.

فلندع هذا الموضوع إلى محادثة تالية. هناك أشياء أخرى أرغب فى روايتها لك الآن. لقد أنجزتُ فى فيينا عدة عمليات جديدة تماماً علىّ: فتحتُ حساباً مصرفياً مشتركاً (باسم إيفا واسمى) حيث أودعت مواردى، بفائدة؛ ووقّعت عقداً حصرياً مع صاحب صالة هاوزر المعتمدة لفن الرسم، وهو لا يدعى هاوزر، وإنما فوجئت باكتشاف أنه يدعى كوسرا (وقد علمت أن نصف سكان فيينا ينحدرون من عائلات تشيكية انتقلت إلى هناك فى أزمنة الإمبراطور فرنسيس جوزيف الطيبة)؛ وأُخضعتُ لثلاث مقابلات صحفية، إحداها مع جريدة، وأخرى مع مجلة فنون، وثالثة مع محطة إذاعية.

ولأن الأيام تمضى سريعاً، أكثر مما هو متوقع، فقد اتصلتُ هاتفياً بإيفا وقلت لها أن تسافر وحدها

إلى براغ، حيث سألتحق بها فى حوالى العاشر من يوليو. (وهذا لم يحدث، كما تعلم). وطلبت منها أن تتولى، بمساعدة بينتو، التوصل إلى حفظ لوحاتى فى مصرف آل الحسن؛ وأن تدفع مسبقاً أجور الشقة حتى شهر أغسطس، لتجنب أى نوع من المشاكل. وقد كان الاتصال الهاتفى كما فى أيام لورنس العرب، تتخلله هبات رياح رملية، بحيث كان علىّ أن أكرر كل شىء من خمس إلى ثمانى مرات، لكننى أعتقد أن كل شىء قد اتضح فى نهاية المطاف. لم تكن إيفا سعيدة بتلك الأخبار، ولكن. أعنى، ولكن.

لا أظن أننى أضعت الوقت فى ڤيينا. لقد عمل وكيلى التجارى على الحصول لى على شقة صغيرة على سطح، مع مرسم مساحته حوالى ١٦٠ متراً مربعاً، يغمره ضوء طبيعى، ومزود بنظام معقد من الستائر المصنوعة من قماش خام للتحكم بدرجة الضوء، مما أشعرنى بأنى أشبه بصبى بحار فى السفينة «إزميرالدا» وللشقة إطلالة على الدانوب تليق بكوكوشكا. هذا كله، منظر هذه الطبيعة ذات الغنى النباتى الكثيف، إنما المتحضرة جداً، المشذبة، الشبيهة بالعجائز اللاتى يجدن أنفسهن، كل واحدة على انفراد، معزولات فى عوالمهن الضيقة، ولكنهن يشكلن بمجموعهن أسراباً حقيقية فى شوارع هذه المدينة، مطليات بمبالغة بالمساحيق والأصباغ، مهندمات حتى التشنج بأشد أشكال الهندام مرضية، بقبعاتهن، وحقائبهن الصغيرة ذات الأقفال المذهبة، وساعاتهن

السويسرية، ومظلاتهن، وجزماتهن التى تُصدر تاب ـ تاب، وأيديهن المحشورة فى القفازات، وكلابهن الصغيرة المزوقة والهرمة والممشطة، والتى ترتدى سترات ذات مربعات، وترافق صاحباتها إلى أشد مقاهى العالم عراقة، حيث يشربن قهوة فيينية ويأكلن «فيينر ستروديل» مع الكريم، بينما تلعق الكلاب حليباً دافئاً وتأكل بسكويتاً على مناضد منخفضة موضوعة على ارتفاع مناسب للكلاب، تحت المنضدة التى تجلس إليها السيدة، ويقوم النادل الأسمر والناضج نفسه، قريب ندل براغ، على خدمة السيدة والكلب، فوق وتحت، بالتذلل المهنى نفسه. ومن أجل خدمة السيد الكلب، يكون عليه أن ينحنى كثيراً، ليس دون صرير مسننات وعظام. حسن، هذه الطبيعة الهرمة، الأوروبية، الممشطة، عذبة، وضوؤها يبدو نقياً كل صباح، لكنها عند الظهر تصبح محاطة العينين بشئ من الزرقة. إنه أمر مهدئ جداً بعد ضراوة صحراء العراق وشمسه، لكنه بصراحة مثير للغيظ.

عندئذ، وبالرغم من أننى عملت كثيراً لأسبوعين، أو ثلاثة أسابيع تقريباً، فى فيينا، على مجموعة أعمال جرافيك حول شارع الصاغة فى بغداد، وأكثر من ذلك حول ما لا حصر له من الأباريق، والأطباق، والصوانى، وآنية القهوة، وغيرها من الأوانى النحاسية، شعرت فجأة بالاختناق وداهمنى حنين متعجل إلى الجنوب، حتى أننى هرعت، قبل أن يصيح الحمار، إلى مكاتب فاجون ـ ليتس كوك، واشتريت تذكرة ذهاب وإياب إلى تشيلى.

سافرت فى اليوم التالى بإحساس غريب بالحرية، هى حرية الأثرياء، كما بدأت أدرك للمرة الأولى، أولئك القادرين على السفر عندما يشاءون إلى حيث ما تشاء رغباتهم الموقرة. أو ربما حرية أبناء الأثرياء، لأن الآباء، بصفقاتهم، ومصارفهم، واجتماعات مجالس إداراتهم، ومواعيد أعمالهم، وعقودهم، وعشيقاتهم وغير ذلك من الأمور يجعلهم مستعبدين أكثر من ناعورة، ولكن بقدر أكبر بكثير من الراحة بالطبع.

قمت بالقفزة الدولية عبر المحيط دون أن ألتفت إلى الوراء، ولابد من الاعتراف أننى كنت أشعر بقدر (خفيف) من الانزعاج، فأنا لم أخبر حتى إيفا بهذا القرار المفاجئ. لكننى كنت أفكر فيها طيلة الوقت، ولم تخطر لذهنى قط، ولا فى أية لحظة، فكرة عدم الرجوع إليها. أقول هذا من أجل «سياكا» (حماتى) لأنى أتصور ما الذى ستكون قد شعرت به، ومدى غم حماتى العزيزة، السيدة ريبيكا، شديدة الفزع المسكينة.

لكننى أؤخر السؤال الذى يدور فى رأسى منذ اللحظة التى جلست فيها للكتابة: كيف حال الوليد؟ وأيضاً: كيف كانت الولادة، وكيف هى حال الأم؟ وأنت، كيف تشعر فى حالتك الجديدة وفى شرطك الأبوى؟ ليس سؤالاً واحداً كما ترى. وفق حساباتى، لابد أن يكون عمر الصغير (أو الصغيرة) الآن حوالى شهرين. لا، أكثر قليلاً من شهر واحد. ولابد أن شقتك فى

أوستى ممتلئة بأقمطة منشورة لتجف، وبرائحة براز الطفل اللذيذة. أتصور السيدة الأم روزينا، والطفل معلق على ثدييها الرائعين. المعذرة من حضرتك.

أما بشأن تشيلى... ما الذى يمكننى قوله لك؟ لم أكد أمضى فى سانتياجو سوى أمسية ماطرة فى **الفنون الجميلة**، حيث وجدت اثنين من الزملاء كانا يفترضان - بحسد - أننى «فى أوروبا» كما يقال فى تشيلى، حيث لا يخامر الشك أحداً فى أن الأوروبيين لا يعرفون أنهم أوروبيون، لأنهم يشعرون بأنهم إيطاليون، أو فرنسيون، أو ألمان، أو دانماركيون، وأن مفهوم «أوروبا» لديهم هو مفهوم سياسى، مجرد. حسن، التشيليون لا يشعرون كذلك أنهم «أمريكيون لاتينيون» ومصطلح أميركى لاتينى هو شىء يصلح للعبارات الخطابية. ونحن - المابوتشيين - لا نشعر كذلك بأننا تشيليون، فى معظم الأحيان. وقد ظل الزميلان فاغرى الفم عندما قلت لهما إننى فى بغداد منذ سنة تقريباً، لكننى لم أشأ الدخول فى تفاصيل.

اليوم التالى كان ماطراً أيضاً، وقد تبللت، وأنا بلا مظلة ولا رداء مطرى، لكننى لم أفكر فى ذلك، ولا فى احتمال إصابتى بالزكام والتهاب الرئة الذى يخشونه جداً فى تشيلى. أحسست بالبرد والرطوبة بطريقة أقرب إلى التلذذ.

كنت أفتقدهما بعد كل ذلك الرمل وكل تلك الشمس الحارقة. عندما وصلت إلى التحدث مع رينخيفو، المسئول عن صالة العرض التابعة لمصرف

تشيلى، حيث سأعرض أعمالى فى العام القادم، خلّفت له بقعة من الماء على السجادة. لكننى قررت عدم الاهتمام بالصغائر على الرغم من أنه كان ينظر إلىّ بنوع من الضيق. وعندما شرحت له ما سيتضمنه المعرض، وسلمته قائمة بعناوين اثنتين وعشرين لوحة رئيسية وأبعادها، إضافة إلى منمنمات التمر الإحدى والأربعين، ومجموعة من أعمال الجرافيك عن الجراد، وأربعة عن الأوانى النحاسية، راح يرفع حاجبيه شيئاً فشيئاً حتى أوشكا بلوغ قذاله. لاحظتُ أنه لا يصدقنى تماماً، بالرغم من أنه يعرف أعمالى الأولى، وكان يُظهر دوماً أنه من مشجعى الداعى. بل أكثر من ذلك، لاحظت أنه يجدنى حالماً، أو ما هو أسوأ من ذلك: نصف مجنون. تفوهت ببعض الحماقات كى أغذى لديه هذا الاعتقاد، فصار عصبياً. وعندما بدأ يرشح برودة، قلت بطريقة كأنها عرضية إن لدى شرائح صور شفافة لجزء كبير من اللوحات. وأنه يمكن لنا أن نلقى نظرة عليها، إذا ما استطاع الحصول على جهاز عرض. أحس الرجل براحة عظيمة كادت عدواها تنتقل إلىّ.

الشرائح الشفافة أعدها لى الصديق كوسيرا فى ڤيينا، وهى رائعة. بعض اللوحات تبدو أفضل فى هذه الصور، وخاصة الألوان. وقد شاهدناها فى اليوم التالى فى بيته، على شاشة كبيرة، بينما نحن نتناول نبيذاً أبيض مصنوعاً من أعناب إتاليا التى يجلبونها، كما قال لى، من تشيّان. كانت الصالة هائلة، مفروشة

بالسجاد، وفيها آرائك يغطس فيها أحدنا حتى الرقبة، وكل شىء بإضاءة متوسطة.

كان هناك اثنان أو ثلاثة من أصدقائه، لهم مظهر متأنق، يضعون ربطات عنق، ويبدون بالغى الطلاقة، وامرأتان مترفتان تضجران معهم. وقد تجاهلوا الهندى بوعى مسبق. المرأتان أقلقتانى. فمنذ زمن طويل لم أر نماذج بمثل تلك العناية، ومثل ذلك المظهر الجنسى السافر، تعبقان بروائح مرهفة، نباتية وباردة أكثر منها حارة (أعنى الروائح)، لكنها لا تخلو من نفحة سك خفيفة. وكلتاهما ترتديان أثواباً قصيرة جداً، على طريقة «little nothing» (حسب ما عرفته وأنا أقرأ مجلة نسائية فى عيادة طبيب الأسنان)، وبأذرع مكشوفة بالكامل، وآباط خالية من الشعر. لكن أكثر ما أثر فىَّ هو أصباغ وجهيهما، ربما لأسباب لها علاقة بمهنتى، أو لأنى لا أرى ذلك لدى إيفا وزكية وكل النساء الأخريات القليلات اللاتى أراهن فى بغداد.

إحداهما وضعت طبقة كثيفة من كريم البشرة، كما فى المسرح اليابانى، مع حمرة قرمزية فاقعة على شفتين، وحاجبين رفيعين مثل شعرة، أعلى كثيراً من موضع حاجبيها الطبيعيين، وعينين محاطتين بإطار حدادى أسود، مثل مغلفات الرسائل القديمة حين تكون هناك حالة وفاة فى الأسرة. بدا تأثيرها غامضاً، طقسياً وحسياً بطريقة منحرفة. أما الأخرى فشديدة الشقرة، ولكن لعينيها لون لبؤة، وقد ركزت

هناك، فى العينين، كل المدفعية التصويرية. تبدو نصف مجنونة أو مخدَّرة، مع نوع من الحَوَل الشبقى، كما لو أنها خارجة من حفلة مجون لكنها مستعدة لمواصلتها فوراً. وكلتاهما كانت تتكلم بفتور، ولكنهما تنفجران فجأة فى قهقهات حادة و... ـ لماذا نطيل الكلام ـ مُهَيِّجة. وقد أبدتا نحو كاتب هذه السطور تكشيرة مفاجأة عند التقديم (ما الذى يفعله هذا المابوتشى التافه هنا؟) وبعد ذلك تجاهلتانى تماماً.

عندما حان موعد عرض شرائح الصور، قدمنى رينخيفو بطريقة مقتضبة، وقال إننا سنرى شفافات ملونة للوحاتى، وإننى سأقدم الشروحات الضرورية. كان جهاز العرض ضخماً وفاخراً مثل كاديلاك، يطقطق بعذوبة. وكنت أقول كلمة أو أخرى، فأذكر اسم اللوحة أحياناً، وفى أحيان أخرى المكان المعنى أو تاريخ رسمها. واصلت المهرتان تبادل الحديث بصوت أقرب إلى الارتفاع. أسكتهما بعرض لوحة سَموم. سألت إحداهما شيئاً ما، أى حصان هو هذا، إلخ. وأجبت بقول الحقيقة: إنه رابح سباق الديربى الإنكليزى عام ١٩٧٥ وإننى رسمته بتكليف من مالكه، الأكبر بين الأخوة الحسن، وهم مصرفيون وتجار من العراق. وأضفت إن اللوحة الكبرى، بالحجم الطبيعى، قد عُلقت فى بيتهم ببغداد. وأننى أنجزت فوق ذلك هذا الرأس للحصان كى أحتفظ به لنفسى، كذكرى. أثار فيهما كلامى هذا احتراماً كبيراً، ليس بسبب الرسم، على ما أظن، وإنما للارتباطات المالية المتعلقة بتلك العملية.

وفى النهاية، كان رينخيفو مصدوماً بتأثر. شعر منفوش، وعينان جاحظتان. عانقنى وأعلن، بتملق، أن عمل «المعلم هويركيو الذى حظينا بامتياز رؤيته هذه الليلة ليس ممتازاً فقط، ومن نوعية فنية وتقنية رائعة، وأصالة عظيمة، إلخ، إلخ، وإنما هو عمل عبقرى أيضاً». وأن معرضى المقرر العام القادم، فى شهر أغسطس، فى صالة مصرف تشيلى، سيكون حدثاً استثنائياً. لقد أثار شجونى تقريباً. كان القمىء يهز رأسه موافقاً، والمرأتان تضعان أعينهما علىّ. جمعتُ شرائح الشفافات، ووضعتها فى علبة، ودسست العلبة فى حقيبة مدرسية مجرحة كثيراً، أستخدمها منذ أزمنة المعهد. تناولت كأساً أخرى من نبيذ تشيّان الأبيض، وودعتُ ببرودة إنجليزية. قلت لرينخيفو على انفراد إننى سأتصل به، وإنه علىّ السفر إلى الجنوب مع أولى ساعات صباح اليوم التالى. كان الرجل مرتبكاً كمن هو يعتذر. وأصر أحد أصدقائه المتأنقين على أن يدس فى يدى بطاقته ويطلب منى، بلهجة الراعى، ألا أتحرج من الاتصال به. خرجت مسرعاً، كما لو أننى أهرب. أجل، لقد كان هروباً فى الواقع. فقد شعرت أننى على بعد كبير عن أولئك الناس.

أما قومى فرأيتهم خلال الرحلة إلى موطنى التى كانت خليطاً من الابتهاجات، وتجدد اللقاءات، والانفعالات، والكثير من المعاناة. لقد مررت عبر لوماكو، فيلكون، بيّانليلبون، ميترينكو، كيبى،

كيتراهوى، هويسكابى، ميليفكين، مالالهوى، كالافكين، كونياريبى، مانكيمابو، بورانكى، كينا، بوا، بيركينكو، مالالكاهويّو. وفى كل مكان تقريباً لدى أقرياء. فقراء إلى حدّ لا يمكن لك أن تتصوره. حدثونى عن زلزال عام٦٠ وما رافقه من أمواج مدٍّ عالية. وأرونى كيف بدّل عنف الهزات الأرضية جغرافية بعض المناطق. بلدة بيرتو سافيدرا حملها البحر. ما الذى سيقوله نيرودا؟ رأيتُ على بعض السفوح، فى المناطق الداخلية من مقاطعة أنجول، أشجاراً جذورها مغروسة فى الأرض، فى وضع أفقى، لأن ما كان أرضاً منبسطة نهض من أسفل وتحول إلى سفح شبه شاقولى لهضبة. وعندما غارت تلال بكاملها، انقلبت أشجار أخرى وصارت ذراها إلى أسفل وجذورها إلى أعلى.

حضرتُ جيّاتون(*) قريباً من سان خوان دى لاكوستا، وابتهلنا من أجل هطول المطر. أكلت نياتشى، ولم أكن قد تذوقته منذ طفولتى، وبدا لى رائعاً... قد يقال رهيباً، لكنه رائع. أظن أننا تكلمنا فى أحد الأيام عن هذا. إنه دم الخروف المذبوح، وهو لا يزال دافئاً، يخلط فى طبق مع أشد أنواع الفلفل حدّة وتوابل أخرى، وعندما يتخثر يُقطع إلى مثلثات، مثل الجبن. عند أكله يُحدِث حالة أقرب إلى الغبطة الطوباوية.

بعد ذلك، وبصورة مفاجئة، كنت مجدداً فى طائرة تابعة لشركة «سويزاير» أنظر إلى براكين سلسلة

(*) جيّاتون guillatun: طقس ابتهال يمارسه هنود المابوتشي في جنوبي تشيلي لطلب المطر أو الرخاء.

الجبال، وأتناول كأس ويسكى، بأقصى إحساس كامل باللاواقعية. وفى الإجمال، أمضيت فى تشيلى عشرين يوماً، ثلاثة منها فقط فى سانتياجو.

مررت من جديد بفيينا، كى أضبط ترتيب كل تفاصيل إرسال اللوحات من بغداد إلى فيينا، وبعد ذلك إلى سانتياجو. ومن أجل التحدث كذلك عن الأسعار والنقود وأمور أخرى. اتصلتُ بإيفا وكان على أن أمضى قرابة أربع وثمانين ساعة ملتصقاً بالهاتف كى أحصل على الاتصال. وقد خرجت لى، أخيراً، فى حوالى الساعة الثالثة فجراً. كانت رنة صوت إيفا ناعسة وغاضبة، بتلك النعومة التى تستخدمها حين تكون أشد سخطاً وتخلِّف روح أحدنا ممتلئة بالرضوض. سألتنى متى سنلتقى وأين. فأوضحت لها أن صلاحية تأشيرة دخولى إلى تشيكوسلوفاكيا قد نفدت، وأن الأصدقاء التشيكيين الأعزاء فى فيينا لا يضمنون لى تلقى تأشيرة جديدة قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ولهذا، فإن فكرتى هى العودة إلى بغداد، حيث يمكننى أن أستغل الوقت بصورة أفضل فى الرسم، ثم نلتقى معاً فى نهاية شهر أغسطس، حين يكون عليها أن تعود على أى حال لمواصلة دروسها. لم ترقها الفكرة. وكان علىّ أن أكرر كل ذلك عدة مرات، حتى أننى فعلت ذلك بالتشيكية. وأخيراً أذعنت، كما يبدو، واتفقنا على ذلك.

ولا مزيد حتى الآن. فأنا فى بغداد، أنتظرها فى بيتنا. هناك حر جنونى، لكننى استطعت أن أشتغل

بعض الشيء، بلوحة النهر أساساً. هل سيكون من المبالغة تسميتها «مسيح دجلة» إذا كان هناك مسيح لنهر إلكى فى تشيلى، فلماذا لا يمكن أن يكون ثمة مسيح لدجلة؟ ولكن لا، يبدو لى أننى سأُبقى على العنوان الأول.

لقد ذهبت فى هذه الأيام لأعيش تقريباً فى متحف بغداد، ووجدت هناك أشياء كثيرة جديدة، أو قديمة بالأحرى، لم أكن قد رأيتها من قبل. أحد تلك الأشياء، وهو بالغ الأهمية بالنسبة إلىّ، يتمثل فى استنساخ لعمل حفر غائر عن نهب مدينة جامانو على يد أشوربانيبال الذى كان، كما تعلم، ماجناً حقيقياً. لقد عُثر على منحوتة الحفر خلال أعمال تنقيب فى مدينة نينوى التى تعرضت بقسوة لسوء سلوكه. النسخة الأصلية موجودة، of course فى البريتش ميوزيوم. المهم بالنسبة لى هو تركيب المنحونة. فهناك - كما فى لوحتى البائسة «مسيح دجلة» - ثلاثة مستويات. فى المستوى العلوى، المحاربون الأشوريون المهاجمون وهم منهمكون فى تقويض حصون المدينة التى يهاجمونها بفئوس، ومعاول، وقضبان صغيرة، وأدوات أخرى. ويظهر كيف تتساقط عليهم من أعلى الأسوار قطع آجر، وأحجار، وأخشاب. وفى المستوى الأوسط، هناك جنود آخرون ينزلون فى رتل على منحدر، محملين بالمواد المنهوبة: حزم غريبة الشكل، جرار، وأشياء أخرى يصعب تحديدها. وأخيراً، فى المستوى السفلى، إلى جانب جدار يُحدث قطعاً أفقياً

فى التصميم، يظهر القادة فى مأدبة عظيمة لملء الكروش، يأكلون ويشربون، بينما هناك جندى يحمل رمحاً وترساً يخفيه بالكامل تقريباً، يقوم بالحراسة، مثلما يتطلب الموقف. إنها لوحة حفر سينمائية، وهى مرتبة بحكمة بالغة يضطر معها المشاهد، بصورة طبيعية، إلى النظر أولاً إلى الجزء العلوى، ثم الأوسط، وبعد ذلك السفلى، وهو ترتيب «القصة» المتسلسل.

المشكلة بالنسبة إلىّ هى فى أن ترتيب الأحداث ـ أو تلقيها ـ يجب أن تكون مقلوبة فى لوحتى. إذ لا بد أن يتركز الانتباه أولاً على الجسد الأبيض والجريح المستخرج من الماء، وسط الأجواء المضيئة المظلمة التى تُحدثها شموع ومواقد ذات لهب أحمر ودخان أسود على وجوه وأجساد تبدى الخوف والمفاجأة.

لحظة ثانية، مثلما تحب حضرتك أن تقول، هى بعض الصيادين الذين لم يروا الجسد بعد، أو أنهم لا يهتمون به. وهؤلاء فى مستوى أعلى قليلاً من سطح اللوحة، وهم منهمكون فى شئ المسكوف؛ وزبائنهم يأكلون بأيديهم، ومن كل قلوبهم، حاملين قطعاً كبيرة من السمك إلى أفواههم، بعضهم يجلس القرفصاء، وآخرون يجلسون إلى موائد على ضوء الشموع.

أما المستوى الثالث، وهو علوى ومنفصل عن المستويين الآخرين برابية قاتمة، فمخصص لمأدبة الأثرياء والمتنفذين الباذخة التى تظهر من خلال واجهة زجاجية فسيحة.

فى نسختى الأصلية، يظهر الجسد، محمولاً بصورة أفقية تقريباً بأيدى جماعة من خمسة صيادين، ويُرى بعد إخراجه من الماء، ويكون النهر وراء ظهورهم. هذا يعنى، فى مواجهتنا نحن المشاهدين. وبهذا الوضع نفسه يظهر النهر فى المستوى الأوسط، المخصص لبائعى السمك وآكليه. ولكن، من أجل رؤية المأدبة الفاخرة فى مطعم الفندق الفخم، يتوجب على الرسام (أو المشاهد) أن يدير ظهره للنهر. ويمكن لهذا أن يبدو هوساً عبثياً فى التدقيق الطبيعى، بعد ما توصلت إليه مدرسة باريس الطبيعية. يمكن لى ترك الأمور كما هى. ولكن لا. إننى أجد نفسى أمام تحد، وأعمل على تبديل التركيب بمجمله فى سبيل... لا أدرى ماذا. أيكون فى سبيل الحقيقة؟

المسألة ليست سهلة، لقد قمت بسلسلة من الرسوم التخطيطية المفصلة، على أوراق منفصلة، وتحديد جماعات الشخوص من زوايا مختلفة، مع التفكير أيضاً، فى أثناء ذلك، فى المشكلة الأكثر تعقيداً، ألا وهى مشكلة الضوء أو الأضواء، لأن منضدة الوليمة فى المطعم، بإضاءتها البيضاء كالنهار، تسرق الفيلم بصورة لا مفر منها تقريباً. الطريقة الوحيدة للتوصل إلى أن يكون مشهد الجسد المستخرج من الماء هو المركزى، مثلما أريد، هى فى منحه شيئاً من البريق، إضافة إلى شغله حيزاً أكبر، ووجوب أن يكون أخفض قليلاً من عينى المشاهد. الحل السهل نسبياً لمشكلة بناء اللوحة هو فى جعل الرسام يقف

فى النهر، إلا أنه سيكون من غير المنطقى أن يعمد الصيادون، وقد أخرجوا الجسد للتو من الماء وهم يتقدمون على الأرض فى الضفة، إلى عرض الجسد باتجاه النهر. وأنا أريدهم أن يُظهروه.

باختصار، المعادلة التى اخترتها هى زاوية بحافة مشطوبة: مشهد إخراج الجسد يراه المشاهد الواقف على حافة النهر بالذات وتكون جماعة الصيادين حاملى الجسد قد مرّت أمامه وهى تستدير لتضع الجثة على المنضدة. مشاهد أكل السمك تجرى إلى الخلف وفى مستوى أعلى، بتأثير المنظور، وكذلك لأن الحافة هناك أكثر ارتفاعاً (لقد رفعتها متراً دون مشقة)، أما مأدبة المتكبرين فتجرى على ما يشبه بروزاً صخرياً، ليس موازياً للنهر وإنما يشكل نوعاً من الزاوية معه، وهى زاوية مشطوبة فوق ذلك (إذ لا يمكن رؤية الشارع). هذا يبدو كما لو أن التواء قد طُبق على التركيب كله. فليس هناك زاوية قائمة واحدة والمستويات المائلة تهيمن على الأفقيات والشاقوليات، مما يُبرز بكل تأكيد ديناميكية الكتلة بأسرها. جميل جداً. هذا يعنى أننى سأعيد رسم اللوحة من جديد. لقد تركت النسخة الأولى على حالها، وهيأت قماشة جديدة، أكبر من السابقة، ارتفاعها أكبر من عرضها (الأبعاد التقريبية، مثل لوحة «يوم القيامة» لمايكل أنجلو) وأنا منهمك فى هذا العمل الآن. أظن أنه آخذ بالخروج كما تصورته.

لقد عدتُ إلى التألم فى المتحف من النهب الذى وقع هذا الشعب ضحية له. يوجد هنا استنساخ

لتمثال الملك جوديا، يعود إلى العام ٢١٥٠ قبل الميلاد تقريباً. أما الأصل، وارتفاعه أقل قليلاً من متر واحد، فمنحوت من الديوريت (حجر أسود له انعكاس غير لامع بديع ونعومة الحرير)، ويمثل الملك جالساً، يشد إحدى يديه على الأخرى، فى حركة قد تكون لها دلالة دينية. وعلى ركبتيه توجد خريطة، لا بد أنها خريطة لاجاش Lagash المدينة التى كان يحكمها (صارت تدعى اليوم تيللو .Tello) يغطى رأسه نوع من التاج أو الطاقية. الوجه مدور، كئيب، بعينين واسعتين، وحاجبين رفيعين مقوسين يلتقيان فى المنتصف (مثل زكية وأناس آخرين هنا). أما أنفه، يا للمسكين، فمكسور.

حسن يا بروفيسور، هذا العمل الفنى الذى يرجع إلى ما قبل أكثر من أربعة آلاف عام، قُسم إلى قسمين على يد ممثلى الثقافة الغربية والأطلسية المتقدمة. فالرأس المفصول عن الجسد، موجود فى متحف الفنون الجميلة فى بوسطن، الولايات المتحدة، حسب ما تشير قصاصة متواضعة أسفل النسخة المعروضة هنا. أما الجسد، كما تقول قصاصة أخرى، فموجود فى متحف اللوفر فى باريس.

أمر رهيب، أليس كذلك؟ يتساءل أحدنا عن التفسير. كثيراً ما طبق الرجال البيض هذا الأسلوب على الكائنات البشرية (وكى نكون غير متحيزين، طبّقه أو يطبقه أيضاً رجال من ألوان وأعراق أخرى)، ولكننى كنت أجهل أنهم يقطعون رءوس الأعمال الفنية

كذلك. أم أن هذه الفعلة كانت نتيجة نزاع بين جامعى تحف؟ على كل حال، يمكن لهذا أن يكون عبرة، فالمكان الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يُرى فيه التمثال كاملاً، رأساً وبدناً (وإن كان فى استنساخ)، هو هنا تحديداً، فى هذا المتحف الوطنى العراقى الكئيب الذى يمكن تسميته متحف النهب الدولى.

أخيراً، أظن أن هذا يكفى الآن. سيصل ساشا بعد دقائق ليأخذ هذه الرسالة. وعلى الرغم من هواجسى الخبيثة، لدى أمل فى رؤيتك أيها البروفيسور الغالى. إيفا ستصل إلى بغداد الأسبوع القادم كى تنجز عقدها الجديد. هذا يعنى سنة أخرى فى هذه البلاد. ولا مزيد. لك تحيات

هـ

ملاحظات على الرسالة العاشرة

رسالة هويركيو تثير ذعر لأسباب عديدة. نبرة مستخفة معهودة لأحداث خطرة، ولا تخفى ولا تفسر:

(١) كيف يمكن، دون مبرر قوى، يترك الزوجة التى ستعود إلى البلاد وحدها، وحتى فى الإجازة لا يكون معها؟

(٢) ما هو السبب حقيقى لرحلة إلى تشيلى؟

(٣) هل سافر حقاً؟

(٤) لماذا وقت طويل بقى فى فيينا، حتى فقدت فيزا تشيكية صلاحية.

(٥) ما هو، بعيداً عن أحاسيس غامضة غير عقلانية، سبب تنبيه مسبق لعدم لقاء معى؟

(٦) هل هناك غضب أو ألم كامن بشأن روزينا وعلاقة هو معى، بطريقة غير مباشر عبّر فى أسئلة وكلمات مؤثرة حول الابن؟

(٧) ماذا يفعل وحده فى بغداد؟

(يفترض أنه يرسم. هذا عمله دوماً. ولكن، هل يوجد مزيد هناك؟). أسئلة أخرى أسأل نفسى، وقت

متأخر جداً من الليل فى بيت وأنا أقرأ وأعيد قراءة رسالة (١٠). رسالة فى الجامعة تركها من أجلى ألكسندر فيسبيرك، ووعد أن يعود اليوم التالى.

ظهر ألكسندر متأخراً، ومن جديد معه زجاجة نبيذ ميلنيك، حين أنا منهك من الانتظار، ومتأهب لذهاب إلى فراش حيث منذ ساعتين روزينا ودافيد الصغير ذو عينين سوداوين ينامان.

تحدثنا وقتاً طويلاً ومخاوفى زادت. مهمته فى بغداد تنتهى وبعد أيام قليل سيرجع هناك آخر مرة كى إنهاء مراجعة عمله فى شركة صناعة حديد، وجمع وثائق، وعودته نهائية إلى براغ. حوالى شهر أو أكثر قليلاً.

«بعد ذلك أرجو ألا أسافر أبداً» قال وهو يمسح نظارته ويُظهر كم من إنهاك فى عينيه محاطتين بمحجرين عميقين، وأضاف: «لم أعد أتطلع شيئاً آخر سوى مكتب هادئ فى (CKD هذه مؤسستنا حكومية) وشقة هادئة فى شارع إيتالسكا، مع الزوجة ماركيتا والابنة جيتيكا. كثير صعب جداً العيش وحيداً، فى طائرات، مطارات، فنادق، اجتماعات، مشاكل لانهائية، وفى كل خطوة اكتشاف عالم أكثر غرابة وبعيد عن تصورنا عنه. وفى هذه السن لا أريد تبديل كل ما فى رأسى. قلة من حقائق أساسية، كل يوم أقل، وتكفينى أدنى شروط ماديات. هذا كل شى».

كنت أريد أسأله عن هويركيو، ولكن هو بدأ حديث عن موضوع آخر، يسبب له غم. «فى مصانع

بلاد نحن القديمة، يصنع عمال مسنون مهرة أجهزة ومصانع حديثة، كاملة نبيعها إلى بلدان مثل عراق، هند، مصر، كونغو، كوبا، وحتى كمبوديا وأميرها. صحيح، أجل، نتلقى بالمقابل بترول، قطن، بن، مواد ضرورية أولية وأخرى لا ضرورية، تفاهات، قمامة، حبات خرز مثل التى أعطاها مستعمِرون لهنود فى أمريكا أو أفارقة. إننا بالعكس مستعمَرون. نشعر شعور تاريخى مريح أننا نحقق أممية بروليتارية، نسهم فى تصنيع بلدان قديمة مستعمرة، وشبه مستعمرة، وتابعة، حسب صيغة ستالينية، وأننا نخلق بروليتاريا جديدة فى عالم متخلف، نحقق تقدم عالمى ثورى، مستقبل مشرق اشتراكى لإنسانية... وفجأة نكتشف أن حلفاءنا هم سلالات حكام عفنة أو عسكر فاشستين، وفى ظل حكمهم يزيد، أجل، يزيد عدد عمال، ولكن يزيد أكثر أموال ونفوذ أنظمة ملكية إقطاعية، بيراقراطية فاسدة، برجوازية وطنية لا تحلم إلا بالدولار».

وهكذا، ثمرة تضحيات بروليتاريا، كما يرى فيسبيرك، هو تسليم أفضل ما يخرج من أيدى وعقول بلادنا للآخرين، والبقاء بمصانع بوهيميا قديمة، سوداء بهباب فحم، سابقة على الحرب، مع تناقص متزايد فى إنتاجية. وزيادة ثروة برجوازية يفترض أنها تقدمية. أهذه هى الاشتراكية؟

بعد ذلك، وهذا أشد مرارة: «عندما يعقد مؤتمر عالمى نقابى، يصيبنا ذهول حين نرى مندوبين أفارقة،

أو شرق أوسطيين، أو لاتينيين أمريكيين يلبسون كأعيان أو مصرفيين، بدلات وربطات عنق فائقة أناقة، ويشربون ويسكى وكونياك مارتيل، ويُخرجون من جيوبهم ترفل شيكس وينفقوا فى يوم واحد أكثر من راتبنا فى ستة شهر».

هذه الكلمات فى الجو طافية، ونحن نفسيتا نعزى من الغم بشرب نبيذ ميلنيك أحمر ياقوتى. وأخيراً نتحول إلى حديث عن صديقنا مشترك.

ساشا يقول إنه يشعر قلق كبير عليه. إنه واثق من موهبته لا شك فيها، وقدرته عظيمة على عمل، وعلى بعد نظر، ومخيلة فى لوحة عن شاب شيوعى عُثر عليه فى دجلة واحدة من الليالى، إنها عمل بارع. يقول لى، لكنه يهز الرأس: «طريق شديد الخطورة يسلك» ويضغط شفتيه كى لا يقول مزيد.

«طريق؟ أى طريق؟» أُلحُ عليه.

يجيب بسؤال آخر: «هل تعرف أنت بينتو أو بانتو، صديق شمال إفريقى للرسام، لا أدرى: مغربى أو تونسى؟ لا أحد يعرف جيداً، حتى هو».

أقول نعم، هويركيو حدثنى عنه فى رسائل. ومرة كلمنى بينتو هذا من براغ.

قفز ساشا من مجلسه: «كلمك من براغ؟ كان فى تشيكوسلوفاكيا إذاً؟ غير ممكن!».

«ضرورى كان هنا، إنه اتصل بهاتف. قال إنه فى فندق يالطا. ودعانى معه لتبادل حديث فى براغ، لأنه يحمل رسالة من رسام».

فيسبيرك بدا مذهولاً. أخرج من الجيب دفتراً صغيراً وكتب شيئاً. «أين وكيف حصل على تأشيرة دخول بلدنا؟» قال لنفسه.

قلت إنه يبدو صديق هويركيو. ومثقف جداً، أصيل، رجل أعمال، له علاقات واسعة. ومن خلاله تلقى رسامنا تكليف أسرة مشهورة من أجل صورة حصان سموم. ما الذى جرى له؟

«ماذا جرى، ماذا جرى» قال فيسبيرك غاضباً. «توجد شكوك كثير حول هذا الرجل. غير معروف إذا مغربى، تونس، أو بلد ثالث. يسافر كل مكان، وأرى الآن أيضاً أنه يدخل بلادنا حين يشاء. فى بغداد، فى براغ، وأيضاً فى موسكو اهتمام كبير بهذا الشخص. يريدون أن يعرفوا هل تجارته أسلحة، مخدرات، تهريب تحف فن أو يعمل للـ CIA أو موساد».

«المعذرة» قلت له، «ولكن، من الذى يشك؟ لماذا، ومن يهتم بنشاطه؟ ومعذرتك، أنا أعرف من الجرائد أن CIA هى مخابرات سرية أمريكية. ولكن ما موساد؟».

نظر إلىّ كما لو أننى كائن نادر، وهذا ممكن. بعد ذلك أطلق قهقهة كبيرة نحو السقف. وسألنى بمودة:

«صحيح أنت لا تعرف ما هو موساد ولا تتصور ما الذى أعنيه؟ ربما لا يتوجب على حديث فى هذا أمر»، قال لنفسه، بجد. احتفظ بصمت، أخيراً حسم أمر: «يجب تعرف عزيزى جوزيف، بغداد مثل كل عاصمة عربية، مركز نشاط خدمات سرية... لنتكلم

بوضوح: تجسس. هناك يوجد الجميع وجواسيس الجميع: سى آى أيه، كى جى بى، انتلجنس سرفيس، جماعتنا، الفرنسيون، أتراك. وموساد مخابرات سرية إسرائيلية، نشطة طبعاً فى بلاد إسلام. شخص مثل بينتو يلفت انتباه».

هذا يمكن يفهم، قلت له. ولكن، ألا يمكن يكون تاجر؟ وكيف يكون، هو عربى، عميل موساد إسرائيل؟

«يمكن أنه لا يبحث عن شىء آخر سوى كسب مال» أقر ساشا. «ولكن، لا شىء بالكامل واضح فى هذا العالم. صفقات تجارة فى شرق أوسط يتطلب ليس فقط تجار أو مصرفيين، بل أيضاً اتصالات مع سياسيين وعسكريين، السياسة معلومات، والمعلومات بضاعة. يمكن تكون أحياناً أغلى من مخدرات. ومن قال لك إن بينتو عربى؟».

«ما هو إذاً؟».

«لابد أنه يهودى سفادرى».

أحسست أن رأسى يدور، وشربت كأس نبيذى دفعة واحدة. وقلت له: «أهنئ نفسى على العيش فى هذه العزلة فى أوست ناد لابيم».

قال ساشا: «هممم» وراح يتأخر بمسح نظارته. «أجل، أنت تعيش مطمئن. لكن، هل فكرت أن حياة أنت مطمئنة يمكن غير مطمئنة حياة آخرين؟».

قلت لا، هذا لم أفكر فيه أبداً. لكن فجأة بدأت أيضاً أفكر شيئاً آخر: لأن فقدان براءة يؤدى إلى ارتياب أبدى.

«المعذرة» قلت له «عزيزى ساشا: هل أنت أيضاً تنتمى إلى مخابرات سرية؟».

«القاعدة الأولى هى عدم تكلم أبداً» أجابنى دون أن ينظر إلىّ. «فى حالتى، صحيح أننى مهندس وأسافر إلى بلدان من أجل عمل فى تخصصى. ولكن، وهذا طبيعى، أنظر، أتعلم أشياء، ألاحظ، أسمع. وبعد ذلك، هناك من يهتم بمعرفة هذه أمور التى أنا أراها. واضح؟ محترف فى مخابرات لا لستُ. إننى محترف هندسة، اختصاص مراجل. ولكننى أنا، شيوعى قديم، وسلوفاكى وطنى، أريد أساعد، أريد دفاع عن دولتنا. مساهمة فى تحقيق حلم قديم، اشتراكية، مستقبل إنسانية مشرق. واضح؟»

«واضح جداً» شربنا شيئاً آخر، فى نخب صامت، غير مرتاحين بعض الشىء من كلام كبير.

بعد ذلك سألته ماذا سيحدث إذاً لصديقنا.

«صداقاته لا تلقى إعجاب. حسن. هذا ثانوى. ولكنى أظن أنه يعرض نفسه لخطر كبير دون أن يعى. لا أفهم كل شىء يجول فى رأسه، مع أننى أظن أنى أعرف التشيليين، فقد عشت فى تلك بلاد عشر سنوات أو أكثر. ولكن لم تكن لى صداقة أو علاقة مع مابوتشى أو مابوتشال من أصل تشيلى. هناك شىء مختلف فيهم».

تجرأت على القول له: إننا نتكلم عن فنان. والفنانون مختلفون فى كل أحوال، أكانوا مابوتشيين

أم تشيكيين. يشعرون واقع بطريقة أخرى، يحسون بعض أشياء بعمق أكبر بكثير ويكونون بطريقة ما، على هامش مجتمع عادى، ناس عاديين. هم يخرقون قواعد.

وافقنى الرأى: «على كل حال، واضح أن ردّ فعله يكون عنيفاً بزخم حيال ما يشعر أنه ظلم، وإذا كان فى السابق، بطريقة ما، يُفرغ ذلك فى رسومه، الآن لم يعد يبدو له ذلك كافياً. يريد فعل، تغيير عالم، كما قال ماركس، لكن عالم الذى يعيش فيه يجهل قواعد، يزدرى مخاطر، إنه ضحية رومانتيكية ثورية. وهو لا يريد كذلك، أقول هذا بحزن، أن يتخذ طريقنا».

أقول له إن شيئاً من هذا يُلمح فى رسائله، وأشير إلى علاقته مع أصدقاء أكراد...

غطى فيسبيرك وجهه بيديه الاثنتين وقال: «لا، هذا غير ممكن!» أنزل يديه ووجه إلىّ نظرة طويلة نفاذة.

قلت له: «هويركيو قال لى إنه يمكننى الوثوق بك. وأنا أقول لك: يمكنك الوثوق بى، أنا تشيكى عجوز، وغير شيوعى. أظن أننا نشترك فى أشياء كثيرة، منها تقديرنا مشترك لفنان الشاب، وهو فوق ذلك زوج ابنة أخى إيفا، لا بد أن أذكرك».

«إذا ما قال لى أحد فى تشيلى يوماً إنه ممكن تضامن مابوتشيين مع أكراد، لكنت ضحكت وقتاً طويلاً. وحتى اليوم، يمكن لأى تشيلى أن يقول هذا حماقة. ومع ذلك...»..

مرة أخرى صمت. بعد ذلك قال:

«أنا لدى شكوك، يقين تقريباً، أنه قدم خدمات لأصدقائه أكراد كمراسل فى رحلته إلى فيينا. حسن. هذا ليس خطير جداً، مادام قاسم لم يعلم بذلك. ولكن يبدو لى أنه عند عودته اجتمع بهم، وخاصة مع الفتاة... يمكن افتراض علاقة من نوع آخر. وهذا يمكن أن ينجيه».

«زكية»، قلت بنصف صوت.

«أنت تعرف هذا أيضاً! «تقريباً صاح ساشا» وماذا أكثر؟ إننى أمامك بدور الساذج».

قلت له إننى لا أعرف أكثر. ولكن الصحيح أن هويركيو فى رسالته حدثنى عن زكية، وكذلك عن طالب شاب طلال. موقفه نحوهم يبدو مختلط: تعاطف من جهة، ومن جهة أخرى ارتيابية أو شكوك. وصحيح أنه يبدو لى من المحتمل أنه حمل إلى فيينا أوراقاً، وثائق ليسلمها إلى أحد هناك.

فيسبيرك عاد ينظر إلىّ بزخم شديد وأعدت إليه النظرة بمثلها. وقال لى أخيراً: «ربما لا يتوجب علىّ قول هذا. إنه لم يقتصر على حمل أوراق إلى فيينا أو إحضار أوراق من فيينا إلى بغداد، بل أسوأ». أخفض صوته وقرب رأسه ليقول لى فى أذنى تقريباً: «هو سافر إلى كركوك».

احتفظ بصمت كبير المغزى، لكننى لم أدرك ما هى الخطورة فى سفره ذاك. ومع ذلك، لم أتجرأ على سؤاله، كى لا أظهر مرة أخرى ساذجاً مثلما أنا فى

الحقيقة، أو جاهل. قلت له ربما تلك الرحلة يمكن أن تُفسر بطريقة أخرى. فالفنان يهتم كثيراً بتاريخ، وثقافة قديمة...

«أجل، هذا عذر جيد. ولكن هناك وضع متوتر، يمكن قول إنه تحضير لتمرد في كردستان كلها. وكركوك هي مركز سياسة - تآمر أكراد. هناك يوجد دون شك مبعوثون لبرزاني يراقبون رجال قاسم. مدينة تعج بعملاء وجواسيس. تفهمني؟ وفوق ذلك... هو بدا متهرباً عندما سألته عن رحلته».

«إذاً؟».

«أنا أظن»، قال خافضاً صوته ومقترباً كثيراً، «أشياء خطيرة يمكن أن يحدث في تلك بلاد قريباً. غداً، بعد غد، لست أدرى. ونصيحتي أن ترجع ابنة أخيك وهو إلى براغ بأسرع ما يمكن».

وأنا ببلاهة: «ولكن هي لديها عقد عمل...».

ساشا يفقد صبره: «عقد... عقد... انسَ هذا. الحياة أهم من عقد عمل».

فهمت أنه يتكلم بجد. ولكن، ماذا يمكنني أنا أفعل؟ هل يمكنني إقناع الاثنين بعودة؟

كان الوقت صار فجراً. فجأة يمكن أن نموت من تعب. دعوت فيسبيرك إلى النوم في مكتب، وهو أقل عدم راحة من غرفة خياطة حيث أمضى ليل في مرة سابقة، وقدمت له كيس نوم سميك. فوافق. ومثل من يمشي نائماً اندسست في فراش إلى جوار دفء

روزينا. وعندما استيقظت، ليس بعد ساعات طويلة، أطللت على غرفة مكتب. كان كيس نوم مطوياً جيداً على أريكة موضوع، وعلى طاولة ملاحظة قصيرة: «عليّ أن أغادر كى أركب حافلة باكراً. إذا كنت ترغب أن ترسل معى رسالة إلى الصديق وابنة أختك، فأرسلها إلى براغ قبل أربعة أيام. على أن أسافر رحلة أخيرة إلى بغداد الإثنين القادم. تحياتى إلى سيدة روزينا والصغير. ساشا»

وكذلك ترك عنوانه فى شارع إتاليسكا.

الرسالة الحادية عشرة

وداع ساشا/ عودة للقاء مع إيفا/ رقصة البطن، مشية الجمل وأشياء أخرى مقيتة/ «غروين سكس» /تقدم فى الرسم.

عزيزى البروفيسور:

الوقت يعدو بصورة لا يمكن فهمها. اليوم هو الأول من نوفمبر هنا، وأظن أنه كذلك فى براغ (لست متأكداً)، وهو يوم جميع الموتى فى تشيلى: إننى أرى الصبية الصغار يبيعون باقات من المنثور، وباقات قرنفل وورد عند بداية شارع لاباث أو فى ريكوليتا عند مدخل المقبرة العامة. ولكننى لن أواصل استحضار ذكريات غير مفهومة، وسأخبرك بالمقابل بأننى تلقيت رسالتك منذ شهرين. أحضرها لى ساشا الذى مازال صديقاً، وأكتب هذا لأن خلافاً جرى بيننا أدى إلى فتور فى علاقتنا.

ما علينا، لقد تم تجاوز الأمر وتبادلنا الوداع بمودة حقيقية فى بيتى، بعد أن تذوقنا بعض حلوى

البالاسينكيل الرائعة، من صنع إيفا، محشوة بالجوز، وحتاتة برتقال مبشور وحلويات أخرى، ومغمورة بكريم الشيكولاتة ومشاعر حنين مقيتة إلى الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، تجعل أية مشاعر عداء مستحيلة. وأخيراً، على أى حال، بينما نحن نتناول رشفات صغيرة من سليفوفيشى بديع، جىء به عبر الطريق الدبلوماسى، وساهم به ساشا، وقد أصر، بقلق أبوى، وحتى بذعر، على أننا يجب أن نرجع إلى براغ سريعاً سريعاً سريعاً. لم أشأ تجديد الجدل السابق، لأن طيب نواياه كان واضحاً، لكننا أنا وإيفا صممنا على البقاء هنا حتى نهاية يونيو أو بداية يوليو من العام القادم، وهى مدة العقد، كى نعود بعد ذلك بصورة نهائية. وسيكون هو نفسه على أى حال، ناقل هذه الرسالة. وأخشى أننا من دونه سنجد بعض الصعوبة فى مواصلة مراسلاتنا. فهذه ستكون آخر رسالة أبعثها إليك معه.

لقد أسعدنى ما أخبرتنى به عن علاقتك بروزينا والصغير دافيد. وبدا لى أننى أشعر من خلال الرسالة بنفحة دافئة لبيت فيه طفل، وحب متبادل، وذلك الشىء النادر والهش فى أغنية سيئة جداً تسمى «السعادة هاهاها ـ هاهاها» أيكون طلباً كبيراً أن ترسل لى، عندما تتمكن، صورة للأسرة تظهرون فيها أنتم الثلاثة؟

وكى لا أبتعد كثيراً عن الموضوع، أقول لك إن أمورى مع إيفا على ما يرام. وربما أفضل من أى وقت

آخر. أظن أنها محقة فى عدم رغبتها فى التفكير الآن - وهنا - فى الحبل وتفرعاته الأخرى. وهكذا علىّ أن احتفظ بنزواتى، وتوحماتى، وهواجسى كهندى جلف وأن أكرس نفسى لمحبتها ومساعدتها أكثر. حسن، أكثر من السابق، وليس بما يكفى بكل تأكيد. لكننا آخذون بالتوصل للمرة الأولى إلى حد أكبر من التفاهم، ليس على الصعيد الجنسى فقط (وهذا لا يخيب ابداً) وإنما تفاهم أكثر اتساعاً. إنه أمر بسيط جداً فى العمق: نتبادل الحديث أكثر، يروى كل منا أموره للآخر، ما حدث خلال النهار، ما جال فى رأسينا، ما أفكر فيه بشأن رسومى، وما تفعله هى مع طلابها فى تصميم النسيج، والمخططات لبيتنا المستقبلى، والحلم برحلة إلى تشيلى، وهذا يجعلنى أرتجف أحياناً لأن البلاد التى احدثها عنها لابد أن تكون مختلقة فى أجزاء كبيرة منها، يضاف إلى ذلك الأحلام التى تساهم هى نفسها بها، بحيث يمكن لضربة الهراوة ضد الواقع القبيح أن تكون هى الجواد الرابح.

عندما نتكلم عن هذا الواقع الآخر، الذى هنا، ألاحظ أنها تتعلم أكثر منى حول حياة هؤلاء الناس، لأنها تعرف اللغة. أنا أخمن حياتهم قليلاً، من الخارج، وبالبحث فى الكتب القليلة التى اتمكن من الحصول عليها، ومن قصاصات أوراق البدين بينتو الغامضة (وهو شخص لا يروق كثيراً لساشا). ولكننى قد أكون، بالمقابل، أكثر اطلاعاً منها على السياسة المحلية.

لابد لى من القول أيضاً، يا عزيزى البروفيسور، أن إيفا قد تحولت إلى آية لا تصدق فى الجمال. فى كل مرة أراها من جديد، فى الصباح عند الاستيقاظ، وظهراً حين أذهب إلى معهدها فى موعد الغداء، وفى المساء عندما تعود متعبة من دروسها، وليلاً فى عليتنا على ضوء القمر أو ضوء مصباح زيت من برونز مزخرف، جدير بعلاء الدين، وجدته فى شارع الصاغة؛ أقول إننى أشعر فى كل مرة بانقباض أو ألم فى القلب. لا أستطيع عدم تذكر أن كل قصة إنسانية هى مأساة إذا ما امتدت بما يكفى لذلك، حسب قول همنجواى فى ميدان بامبلونا. فنظرتها، قبل أى شىء آخر، هى نور أزرق لا ينبعث من عينيها وحسب وإنما من محجريهما بكاملهما. هذه الكهرباء التى اكتشفها نيرودا فى إحدى قصائد «الإقامة» وأنصحك بقراءتها، قصيدة «أنخيلا أدونيسية»: من نظرتها متطاولة الخضرة/ يسقط النور ماءً يابساً/ فى دوائر شفافة وعميقة/ باردة القوة. ولن أضيف مزيداً حول هذا الموضوع، هذا اليوم على الأقل.

صديقى بينتو قام، قبل أيام، بتحليل رصين ومبسط لمشهد هذه البلاد وهذه المنطقة، أوقف شعر رأسى ودفعنى إلى التفكير فيما إذا لم يكن محقاً، بالرغم من كل شىء، فى نصيحته لى بالمغادرة بأسرع ما يمكن. فالبدين الذى كان يدشن ربطة عنق فرنسية جديدة وملفتة للنظر، هى أشبه بفولار أخضر تفاحى، مع ترصيعات لازوردية دقيقة جداً على شكل رءوس

سهام، وغير مثبتة حول العنق بعقدة وإنما بخاتم فضى (تصور، يا للتقصى الدقيق!)، هز رأسه قلقاً بعد أن أخبرنى بالأحقاد المتبادلة بين العقداء الناصريين وقاسم، والحملة العسكرية ضد الأكراد، وطموحات حزب البعث، والقمع ضد الشيوعيين، ومعارضة الشيوخ المسلحة للإصلاح الزراعى، وتهديم بغداد فى المساعى العمرانية، ومختلف المؤامرات التى تُحاك، ومتع أخرى.

وبأشد وجوهه قلقاً، انتهى إلى إخراج إحدى قصاصاته المشهورة من جيبه، وقرأ لى منها، بالفرنسية:

«En Mésopotamie, le second millénaire avant Jésus Christ fut une époque de desordre presque continuel»(*)

قلت له: «يا للخبر الجديد! وبماذا تختلف تلك الفوضى شبه المتواصلة عما هو موجود فى الألفية الثانية بعد المسيح؟»

«هذا صحيح» قال بوقار، «وكانت شبه متواصلة كذلك فى الألفية الأولى قبل وبعد المسيح»

«ومن هو صاحب هذه الملاحظة بالغة الدقة؟»

«مؤرخ فن. يدعى هـ. ف. جانسون»

«لم أسمع به. أهو فرنسى؟».

«لا أظن. يبدو ألمانياً» أجابنى. وبعد ذلك داهمنا إغراء غير مسوغ بالضحك، ربما هو ردّ فعل عصبى دفاعى.

(*) فى بلاد ما بين النهرين، كانت الألفية الثانية قبل ميلاد المسيح فترة فوضى شبه متواصلة.

«أجل، أجل، فريديس مشوى!» قال بينتو أخيراً وهو يهز رأسه ويمسح عينيه الممتلئتين بالدموع بمنديل متسخ، وأضاف: »كل شىء صعب جداً إلى حد أظن معه أنه علينا رؤية أشياء مقيتة».

«مثل ماذا؟»

«رقصة هز البطن»

بدا لى اقتراحاً مناسباً جداً.

كانت هناك فرقة أوركسترا مؤلفة من خمسة موسيقيين، وربما ستة، ولكنهم يضجون بصخب ستين. لا يمكننى القول كم كان عددهم بالضبط، لكن المنصة الصغيرة التى لها شكل هلال، حيث كانوا يعزفون نشازهم، يزعقون، يولولون، يضربون، يثغون، ينشرون بمناشير، يعوون... إلخ، بين آلاتهم، وكانت الرؤية ضعيفة، وسط الدخان وبعض الأشياء المذهبة المتدلية. كنا بعيدين عنهم - لحسن الحظ! - لكن الموسيقى كانت قوية إلى حد يُستبعد معها أى نوع من التواصل السماعى الجانبى. ولم تكن هناك، من جهة أخرى، أى حاجة إليه. إذ كنا نكتفى بغمزة بالعين، أو حركة بالحواجب أو الأكتاف، أو تجعيد الأنف، بينما نحن نشرب العرق. ولكن هذا من بعيد فقط، ذلك أننا ما لبثنا، منذ ظهور الحسان الثلاث، وبدئهن هز بطونهن وأجزاء عدم حيائهن (لن يكون مناسباً فى هذه الحالة تسميتها أجزاء حيائهن)، حتى غرقنا فى خدر تنويم مغناطيسى.

كانت الموسيقى ترتعش، تئن، تتضرع، ولكن ليس برتابة المقدمات الموسيقية اللانهائية الشائعة فى هذا الجانب من الكوكب، وإنما يقودها دوماً إيقاع قوى من طبلات صغيرة وطبل عميق تعرف جيداً ما الذى تريده. كانت النساء الثلاث يخفين وجوههن، ليس كثيراً، بحجاب قصير وشفاف مثبت إلى الرأس بأشرطة مذهبة تتدلى منها عملات ذهبية، وعلى النهود التى بلا نوابض، لكنها بالغة المرونة وبديعة التصميم، غطاء حلمات ضئيل جداً من الذهب. وإلى أسفل، لمسافة طويلة، لا وجود سوى للبشرة، إلى مكان متقدم جداً من المنطقة الأقل شفافية. حيث تنورة من قماش شفاف، مثبتة بحزام من عملات مذهبة، منخفض جداً من الأمام، ومستند بالكاد على الردفين دائمى الحركة، تكشف عن الساقين. إحدى النساء تضع خلخالاً من الذهب فى أحد كاحليها، وأخرى تضع بالطريقة نفسها سلسلة (أقول مذهبة، من أجل التغيير)، وجميعهن حافيات الأقدام اللذيذة والصغيرة.

وهى ليست أقداماً صغيرة جداً فى حالة أشد النساء الثلاث سمرة وأطولهن قامة، بملامحها الناعمة وبشرتها المتجانسة التى لها لون الشاى بالحليب (لكنه شاى ثقيل جداً) من القدمين حتى الرأس، دون تلونات أخرى مرئية تستحق الذكر، وبذراعين وساقين طويلة، وجديلة سوداء طويلة، ويدين طويلتين، وقدمين رفيعتين طويلتين، وأوتار

بارزة. كانت تتحرك بطريقة أكثر تخلعاً ووحشية، لا أدرى كيف أعبر عن ذلك، ربما بطريقة أقل حسية ولا شك أنها أكثر إثارة من التموج السلس فى متوالية متقنة من ٨٨٨ لدى زميلتيها الأخريين اللتين بدتا لى - دون أن أكون خبيراً فى الموضوع - جميلتين تقليديتين عربيتين، أميرتى حريم، بيضاوين حليبيتين، بطنين من قشدة، طريين ودافئين (هكذا افترض)، من نمط جينا لولوبيرجيدا، خاضعتين، مترفتين، متساهلتين.

لكن «زنجيتى» كانت شيئاً آخر. تنفث رائحة وحشية من الصحراء، من عِرق أقدم عهداً، منقوعة بالعصور، منحوتة ومصقولة بالعواصف الرملية، مترعرعة على خشونة إيقاعات المخيمات والرحلات على الجمال عبر امتدادات رمال لا حصر لها (قال الشاعر).

من المحتمل أنه لم تُتح لك فرصة السفر على متن جمل، يا بروفيسورى الغالى. صحيح أن الجمال غير متوافرة بكثرة فى براغ. إنها تجربة فريدة، تصعب روايتها مثلما هى النشوة الصوفية كما يقال، وأنا لم أستمتع بها إلا فى جرعات محدودة جداً، بالرغم من ذلك لم أنجُ من داء يصيب السياح الذين يحاولون امتطاءها: دوار الجمل. فهذه الحيوانات الكئيبة تمشى بإيقاع معقد، علاقتها ضعيفة جداً أو معدومة تماماً بطريقة مشى الحصان. إذا ما شئت تمثيلاً هندسياً لمشية الجمل، فإن أقرب تمثيل هو توالى مثلثات قائمة الزاوية فى سلسلة مترابطة فى

ما بينها، رءوسها إلى أسفل ووترها إلى أعلى. فمع أن للجمل أربعة قوائم (فى الظاهر)، إلا أن إيقاع مشيته ثلاثى، ربما يمكن تشبيهه بمسير شاحنة إحدى عجلاتها أعلى من الأخريات، ولكنها مريعة. (لا تأخذ كل ما أقوله على محمل الجد يا بروفيسور، إننى «أوجز» كما يقول أحد مواطنىّ عندما يريد الظهور بمظهر الفصيح). يكون المرء معلقاً على ارتفاع نحو ثلاثة أمتار عن الأرض، فوق سرج خشبى مغطى بجلود، ويهتز ويتمايل بعنف، بسبب تلك المشية المثلثية، إلى الأمام وإلى اليسار بصورة مائلة (ضلع المثلث الأول)، وبعد ذلك إلى الوراء، ثم إلى الأمام ثانية، ولكن باتجاه اليمين فى هذه المرة (الضلع الثانى)، ويلى ذلك جانبياً من اليسار إلى اليمين (الوتر). وكل حركة هى مفاجأة، تحدث فى اتجاه معاكس لما يخمنه أحدنا، وتكون عنيفة على الدوام، إلى حدّ تتراخى معه الأسنان وفقرات الرقبة. ويراود المرء الشعور بأنه لا يتقدم أبداً، وإنما هو فى اهتزاز من جانب إلى آخر ومن الأمام إلى الوراء وحسب، مثل رقصة الكويكا المقيدة، ولكنه شعور خاطئ؛ فقوائم الجمل تنهب المسافات بطريقة باهرة. ينظر أحدنا إلى اليمين ويرى رفيقه العربى فى المشوار مسترخياً وباسماً، فالتعيس ينظر بسخرية، مستمتعاً بالاهتزاز، فى تموج إيقاعى من الرأس والجذع. لكن الوصول إلى ذلك يتطلب سنوات، أو ولادة المرء هنا. وأخيراً، عندما تنتهى الرحلة، ينزل أحدنا بإحساس شبيه بمرتفعات

الأنديز، مع رغبة فى التقيؤ، الارتماء على الأرض بضيق شديد فى جلده. إنه دوار الجمل.

اعذرنى لهذا الاستطراد، فهناك فى تلك المرأة، بطريقتها الإغمائية فى الحركة، شىء له علاقة بالجمل. حركة أفروديسكية.

وكان التهيج، من جانب آخر، مشتركاً بين بضعة وثلاثين رجلاً الذين نشكّل الجمهور، موزعين حول مناضد صغيرة دائرية، مشغولة بإتقان ومرصعة بالصدف، وفوقها كئوس عرق أو كونياك. حين جلت بنظرة دائرية، رأيتُ عيوناً ثابتة، ووجوهاً تلمع بالعرق، وألسنة حمراء تظهر من بين اللحى السوداء لترطيب الشفاه الجافة، وأيدى مجعدة، وأجساداً منتصبة ومنحنية إلى الأمام، بينما كان الإيقاع يتسارع أكثر فأكثر، والموسيقى تتصاعد حتى نغمات غم وجودى، الضيق الأبدى للشبق القديم، وتلك البطون الثلاثة العارية والرطبة تهتز، تدور وتقفز فى ارتجاجات تزداد حدّة، وخاصة لون الشاى بالحليب الذى لسمراء أغنيتى، حتى بلوغ ذروة عنيفة، شاخرة وعامة، ترافقها صيحات مبحوحة. ظلت الحسناوات الثلاث منحنيات لبرهة، ثم اختفين وسط حفيف حرير ورنين معدنى، بينما الفرقة الموسيقية تبدأ فى محاولات متتالية، مثل محرك يمتنع عن الانطلاق، مقطوعة جديدة من نوع آخر. كان هناك تصفيق، ضربات ببراجم الأصابع على المناضد، وخبط أقدام على الأرض، وامتدت سحابة من التعليقات وأخرى أشد كثافة بكثير من الدخان، لأن الجميع يدخنون بجنون.

عادت الراقصتان الأكثر بياضاً إلى الظهور، وجالتا من منضدة إلى أخرى لتلقى إكراميات الجمهور. وكان معظم أولئك السادة يدسون حزمة أوراقهم النقدية حيث تنتهى الحافة العلوية لتنورة السيدة بالضبط، عند الزغب القريب من أخدود «الحصالة؟» بدا لى ذلك ضرباً من سوء الذوق. وقد فعله كذلك بينتو بصورة طبيعية جداً وببطء شديد، وأرفق إكراميته بتعليقات بصوت خافت لم تبدُ لى بريئة.

«أترغب فى زيارتهن فى حجرتهن خلف المنصة؟»، سألنى بعد ذلك وهو يلعق بلسانه مثل هرّ. خامرتنى بعض الشكوك، ربما هو هاجس مسبق، إلا أننى وافقت. لكن «حجرات الكواليس»كانت مجرد غرفة صغيرة عفنة، مشبعة برائحة بول قديم، فيها مثلث مرآة مكسورة مثبت على الباب بمسمارين معقوفين، وكرسى واحد أعرج. كانت تجلس عليه إحدى الحسناوات، وهى أشدهن بياضاً ودهنية، بكتفين متهدلين ورأس منحن على صدرها، بنوع من الغيبوبة. وكانت الثانية تستند إلى الجدار الطينى المبيض بخشونة، وعيناها نصف مغمضتين. أما أكثرهن كمالاً فكانت زنجيتى التى تجلس على الأرض، وساقاها الطويلتان متقاطعتان أمامها فى وضع أشبه باليوجا، وظهرها المستوى جداً يستند إلى الجدار. وكانت جديلتها الثقيلة السوداء تتدلى من الأمام مثل أفعى، بعد لفة كاملة حول عنقها. نهضت واقفة دون

مشقة عند دخولنا برفقة صاحب المحل، وانتصبت بكل قامتها. وقد استطعتُ عندئذ ملاحظة أن القامة الماردة تزيد قليلاً عن طول قامتى، لكننى وجدتها أكثر جمالاً عن قرب. أبدت تصعيرة ازدراء حين انتبهت إلى الجشع (وهو جشع تصويرى) الذى أنظر به إليها، والتفت بمنديل شفاف تتخلله خيوط مذهبة لا يخفى شيئاً، لكنه أضفى عليها نوعاً من الحظوة أو التحفظ المفاجئ.

«إنها بربرية» قال بينتو موضحاً. توجه إليها صاحب المحل، وهو عربى قصير، له أنف ضخم فيه دمل شبه شعارية، مفرط فى التملق إلى أقصى الحدود، وقال لها بضع كلمات بفظاظة. فشددت هى من تكشيرة ازدرائها واستدارت نصف استدارة باتجاه الجدار. ألح الرجل بقدر أكبر من الفظاظة، لكنها واصلت صمتها. بعد ذلك، وبابتسامة بالغة الزيف، وكثير من التملق وفرك اليدين توجه الرجل إلى بينتو المتهاون بخطبة حامية لأربع أو خمس دقائق.

«ماذا يقول؟» سألته.

«إنه يتكلم عن السعر» أجابنى البدين، وأضاف: «هذا الرجل تاجر يتولى إحضارهن».

«أى سعر يعنى؟ هل يستغلهن كعاهرات؟»

نظر إلىّ بينتو نظرة استغراب وابتسم: «لا يا عزيزى. ليس هذا ما يعنيه. إنه يبيعهن».

اقترب الرجل من امرأة أخرى، تلك التى تقف مستندة إلى الجدار وجعلها تتقدم إلى منتصف الغرفة

المضاء بمصباح شاحب. أصدر لها أصوات حلقية آمرة، فرفعت المرأة ذراعيها وبدأت تدور حول نفسها ببطء. فى تلك اللحظة انتبهت إلى أن العملات الذهبية التى على البرقع والحزام هى من أرخص أنواع الصفيح، ربما هى أغطية زجاجات بيرة مسطحة ومطلية بالأصفر. أحسست كما لو أننى فى الحجرة الخلفية لسيرك تشيلى بائس.

أشار ذلك الشخص إلى نهدىّ المرأة وهو يلمسهما بأصابعه القصيرة كثيفة الشعر، وكثيرة العقد والممتلئة بالخواتم، ثم التفت إلينا بملامح داعرة، جاعلاً عينيه تدوران ومتلمظاً بلسانه، بينما هو يقول شيئاً بنبرة مستدعية. اقترب بينتو من المرأة التى كانت تتمايل قليلاً، وتلمس نهديها بتلذذ، ثم تلفظ بتعليق ينم عن الإعجاب. وضع الرجل يده على وجه المرأة، ثم قرصها فجأة من خدها. فأطلقت صرخة خفيفة. أجبرها على فتح فمها ورفع شفتها العليا بأظفاره السوداء، كى نرى متانة أسنانها واكتمالها.

أحسستُ بالغثيان، بالرغبة فى الهرب، فى قتل أحد ما. لكننى ظللتُ مسمراً هناك، بينما بينتو يخوض جدلاً مماطلاً مع الرجل، حول السعر على ما أخمن، والنوعية، وشروط الدفع، وكل ما يمكن تخيله. وتواصل تفحص النساء ـ بمن فيهن المزدرية السمراء التى سمحت له بذلك دون أن تتخلى عن كبريائها المتعالية ـ بدقة تفصيلية، سنتيمتر فسنتيمتر، بما فى ذلك الإليتين، والشرج، والأعضاء الجنسية، إلخ.

«فلنخرج من هذا المكان؟» قلتُ لبينتو.

نظر إلىّ بدهشة. وبادرت إلى الخروج فوراً. تأخر البدين قليلاً فى مساومة ما. وفى الخارج، استنشقتُ بعمق هواء الشارع البارد. وكانت السماء مفعمة بعدد كبير جداً من مجموعات النجوم الدافئة.

خرج بينتو بعد بضع دقائق، بطريقته المتعثرة المتكاسلة فى المشى، ونظر إلىّ بثبات.

«ماذا؟» قلت له، «أنت تعمل فى تجارة الرقيق الأبيض إذاً».

«أبيض؟ يا رجل! لماذا يجب أن يكنّ بالضرورة بيضاوات؟ يمكن أن يكنَّ زنجيات، خلاسيات، صفراوات؟» وأطلق قهقهة وقحة. لم أرافقه فيها. اكتسى بالجدية فجأة وقال: «لا، يا فتى، هذا شىء لا أمارسه. ربما أكون قد فعلت فى أزمنة أخرى، وبصورة هامشية. ولكن لا، لم يعد الأمر كذلك».

لم يقل المزيد. وأنا أيضاً لم أقل المزيد. افترقنا باستياء متبادل. المشكلة مع بينتو ليست فى معرفة إذا كان يكذب أم يقول الصدق، وإذا كان يتكلم بجد أم مزاحاً. لكننى لا أستطيع أن أنسى أنه أثبت أنه صديق حقيقى، وبطريقة محددة جداً. ربما لستُ سوى قواد مصلحى ومركنتيلى. لقد أبدى ساشا بعض التلميحات السيئة بشأنه. لستُ أدرى، لستُ أدرى. لا أستطيع تصوره عميلاً سرياً أو شيئاً من هذا القبيل. أظن أنى أتفهم دوافعه. أم أننى أرتكب خطأ شنيعاً؟

وفى البيت، قمت برسم العديد من الرسوم التخطيطية للنساء الثلاث، من الذاكرة، فى حلبة الرقص وفى تلك الحجرة الضيقة حيث جرى عرضهن للبيع. وكما يمكن لك أن تتصور، فقد انكببت بصورة خاصة على رسم السمراء. وبينتو الذى يعرف الكثير عن شمالى إفريقيا، قال إنها بربرية، وربما من الجزائر. لقد استحوذت على عقلى بجمالها، بتكشيرتها المتجهمة، وبكبريائها المبهم. كنت أرغب فى رؤيتها من جديد، كى أرسمها. أريد مراقبتها فى مشاهد أخرى محيطة بها. لا تسئ التفكير أيها البروفيسور. لستُ أنكر أنها امرأة مثيرة، حصيلة صافية مكررة عبر قرون من المعاناة، ويمكن لها أن تكسب فى باريس مبالغ كبيرة بالعمل موديلاً لمجموعات أزياء الربيع، أو أى فصل آخر، لدى بيوتات الأزياء الكبرى. هذه هى الحاجة الملحة التى تُثقل علىّ لأضع فى لوحة ما أراه وما أشعر به من أجل... لست أدرى من أجل أى برازا ربما:

- من أجل أن أكسب الكثير من المال وأبدل هذه الحياة.
- من أجل أن أثبت للهوينكا أن المابوتشيين قادرون أيضاً.
- من أجل أن أقول شيئاً للعالم.
- من أجل أن يقدرونى.
- من أجل أن يحبونى.

ـ من أجل أن أكتشف سر حيوات الآخرين.

ـ من أجل أن أسيطر على الأشكال والألوان.

ـ من أجل أن أتسلى...

لا شيء من هذا، لا شيء من هذا. (إنما هذا كله أيضاً). وأنت ما رأيك؟

لقد حملتنى رقصة البطن إلى ذكريات أخرى عن الجنس الجماعى أو أجواء الجنس المشتركة. ذاك الذى يسميه الألمان «جروبن سكس» لا أدرى إذا ما كانت لك تجربة ما فى هذا الموضوع. اعذرنى.

عندما كنت أتبادل الحديث، فى براغ، مع أناس شباب، من الطلاب تحديداً، سمعت أكثر من مرة إشارات إلى طقوس قديمة ربيعية أو صيفية، سلافية أو جيرمانية أو سلتية، مازالت تحافظ على وجودها فى الاشتراكية والتصنيع وكل الأمور الأخرى. إنها رحلات طويلة إلى الغابات تقوم بها جماعات كبيرة جداً من الشباب والشابات المزودين بجيتارات، وسجق، ومشروبات كحولية، وأغطية، وخيام فى بعض الأحيان، ولكن هذه الأخيرة ليست ضرورية. وعند الفجر، بعد الغناء، ووضع أكاليل أزهار على الجباه الأنثوية العذراء، إلى هذا الحد أو ذاك، وبعد الرقص العارى الجماعى حول موقد، تنتهى تلك النشاطات بمضاجعات مكثفة ومتكررة، تصاحبها هتافات وصرخات رياضية.

وفى أحيان أخرى، يتطلب الطقس تقاليده الخاصة على هامش بعض النشاطات «الرسمية؟» مثل

المهرجانات الفولكلورية السنوية فى بعض قرى مورافيا، حيث تلتقى حشود شابة، وغير شابة، من الجنسين، يرقصون ويغنون ويشربون نبيذ سيلفان المخادع طيلة ثلاثة أيام، وينامون خارج بيوتهم، بصورة غرامية فى معظم الأحيان، طوال الليالى الثلاث، متقلبين أزواجاً أزواجاً فى الحدائق والغابات المحيطة بالقرية؛ ومدعوون آخرون، بمن فى ذلك أجانب ذوى عادات أقل برية، يفعلون الشىء نفسه مع فتيات محليات يجدونهن فى أماكن طوارئ تهيئها سلطات الدولة الاشتراكية، فى سبيل تشجيع الثقافة الشعبية، فى المدارس، والفنادق الرخيصة، والمدارس الداخلية، والملاعب الرياضية، وغرف النوم فى ثكنات الإطفائيين، وغيرها.

ولا تقل لى يا عزيزى البروفيسور إن دورات السبارتاكياد ذائعة الصيت كل أربع سنوات ليست استجابة لهذا الدافع الجماعى المتأصل، وإن لم يُعلن عن هذا الدافع فى الإعلانات الغنائية التى تكرسها لها صحافة البلاد.

وأنا أتيحت لى فى الواقع مناسبات قليلة جداً لممارسة الجنس الجماعى، وأقول هذا بشعور من الحنين. أتذكر، دون حنين، فندق «عشاق» مشهور فى شارع أوروميبّو فى مدينة كونثيبثيون. لقد كان عنبراً تقليدى البساطة، شبه صناعى، له سقف حديدى وبوابة نصف مفتوحة على الدوام. إنه بناء فظ، وعملاً بطلب مالكته، قُسم ذلك المكان المستطيل من الداخل

بسلسلة ألواح خشبية مجلوبة من أنقاض عملية هدم بيوت قديمة، وتُرك فيه ممران طويلان متوازيان. وعلى جانبى الممرين أقيمت حجيرات عديدة، تؤجر «بالدقائق»أو «لليلة».

وبحس اقتصادى واستعمالى هندسى شديد الصرامة، كانت ألواح الخشب الفاصلة بين حجيرة وأخرى مثبتة إلى أعمدة خشبية، ولا تصل حتى السقف، كما أنها لا تصل حتى الأرض. وهذا يتيح الحصول على جو واحد مشترك، حيث الهواء والأصوات والروائح المشتركة تتقاسمها أزواج العاشقين جميعهم، وكل ثنائى منهم فى حجيرته يقوم بعمله على السرير الضيق الخاص. فكانت التأوهات، والهمسات، والأنين، والضحكات المفاجئة، أو غيرها من عبارات الغم، والتهيج، والألم، أى كل أصوات المتعة فى نهاية المطاف، تبدو مشتركة بين الجميع، وهو عامل يؤثر كمحرض قوى، وإن كان مُحبِطاً لبعض المتكلفين. ويتخذ الأمر طبيعة أخرى فى بعض المناسبات، عندما يكون هناك أشخاص ميالون إلى hueveo (وهذه الكلمة التشيلية لم تعد غريبة عليك: إنها من الفعل huevear) فيعقدون المراهنات، ويطلقون تعليقات أو أصواتاً مشجعة («بدأتُ الهجوم فى الحجرية رقم ٨»، «عليك بها أيها الخطاف!؟»، «نتحدى ثنائى الحجرية رقم ١٥، من ينتهى مرات أكثر خلال ثلاثين دقيقة» أو يحتفلون، بتعليق ذكى أحياناً، وفى أحيان أخرى بأشد العبارات المباشرة بذاءة،

صرير النوابض المتخلعة، خوارات مسبقة لبعض الذكور، مبالغ فيها عن عمد، تأوهات بعض عاثرات الحظ.

ولكن فى براغ نفسها، المدينة المتحضرة والمعمورة، يمكن أن تحدث ظواهر «جماعية»، مثلما يقول الاثنولوجيون فى مصطلحاتهم الخاصة. أتذكر عصر يوم صيفى ذى حر شبه استوائى، كنت أتنزه فيه مع إيفا عبر vyhlidkova cesta (كيف يُترجم هذا: هل بدرب التأملات، طريق الإطلالة، الممر البانورامى؟)، الذى يتعرج على ارتفاع متوسط، متبعاً انحناءات جبل بيترين، وسط أزهار وأشجار وأعشاب شذية. وفجأة دوى صوت رعد كأنه انفجار مدفع، دفعنا إلى الضحك ببلاهة من النكتة التقليدية: «ها هم هنا» (من هم: الروس، الأمريكيون، الألمان؟)، ثم انهمرت بعد ذلك أمطار جديرة بسومرست موم. ركضنا، وقد تبللنا تماماً بعد خطوات قليلة، ووجدنا ملجأ فى نوع من المغارة المفتوحة من الجانبين، أو أنه بعبارة أفضل، نفق صغير، شقه معماريو المدينة فى القرن الماضى عبر الجبل من أجل مواصلة الدرب وتجنب التفافة طويلة جداً. كان المطر يهطل دون توقف ويشكل ستارة عند مدخل ومخرج ذلك المأوى الذى ظلت أرضه الرملية جافة. كان هناك إحساس بحرٍ رحمى، وشعور براحة بهيمية. وسرعان ما بدأنا نتعرق. وكان ماء المطر لا يزال ينهمر أمامنا وخلفنا. وعلى الجزء العلوى من مخبئنا تمتد نبتة متسلقة.

بدأنا بتبادل القبلات كالعادة، ولكن قبلاتنا راحت تطول أكثر فأكثر وتصير أعمق، ترافقها مداعبات جسدية، مما بعث فينا حرارة لا يمكن التحكم بها. بدأنا نوعاً من الرقصة الثابتة. وفى أثناء ذلك، دخل عاشقان آخران مبللان يركضان ويضحكان. وجها إلينا نظرة سريعة وتوقفا قريباً منا. وبعد ذلك، كما فى جمع، دخل زوجان آخران، ثلاثة، أربعة أزواج من العشاق. وصرنا جميعنا محشورين فى تماس متبادل.

وبوصول كل ذلك العدد من الناس، خففنا من تبادل معانقاتنا الشبقة، لكننا لم نتباعد أحدنا عن الآخر. والأصح أننا ازددنا التصاقاً إلى أن أحس كل منا بنتوءات الآخر. كانت حدة الحر تزداد اشتداداً. وكان المطر يواصل هطوله. ولم يكن هناك من يتكلم. كانت تسمع فقط بعض الضحكات المكتومة، ويُسمع أكثر فأكثر حفيف حركات، ورفع ملابس أو إبعادها بعنف أصم، وفرقعات قبلات منطفئة. لست أدرى من كان الأول أو الأولى. والحقيقة أننا فى لحظة قررتها بصورة ضمنية البيولوجية أو أى شىء آخر، فى تواصل سابق على اللغة المحكية، كنا جميعنا نهتز، كل نعجة مع شريكها، فى جماع عفوى وجماعى يستجيب لعصا قائد أوركسترا واحدة، كان ذلك كما لو أنه سعى إلى الإيمان بكائن علوى، حتى يصل الجميع معاً، كما فى مسرحية «فوينتى أوبيخونا»، إلى الخاتمة العنيفة، اللذيذة، المتطاولة، العظيمة. (يمكنك إضافة صفات أخرى إذا رغبت). كان التزامن دقيقاً بحيث إن المطر

وصل إلى نهايته مع آخر الحشرجات، وعندما خرجنا، بتمدن، دون نظرات فضول مواربة، أطلت شمس باهرة الإشراق على خضرة الرابية التى بدأت تطلق البخار.

لكن مثل هذه الفرص نادرة جداً فى الحياة الحديثة، على الرغم من إلحاح الحنين إلى تلك المأدبة التى لا تقتصر على الأكل وحده.

أترك جانباً التفلسف الرخيص لأننى أرى أن الوقت قد حان لإنهاء هذه الرسالة. وساشا، كما قلتُ لك، سيكون هو حاملها مرة أخرى. أظن أننى سأذهب من جديد إلى فيينا فى مارس أو إبريل، وإذا ما سمح لنا الوقت، قد نتمكن من تكرير لقائنا فى براتسلافا. ما رأيك إذا ما أتيح لك الحصول على تأشيرة وتصريح للقاء معى فى فيينا؟ سيكون ذلك جيداً. إذا لم يتحقق هذا المشروع، فإننى أظن أننا سنذهب، أنا وإيفا، فى شهر يوليو إلى براغ للبقاء والاستقرار هناك.

وفى هذه الأثناء، أنا أشتغل وأشتغل. لقد عدت إلى الوراء فى بعض اللوحات، وقد أنهيت بعض مجموعات الحفر. وكنت أهيئ القائمة النهائية، إلى هذا الحد أو ذاك، لمعرض سانتياجو، وسأرسلها إليك فيما بعد. وأنا أقوم بإرسال اللوحات المنتهية إلى الصديق كوسرا كى يحتفظ بها فى فيينا، من أجل تعليبها فى الوقت المناسب وإرسالها إلى تشيلى.

وباختصار، سيكون بإمكانك رؤية اللوحات إذا ما ذهبتَ إلى فيينا يا عزيزى جوزيف. أتظن أنك ستستطيع ذلك؟

لا أريد الإطالة أكثر. أما بالنسبة إلى زكية، فمن الأفضل...

لك عناق صديقك وابن أخيك تقريباً + نسيبك المخلص،

هـ

ملاحظات على الرسالة الحادية عشرة

فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٦١ يوم جاحد، غيوم منخفضة كأنها حاجز باراباان وريح رطبة وجليدية فى وقت نفسه، تتجدد من محطة قطار رئيسية حتى متحف وطنى، وبعد ذلك عبر ستالينوفا. لحظة هناك، حيث الشارع جسراً فوق سكة الحديد، مشهد الهباب، حديد أسود وخطوط سكة لامعة تسافر إلى بعيد (هذا يقود دوماً إلى تفكير سوداوى)، مثلما يحدث فى براغ كل مرة أتوقف للنظر. زفرة والتقدم قدماً.

كانت ضرورية رحلة إلى براغ بالقطار من أجل رسالة رسام، فى بيت ساشا فيسبيرك، شارع إيتاليسكا، قريباً جداً من ستالينوفا. فى يوم ما هذا الشارع القديم اسمه القديم سيستعيد، فينوهرادسكا، وهذا يمكن ترجمته «شارع هضاب النبيذ» إنه حى هضاب ناعمة متموجة (هضاب؟ آه، إنها اليوم شوارع مرصوفة) حيث فى أحد الأيام، تقول الأسطورة، فى أزمنة ملوك بوهيميا، كانت تنمو كروم العنب.

كتلة محطة إذاعة ضخمة أجتاز، وأخيراً أكون فى شارع إيتالسكا الذى يُشَرِّف اسمه. إنه جو هجران. بيوت عالية من آجر مزعزع، ولافتة كثيرة،

تـلـح: «Pozor, pada omitka». وهـذا يمـكن تـرجـمـتـه بـالقول: «تـوخى الحـذر، جبس يتساقط» هـذه ترجمة تقريبة، لأنه ليس الجبس أساساً، وليس جبس وحده هو ما يسقط، ولكن قطع حجارة، يكون أثرها جدياً جداً عندما تسقط على جماجم (حتى لو كانت مصرية)، وقطع آجر، وملاط، وفى بعض الأحيان أجزاء كبيرة من حجر، ربما تماثيل ملائكة بكاملها تسقط، ومثل قنابل على الرصيف تتفجر.

مصعد من التى يفتح بابها فقط بوضع، فى شق خاص، قطعة عملة معدنية فئة ٢٥ هيلر (لحسن حظ لدى واحدة فى جيبى) وصعود بطىء، متردد، مع صوت احتكاك آجر. عادة استخدام هذه مصاعد انتهت، مصعد فى بيتى فى أوستى صامت، جديد، وبلا قطعة نقد. هذا هنا يُذكّر بأيام طلابية قبل الحرب، مفعمة ببراءة كثيرة.

أصل إلى بيت ساشا، أُستقبل بمودة من الزوجة مارجيت، أو تصغير أكثر ماركيتا، فى صالة مختنقة بأثاث، ورفوف كتب، ومزهريات، وبيانو، وقطع قماش صغيرة مطرزة، وصور عائلية فى أطر قاتمة، كثير جداً، بعضها صغيرة مثل صورة شخصية صغيرة، تغطى حتى عالى جداً الجدار الوحيد الفارغ، وعلى رف ذى علامات سوداء، هناك فى كأس زجاج، علم تشيلى صغير مع ساريته.

يظهر ساشا، عينان حمراوان، شعر رمادى قليل ومشعث، واضح أنه كان ينام. أطلب منه معذرة، يقول

«هذا غير مهم، منذ رجوع من بغداد، ساعات طويلة نوم، إننى مثل دب فى سبات شتوى، أعراض إنهاك أو سنوات ثقيلة. لم نعد شباباً».

يسلمنى رسالة (رقم ١١) ونجلس نشرب قهوة مع حلويات بريتزيل لذيذة صناعة بيتية.

يتهد ساشا: «أنت تعرف، أنا غير متدين يا رجل، ولكن أرجو من الله أن لا يحدث شىء لهويركيو وابنة أخيك، ويرجعا سليمين وحيين. لدى هواجس سوداء».

تحدثنا طويلاً. وفيسبيرك ألح على مخاوفه سابقة: علاقة هويركيو مع معارضين أكراد وناس آخرين (من إيماءته عرفت أنه يعنى بينتو)، وضع سياسى حساس جداً فى بغداد. قال لى إن هويركيو يختفى فجأة يومين، ثلاثة أيام. لا شىء يُعرف عنه. ولا يخبر إيفا أيضاً.

«هل هناك امرأة؟» سألته.

«هذا لا يسبب لى قلق كثير» قال، «ليس امرأة أخرى، أخشى شيئاً آخر. ربما أجل: يحدث شىء مع تلك الفتاة. لكن خطر أكبر هو ارتباط بجماعات. مجرد شكوك يمكن أن تعنى الموت. هكذا الحال».

مع ذلك، لم يكن ساشا أكثر دقة. سرعان ما حوّل هو أو ماركيتا حديث فى اتجاه آخر. أرادا حديث عن تشيلى. وهنا يتحدثان مثل وطنيين تشيليين، ومقاطعة متبادلة فى حديث.

هو قال مرة ذهب مع تشيكيى ممثلية تجارية فى سانتياجو لصيد أسماك ترويت من نهر صَغير فى

أعالى جبل. «هم زاغت عيونهم من ذهول حين بدؤوا يصطادون ترويت بديع واحدة بعد أخرى، فضية مع بقع حمراء صغيرة. تأكل طعم فور إلقاء صنارة. لا يمكن تصديق ذلك. أخرجنا عشرين أو ثلاثين، لا أتذكر، كنا نختار كبار فقط، وأخريات نعيدها إلى النهر، سيل أبيض متدفق، قوة ماء تحرك أحجاراً كبيرة بدوى رعد. أحدهم قال لى: فى هذا الجدول توجد أسماك أكثر من بوهيميا كلها».

ماركيتا تحدثت عن مناظر الجنوب، عن ثلوج هائلة على سلسلة جبال قرب سانتياجو. وتحدث ساشا عن الأنبذة. وماركيتا قالت عن دفء الناس، بساطة كبيرة لرفاق ورفيقات، وشرح ساشا نظرية ألاعيب الفطائر وقلة هدوء المحيط الهادى. تذكرت ماركيتا نيرودا فى ميتشواكان (أتعنى المكسيك؟) انخرطت فى البكاء. قال لها ساشا لا تبكى وراح يبكى أيضاً.

شعرت، يجب أن أقول، بشىء من مفاجأة. قلت لهما: اعذرا عدم فهمى. ولكنكما، حسب ما فهمت، شيوعيان، صحيح؟

قالا لى باستغراب نعم.

«أنتما، مثلى، مثل كثيرين، عانيتما من نازية. سنوات طويلة اضطررتم الابتعاد عن مسقط الرأس، هذه المدينة، عن أسرة، وأصدقاء، ولغة».

«صحيح هذا. ماذا تريد تقول؟» قالت ماركيتا

«حسن. وقد عدتم، وأنتما هنا الآن. الوطن اشتراكى، مثلما حلمتما. والابنة، كما علمت، موجودة هنا أيضاً، وقريباً تصير مهندسة».

«ثم ماذا؟» قال فيسبيرك، تقريباً مهدداً.

قلت له: «المرء يتساءل، لماذا تذكر بلد أميركى جنوبى بعيد، عن بلدنا مختلف كثيراً، هو بلد رأسمالى بكل تأكيد ...».

ماركيتا: «أكيد».

«وفوق ذلك، بلد متخلف، أظن».

ساشا: «أجل»

«غير مفهوم جيداً لماذا تذكره يثير كثيراً من انفعال. هل رد فعل عاطفى فقط؟».

نظر كلاهما إلىَّ أنا بعيون كبيرة جداً، منزعجين وغير مرتاحين. صمت هائل لا أحد يتجرأ كسره. أخيراً، نظف ساشا حنجرة، وقال بتوتر وبعينين حمراوين، متوجهاً إلىّ أول مرة دون كلفة:

انظر يا جوزيف، أظن أنت قادر على الفهم. فى تلك بلاد بعيدة، إكزوتيكية، وعبثية إذا شئت، وباعثة على الضيق، عندما قررنا ذهاب إلى هناك أظن لم نكن سمعنا باسم تلك بلاد قط، حسن: لم يمدوا لنا اليد هناك فقط. استقبلونا بأذرع مفتوحة! عندما وصلنا، كانت تشيلى مثل أبعد إقليم صغير فى العالم. صراعات سياسية حامية جداً وتاريخ مذابح مريعة لعمال، لكن رئيس بلاد أسمر وضئيل يتمشى فى

الشارع متأبطاً ذراع زوجته، دونيا خوانيتا. رأيناه بأم أعيننا! استقبلنا أناس فقراء جداً فى بيوتهم باردة جداً فى شتاء، حيث الجميع يبقون لابسين معاطف، ولفاعات، وبعض قبعات، وحتى قفازات تحت سقوف البيوت، ويتزاحمون حول مجامر يُحرق فيها كربون، يُستنشق غاز سام فى كل مكان، لكنهم دوماً يريدون تقاسم كل شىء. يدعوننا كأنهم سادة عظام. ينظرون إلينا بتقدير لا يصدق لأننا آتين من أوروبا، ربما، ولكن قبل كل شىء آخر لأننا رفاق، ولأننا مثلهم نحب ثورة. ولابد من سماعهم هم، تشيليون وتشيليات، كيف ينطقون هذه كلمة: «رفاق» بأعمق دفء حميم، ولكن دون تبجح مفتعل. مثلما لا نسمعها هنا أبداً، أو نسمعها فى أحيان قليلة فقط، لا أدرى، من كانوا فى سجن أو فى معتقل. إذاً، عزيزى جوزيف؟، إذا ما خامرنا شك يوماً، والشك من صفات إنسان، مهما كان ستالين يقول إن الشيوعيين هم من طينة خاصة، عندما كنا هناك، فى جانب آخر من عالم، أولئك الناس شديدو عناد ونقاء، تركنا كل أنواع شك، وعرفنا أن فى نضالنا حقيقة عميقة. ألا ترين ذلك يا ماركيتا؟

كانت قد استمعت بكل أقصى انتباه وتأخرت فى رد. وأخيراً هزت رأسها: «أتعرف يا ساشا؟ أنا لستُ متأكدة. أنت عندك حقيقة، ولكنك تقول سياسة. هناك شىء موجود من قبل، كأن نقول: أخوة بسيطة إنسانية. مجتمع أقل تسمماً. المسألة ليس رفاقاً

وحسب. هناك آخرون، سياسياً واجتماعياً بعيدون وكانوا أصدقاء لنا. وغير يهود» أكدت رافعة إصبعها. «ربما في تشيلي خرجنا أول مرة من الجيتو».

«ألسنا ننظر بمثالية؟» قال ساشا بصوت أجش كثيراً، وبدأ يملأ كؤوس نبيذ.

«ولم لا» قالت ماركيتا، «كنا آنذاك الشباب. الحنين يجلب دموعاً. وخاصة إذا كان ذلك حنين ينطلق من مرحلة شباب».

بعد هذا، صرت أنا نفسي مشوشاً وممسوساً بعض شيء، شربنا نخب ذلك بلد غريب، الذي مثل شريط، بين سلسلة جبال كبرى ومحيط عظيم، مع هزة روح غريبة، بالنسبة لي على الأقل.

قرأت رسالة هويركيو الطويلة عدة مرات وبعد ذلك، عند عودتي إلى أوستي، خلال ساعتين أو أكثر، لفظياً ترجمتها كلمة كلمة لروزينا، ومن تبدلات في ملامح وجهها، ابتسامات مفاجئة، جبهة مجعدة لحظة، عيون جدية أو باسمة، جعلتني أفهم كثيراً أكثر معنى كل كلمة يقولها رسام. وأخيراً، سألتني وهي مستغرقة تفكير:

«عينا إيفا زرقاوين، صحيح؟».

«أجل، صحيح، إنهما زرقاوان جداً.«

«هو يتكلم عن نظرة خضراء...».

«هذا اقتباس. هكذا يقول بيت شعر نيرودا»

«هممم. كان بإمكانه أن يقول نظرة زرقاء مطولة»

«هو يستطيع، ولكن عندئذ لا شعر. بيت شعر يتكلم عن أخضر».

«هممم. وتلك الفتاة التى تكلم عنها ساشا، وتتكلم عنها أنت، التى يعرفها... الكردية، ما اسمها؟».

«آه، أجل. زكية».

«يا له من اسم!».

«وما هو السيئ أو الخاص فيه؟ إنه اسم كردى».

«هى لها عينان خضراوان، صحيح؟».

«لا أعرف. أعنى، أجل. هويركيو قال فى واحدة رسالة إن لها عينين رماديتين خضراوان، شىء هكذا».

«ليس رسالة واحدة، بل رسائل كثيرة».

«ممكن. هل أنت متأكدة؟».

«أجل». ظلت مستغرقة فى تفكير وقتاً طويلاً. وبعد ذلك تنهدت وقالت: «مسكينة صديقتى إيفا».

أردت أن أناقش، أو بكلمة أصح، أن أدحض كلامها بنزق، ولكن كالعادة فى هذه ظروف، التزمتُ صمت. النزق لا يساعد.

ولكن تقليب كلماته، مواصلتها، مرة أخرى إعادة قراءة رسالة، فى نهايتها تقريباً ترد عبارة مبتورة، لغز: «أما بالنسبة إلى زكية، من الأفضل...» ولا شىء أكثر! هنا شعر بندم. عاهدت نفسى سؤال رسام فى فرصة قادمة.

لكن زمن هذه فرصة لم يأت. فى شهور أولى من ١٩٦٢ لم كان رسائل ولا أى اتصال تقريباً. فقط حديث تلفونى بين العزيزة ريبيكا وإيفا فى إبريل، بمناسبة عيد ميلادها (أعنى ريبيكا)، عبارات متقطعة

تُحدث صدى، لا شىء مفهوم تقريباً. فى مايو وصلت بطاقة بريد أرسلها هويركيو من اسطنبول، عليها صورة جسر «جلاطة» جميل. ولا توضح أى شىء كذلك، مجرد جملتين أو ثلاث حول روعة سياحة، والمؤسف أنه سافر دون مرافقة إيفا. لماذا دون؟

فى أواخر يونيو ، بفضل شابة عراقية متزوجة من بولونى ومسافرة إلى فرصوفيا، وصلتنا كلماته أخيراً.

المخطوطة فى المنفى

رافقتنى إلى كل مكان فى المنفى، وفيّةً أكثر من فيديلا (وفاء)، زوجتى فى تلك الأزمنة، التى بدأتُ وإياها بالافتراق فى السرير، كى نفترق بعد ذلك فى الغرفة، وأخيراً فى الدروب، فى برلين. أراق عليها أحدهم فى مدينة سانتافيه كوب متة قاتماً، ومع أننى جففتها ونظفتها بسرعة، فقد ظلت فيها لطخة مائلة إلى الخضرة، تشبه خريطة جزيرة باسكوا (أعنى المخطوطة بالطبع). لأن اللطخات فى فيديلا لا تُرى.

التضامن فى سانتافيه كان مؤثراً ووافراً. يُعبر عنه بصورة خاصة فى حفلات شواء ونبيذ أحمر. ونحن التشيليين الذين انتهى بنا المطاف فى تلك الأنحاء كنا مجرد حفنة صغيرة، خمسة أو ستة أشخاص، أو ربما سبعة، زوجان وفرد من المتزوجين، وزوج من الطلاب، وأرملة مبكرة، فى حوالى العشرين من عمرها. وكنا جميعنا فى البانسيون نفسه. وكانت إدارة المحافظة تتولى نفقات الإقامة والطعام.

كانت الأرملة مصدومة إلى حدّ توقظنا معه كل ليلة على ولولات حقيقية. زوجها كان يعمل مراقباً فى مصنع نسيج، جاءوا فى طلبه يوم الثانى عشر من سبتمبر فى الصباح الباكر، كى يقوم بممارسة عمله الإدارى فى المصنع، حسب ما قال له بلطف قائد الدورية، وهو نقيب شديد التهذب من الجيش التشيلى الذى لا يُقهر. انتظروه إلى أن استحم، وارتدى ثيابه، وأحكم ربطة عنقه، وتناول القهوة، وودع أطفاله وقبّل زوجته. وفى اليوم التالى عُثر عليه فى نهر مابوتشى. أخرجوه من النهر على مقربة من كلية الحقوق وفى جسده ثقوب إحدى عشرة رصاصة.

لقد بدأتُ فى أول الأمر بتسجيل هذه الحالات واحدة فواحدة فى دفتر من مئتى صفحة، له غلاف سميك. وكنتُ أُلصق كذلك قصاصات، ومقاطع من رسائل، وبرقيات وكالات أنباء أحصل عليها من محطة إذاعة محلية (حيث أجروا معى حوالى ست مقابلات)، وبرقيات تتضمن رسائل تضامن، وأخباراً مطبوعة حول نشاطات تضامنية، وغيرها. وهكذا راح يتشكل لدى المخطوط رقم ٢ والذى لم أستطع قط أن أحدد بوضوح المصير الذى انتهى إليه. كنت أفكر أحياناً فى أنه يمكن أن ينفع كقاعدة بيانات لكتاب، أو لشكوى تقدم إلى الأمم المتحدة، وما أدرانى لأية أشياء أخرى.. وربما من أجل تربية أحفادى. وفى أواخر العام ١٩٧٤ خارت همتى وتوقفت عن تغذيته. كان قد تحول إلى كرش ممسوخ، أحتفظ به مربوطاً بخيط سميك. وكانت تُطل من صفحاته فى ذلك الحين ألسنة ورقية

متنوعة، وعند فتحه يطلق نوعاً من زفير الراحة وتفلت منه الوثائق فى كل الاتجاهات، لأننى كنت قد تخليت عن مواصلة الإلصاق وصرت أدس الأوراق فيه هكذا، مفلتة.

فى تلك الأثناء، كنت فى محطة منفاى الرابعة وفى زواجى الثالث، وكنت فى نزاع مع الحزب، وأشك فى أفول الدكتاتورية وفى سقوط بينوشيه الوشيك. وكانت المخطوطة رقم ٢ هى التى انزلقت إلى مهاوى النسيان، مع أوراق أخرى كنت أحرص عليها فى البدء كما لو أنها عظام قديس. وقد فقدتها أخيراً، ربما أخذها أحدهم، أو ربما نسيتها فى أحد البارات، وربما كانت فى الحقيبة العتيقة التى انتزعها تركىٌّ من يدى، بشدةٍ واحدة، بينما كنت أتفرج على واجهة محل بورنو ـ شوب بالقرب من محطة حديقة الحيوان فى برلين (الغربية). وسأكون كاذباً إذا ما قلت إننى أسفتُ عليها. إننى أتذكرها أحياناً بشىء من الحنين، أو أفكر ـ بينما أنا أكتب مقالاً لـ «**تشيلى تناضل**» أو «**تشيلى الديمقراطية**» أو «**تشيلى تقاوم**» أو «**تشيلى المناهضة للفاشية**» أو أى نشرة أخرى من نشرات التشيلينتشين الباتريوتين ـ فى أنه كان من المفيد وجود المخطوطة بين يدى للاقتباس من خطاب للطاغية. لقد تلاشت مثلما تلاشى كل شىء تقريباً حتى نسيتها تماماً فى السنوات الأخيرة. وحتى اليوم. كلمة صدق.

أما المخطوطة الأخرى، المخطوطة رقم ١ الأصلية، فلم تفارقنى قط. ولم أفارقها أنا كذلك. لقد

فكرتُ أكثر من مرة فى أن ثمة سراً هنا، أن ثمة مقصداً أكبر منى وأننى مجرد أداة فيه. ولكن ما هو؟ نشر المخطوطة لإعادة الاعتبار والشهرة والاسم الطيب للرسام هويركيو أو لكشف الظروف التى اختفى بها؟ وعندما كنت أفكر فى هذا، فى أوقات متباعدة، أشعر فى بعض المناسبات برغبة نقد ذاتى فى صفع نفسى على ذقنى، أو ضرب رأسى بمطرقة. فبعد ما جرى لآلاف من اختفت آثارهم من شعبنا، وبعد كل المآسى الكثيرة، من الذى سيهتم بما حدث لرسام معروف على نطاق ضيق، ونصف مخبول (وهو فوق ذلك نصف مابوتشى) دخل بين الأكراد واختفت آثاره فى بغداد؟

بعد هذه التأملات، وقراءة بعض صفحات المخطوطة التى بدأت أجزاء منها تصبح غائمة وتظهر عليها بقع يخنة فلفل برازيلى، ونبيذ أخضر، ونبيذ أحمر رومانى، وأحمر شفاه، ومنى، وحبر أسود، وخردل، وحبر بنفسجى، وكنت أمسد بأقصى ما يمكن الأوراق المجعدة، وأعيد تعليم بعض الحروف أو الكلمات الباهتة بقلم حبر جاف، ثم أعيد إغلاق المخطوطة. لم أعرف مثل ذلك التردد قط فى أى أمر آخر. حسن، أدسها من جديد فى مغلفها الأصفر (وهو ليس المغلف الأصلى، وإنما المغلف السادس أو السابع من النوع نفسه)، وأربطها بشريطها المطاطى الأحمر، وأحفظها جيداً فى حقيبة الطبيب الريفى السوداء التى ورثتها عن أبى، وقد كان ممرضاً سابقاً ممارساً فى حى لوكو، فى سنواته الأخيرة.

فى ذلك الزمان، ولنقل أواخر السبعينيات أو ربما فى العام ١٩٨٠ لسنوات (المنفى ميل شديد إلى الاختلاط بعضها ببعض) «ثَبَّتُ مكان إقامتى» فى شارع بوتزدامر، فى برلين الطارئة(*) هكذا كنا نسميها آنذاك معتقدين أننا أذكياء، وقد تبين لنا فى النهاية أن الطارئة هى برلين الأخرى. وفضلاً عن العاهرات، كانت توجد فى هذا الشارع المكتبة الإيبروأمريكية، وفيها ٦٤٠ ألف مجلد، واشتراكات منتظمة بحوالى ألف جريدة من قارتنا المحبوبة، بما فيها جرائد الميركوريو، ولاناثيون، ولاتيرثيرا وصحف تشيلية أخرى.

وفى برلين، عملتُ فى الصحافة، إذا جازت التسمية. وكنت محط حسد منفيين آخرين لم يتوصلوا قط إلى الحصول على عمل له أدنى علاقة بمهنهم أو نشاطاتهم السابقة. كنت مساعداً فعالاً للصحافة البرلينية، لكننى لم أكن أمارس مهام كاتب تحقيقات أو محرر أو إخبارى أو أى شىء آخر له علاقة بالكتابة. وأحد الأسباب هو أننى لم أصل قط فى معرفتى باللغة الألمانية إلى ما هو أبعد من الحد الأدنى، بالضبط، لعدم الموت جوعاً. فكنت منذ الساعة الرابعة فجراً، سواء أكان الجو جيداً أم رديئاً، أهرع إلى وكالة توزيع الجريدة فى الحى، وأقوم بعد ذلك، على دراجة بثلاث عجلات، وفى أحيان كثيرة

(*) استخدم الكاتب هنا نوعاً من الجناس عند إشارته إلى برلين الغربية Berlin occidental بالقول إنها برلين الطارئة Berlin accident

تحت عواصف رياح وثلوج جهنمية، بتوزيع عدة مئات من نسخ الصحيفة، ملفوفة بصورة جيدة، على الطريقة الألمانية، على المشتركين.

حادث سير مؤسف، لكنه مفيد، تسبب لى بحوالى سبعة كسور، وأطاح تقريباً بذراعى المقود، وفّر لى ستة شهور من البطالة المثمرة وتعويضاً بمبلغ أربعمائة ألف مارك، أحسست معه بأنى مليونير. لم يصل الأمر إلى هذا الحد. وقد ساعدنى على فهم ذلك أصدقائى من الجالية التشيلينشية وشقراء رياضية تدعى بيترا. ولكن هذا موضوع آخر.

وبعكازين وعصا استناد، ومشى ببطء حلزون، كرست وقتى لزيارات يومية إلى تلك المكتبة القريبة من بيتى. فقرأت أول مرة، بمشيئتى الحرة فى التذوق، كمية من الكتّاب التشيليين الذين كنت أتجنب قراءتهم بأية طريقة فى مدرسة سان برناردو. ابتداء من إدواردو باريوس وحتى مانويل روخاس، مروراً بلويس دوران، غونثالث فيرا، مريانو لاتورى، وجواكين إدوارذ بييّو، حتى لاوتارو يانكاس. قرأتهم جميعاً، بمن فى ذلك أشدهم غباء. ووجدت لهم مذاقاً، لا أدرى ما هو. بل أدرى ما هو. فأحد الأصحاب ممن يترددون على مطعم «لاباتيا» نظر إلىّ بأسى فى إحدى الليالى عندما اقترفت خطأ التحدث عن قراءاتى الوطنية.

«ورطة عاهرة خبيثة» قال لى، «هذا ما حدث لى مع الفطائر التشيلية المحشوة. لقد كنت أمقتها على

الدوام. كانت تضايقنى وما زالت تضايقنى. ولكننى فى السنتين الأوليين فى المنفى رحت آكل الفطائر مثل مجنون. بل تعلمتُ صنعها. إلى أن أصابت اللعنة كبدى. ولكنك تعيش فى الخارج منذ سنوات أطول. فما الذى تحاول إثباته أو أن تثبته لنفسك بقراءة كل هذا الإزعاج؟»

كان لابد لى من أن أضحك وأقول له إن الأمر ليس بهذا السوء. لكنه خلّفنى قلقاً بعض الشىء. عندئذ، وبما أنه كان لدى هوس المخطوطة، فضلاً عن هوسى التشيلى، والهواجس الدنيا الأخرى الملحقة، فقد بدأت بتصفح الجرائد التشيلية. ولكن ليس صحف فترة الوحدة الشعبية، ولا الصحف حديثة العهد. لا، رحت أتفحص صحف الأعوام ١٩٦١، ٦٢، ٦٣، باحثاً عن... عن ماذا؟ عن شىء حول هويركيو!

لم أجد فى أول الأمر أى شىء. ولكن فجأة، وبطريقة أقرب إلى المصادفة (كان بروفيسور ألمانى قد سحب أعداد الشهور الثلاثة الأخيرة من صحيفة الميركوريو للعام ١٩٦٢ وجدت نفسى مع صحف فبراير ١٩٦٣ وكانت مراجعة الصحف فى ذلك الحين ما زالت تتم يدوياً، كما فى تشيلى. فنظام الميكروفيلم وشاشة العرض جاء بعد ذلك. صحيح أنه نظام حديث، ولكنه أقل فتنة من الأسلوب البدائى القديم بتقليب الصفحات الصفراء فى المجلدات الضخمة المجموعة شهراً فشهراً، برائحتها الجافة العابقة بالغبار، والغراء، والحبر، ونوع من المعقم الكيماوى

الألمانى. وعندئذ، فجأة، وقعتُ على جريدة الميركوريو ليوم ٩ فبراير١٩٦٣ وفى إحدى صفحات البرقيات الإخبارية المترعة بأخبار متفرقة بحروف بنط نمرة ٧ أو حتى نمرة 6ونصف، وفى أعمدة محشورة جداً، تفصل بينها فواصل ضيقة، وجدت المعلومات التالية، وطلبت استنساخها (وكانت تلك بداية مرحلة جديدة للمخطوطة، مرحلة قصاصات الصور المستنسخة):

بيروت ،٨ (و. ص. ف.) تم صباح اليوم إسقاط نظام الزعيم عبد الكريم قاسم بانقلاب عسكرى أوصل إلى السلطة مجلساً وطنياً يبدو أنه ناصرى التوجه، وذلك بعد أن قامت طائرات قاعدة بغداد فجر اليوم بقصف مكثف لوزارة الدفاع التى يقيم فيها الزعيم قاسم.

«لقد أطاح الجيش اليوم بنظام عدو الشعب عبد الكريم قاسم، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا النظام قد:

(١) مزق البلاد.

(٢) عطل الدستور.

(٣) لاحق المواطنين.

(٤) طعن من الخلف حركات التحرر العربية.

(٥) وقف حائلاً أمام تقدم الشعب العراقى.

وثورتنا التى تلقى دعم الجماهير الشعبية كلها، تسعى إلى هدفين اثنين:

(١) تحقيق الوحدة الوطنية.

٢ ـ مشاركة الشعب فى حكم البلاد وسيادة القانون.»

هذا ما يشير إليه البيان الأول للنظام الجديد، والذى بُث من خلال الإذاعة.

بدت لى اللغة مألوفة جداً. لقد ظللتُ فى ذلك اليوم عدة ساعات، إلى أن طردونى من المكتبة، وواصلت فى الأيام التالية قراءة الروايات المختلفة عن الانقلاب العسكرى، وجمع قصاصات مستنسخة بالفوتوكوبى. وهذا انشغال تقليدى لشخص منفى. ولكنه بالنسبة إلى يتعلق بانقلاب بغداد الذى حدث قبل عشر سنوات من الانقلاب فى سانتياجو. لا بد أن يكون المرء بالغ الـ...

الرسالة الثانية عشرة

قرارات للمستقبل/ بريد بغداد/ تأملات عند قوس طيسفون وأسد بابل/ ما هو الفارسى؟/ عبدة الشيطان/ رحلة إلى كردستان.

عزيزى البروفيسور:

وقت طويل قد انقضى وأمور كثيرة حدثت، حتى صار من المستحيل أن أروى لك أكثر الأمور جوهرية. سأبدأ بما هو أكثر مباشرة وعملية: سنكون فى براغ فى العشرين من يوليو على أبعد تقدير. ونحن ننوى البقاء حتى أواخر أغسطس، ننال قسطاً طيباً من الراحة وربما اتخاذ بعض الإعدادات للمستقبل: بيت، أثاث، قدور، تجهيزات، وأشياء من هذا القبيل.

وستجد إيفا، دون شك، عملاً فى اختصاصها. وهى ستعود بخبرة نافعة، وبوثائق محاطة بكثير من الإطراء، ونماذج من أعمال عديدة أنجزتها، بعضها بالغ الأصالة، بإضافتها إلى تصاميم الأقمشة موتيفات تعود إلى ما قبل آلاف السنين، والسعى إلى

ألوان محلية أصيلة وغيرها. وقد قامت بدراسات عميقة حول موضوعات وأساليب تزيينية استخدمها العرب وجيران آخرون فى هذا الحى فى عصور مختلفة، سواء فى العمارة، أو النسيج، أو الأدوات المنزلية. إنها مادة واسعة مثل مراجع أطروحة لنيل درجة دكتور. كما أنها توصلت إلى إتقان العربية، ويمكن لهذا بحد ذاته أن يفتح أمامها الإمكانات فى مؤسسات التجارة الخارجية، مثلاً. يبدو أنه أمر لا يُصدّق، كيف توصلت إلى تحقيق كل تلك الأشياء فى وقت قصير جداً؟ إن ابنة أخيك امرأة مدهشة يا عزيزى جوزيف.

ولكن أجل، وأخشى ألا يروقك هذا الخبر، وألا يروق كذلك للسيدة العزيزة ريبيكا: لقد وافقت إيفا مرة أخرى - وأخيرة - على تجديد عقد عملها. وهذا، باعتبارى قريناً (لحسن الحظ) يطالنى أنا أيضاً. سنرجع إلى بغداد فى الأيام الأخيرة من شهر أغسطس. أما عودتنا النهائية إلى تشيكوسلوفاكيا فستكون فى أواخر يوليو ١٩٦٢ وحول هذا الموضوع بأسره هناك رسالة مرفقة من آنا إلى السيدة ريبيكا.

هذا الأمر عن الرسائل التى تذهب وتجىء جعلنى أعيش تجربة مثيرة للفضول. والتجارب كلها هنا من هذا النوع تقريباً. فى أحد الأيام، حضرت السيدة ساندرا، صاحبة البيت، وطرقت فجأة وبعنف شديد لا حاجة له باب المرسم، حيث أقوم بعملى. فتحتُ الباب وأنا أشعر بشىء من الذعر، فأطلقت نحوى، وهى

تلوى ذراعيها، سيلاً من الكلام بالعربية، لم أفهم منه سوى كلمة تكررت «تلغراف... تلغراف» وأمسكت بذراعى وراحت تشدنى. لحقت بها متعثراً على الدرج، وبدت رشاقتها جديرة بالاهتمام بالنظر إلى حجمها؛ وفى الأسفل، عند بوابة المدخل، أوقفتنى فى مواجهة شاب يصعب تحديد هويته، يضع قبعة زرقاء لها واقية شمسية، مكتوب على حافتها بحروف مذهبة «Iraq Cables». وراح الشاب يقول شيئاً له وقع «واركيف؟» و«ارخكيف» ، أو ربما «هويركيو» وسلمنى مغلفاً صغيراً ودفتراً متسخاً جميع صفحاته مطوية مثل أذنى حمار، كى أوقّع فيه. فعلت ذلك، ولأنه ليس لدى قطع نقد صغيرة، أعطيته ديناراً. تلقاه وهو يرتجف تقريباً، أغمض عينيه، ثم فتحهما وتوجه بهما إلى السماء ليحمد الله وانصرف راكضاً، وناسياً دفتره. ناديته صارخاً؛ لكنه اختفى عند المنعطف. فطلبتُ من السيدة ساندرا أن تحتفظ بالدفتر وتعيده إليه عندما يرجع ثانية. هذا إذا رجع.

كانت السيدة ذاهلة، لا أدرى إذا ما كان السبب هو سخائى أم البرقية التى تعتبرها دليلاً مؤكداً على وقوع مصيبة. لم ترفع عينيها عنى. كانت تضع يدها اليمنى على فمها واليسرى على الوسادة المزدوجة التى تغطى صدرها. فتحتُ المغلف وسحبت منه شريحة ورقية رفيعة أُلصقت عليها بفجاجة قصاصات عليها كلمات مكتوبة بالإنكليزية، وبحروف كبيرة، بآلة كتابة يكاد شريطها يكون مستهلكاً، بحيث تصعب قراءتها. الرسالة المقتضبة مرسلة من كوسرا، صاحب جاليرى

هـاوزر فـى فـيينـا. ويقـتصـر فـيهـا على إخبـارى بـأنه أرسل شيكـاً بـاسمى بـالبريد المسجل. يبدو أن المرء يبتسم كلما تلقى هـذا النـوع من الأخبـار. فـالسيـدة سـانـدرا، وقـد خـاب أمـلهـا، رسـمت كذلك نـوعـاً من الابتسـامة وضمت يديهـا كمـا لو أنهـا تـريد أن تشكر الرب الذى نجانى من كارثة مريعة.

تـفـرغتُ فـى الأيـام التـاليـة لانـتـظـار الـرسـالـة المسجلة ومعها الشيك. وهكذا مر أسبوع، عشرة أيام، اثنا عشر يوماً. وبدأت أفقد أعصابى وكلمتُ إيفا بما يحدث. فخطر لها أن تسأل السيدة ساندرا التى أبدت نـظـرة شـاردة وقـالت نعم، يبدو أن ذلك صـحيح، فـقـد جاء سـاعى البـريـد، لكنه لم يسلم رسـالة. وهل سلّم شيئاً آخر؟ يبدو أنه ترك شيئاً، لست أتذكر... وحين دست يـدهـا فـى جـيب مـا يـشـبـه مـريـلـة أو جـلـبـابـاً فضفاضاً تلبسه دوماً، وجدت ورقة صـغيرة مطوية ومجعدة. أتكون هذه؟ كان الحوار يدور بالعربية، وأنا أراقب تـطـوره فـقـط. كـانت الـورقـة قـد وصلت مـنـذ ثمانية أيام، وهى إشعار بأنه يتوجب على الذهاب إلى مبنى البريد لاستلام رسالة مسجلة. وكان على الورقة توقيع قرأت إيفا إنه اسم أحمد. كانت السيدة ساندرا تنظر إليها بإعجاب. فهى لا تعرف القراءة أو الكتابة، ووجـود امـرأة تـتـقن تـلك المعـارف العليـا يـبـدو لـهـا أعـجـوبـة، وأشبه بمعجزة. وأنـا أيضاً كنت أرى الأمر على هذا النحو، لأنى كنت أمياً مثلها فى العراق.

ذهبت إذاً إلى البـريد، وهـو بنـاء قـديم، كان فخماً فـى أحد الأيام، له بهو مقنطر شاهق الارتفاع تغطيه

زينة هى كتابة متصلة بلا نهاية، حيث غطت الوساخة وسواد دخان عشرات الشموع كل شىء بطبقة قاتمة. كان الجو أشبه بجو بازار: أناس كثيرون يدخلون، ويخرجون، ويطلقون الأصوات، ويتراكض هناك أطفال وكلاب، ويصيح باعة حلويات مغطَّسة بالقطر. دوار آخر، بعد كثير من الدوران وتشكيلة متنوعة من الدفع والدفش، دون أن أتمكن حتى من الاقتراب من إحدى الكوى الضيقة، اكتشفت وجود ممر يدخل إلى أحشاء المبنى؛ فتقدمت فيه، وحين وصلت إلى منعطف انعطفتُ وفتحت باب أحد المكاتب. كان هناك رجل متين البنية، له وجه مربع وأزرق، بالرغم من الحلاقة الصارمة؛ وشارب عميل مخابرات، يجلس إلى مكتب فارغ، وكلتا يديه تستندان إلى الغطاء. نظر إلىّ ونظرت إليه. وبإنجليزيتى المهلهلة سألته أين يمكننى المطالبة برسالتى المسجلة. واصل النظر إلىّ وواصلتُ النظر إليه. كان المكتب عارياً إلا من صورة كبيرة فى إطار لعبد الكريم قاسم.

وفجأة فُتح باب جانبى ودخل فتى له وجه طفل مذعور. وجّه إليه سيد المكتب أربع أو خمس كلمات صافرة. انحنى الشاب، تذلل، حرك ذيله وأمسكنى من ذراعى بقوة عصبية غير متوقعة ليخرجنى خارجاً. تمنعتُ قليلاً وأنا ألح على سؤالى، لكن الشاب جذبنى بقوة لم أستطع معها إلا الخروج معه. وقد تمكنت مع ذلك من رؤية ذلك الشخص، ذى الشارب، مثلما كان من قبل، جامداً وراء مكتبه الذى لا يوجد عليه سوى يديه المتوازيتين وراحتيهما إلى أسفل.

أغلق الشاب باب المكتب بحرص شديد، وسلمته الورقة التى معى. قرأها ببطء شديد وهو يحرك شفتيه. وقال لى بضع كلمات لم أفهمها فى الحقيقة، ثم راح يمشى بسرعة كبيرة فى الممر وأنا إلى جانبه. وهكذا وصلنا إلى نوع من فناء مسقوف. بدا لى أن هناك مزاداً يدور حول منضدة مستطيلة طولها حوالى ثمانية أمتار وعرضها ستة أمتار. لم يكن مزاداً: إنهم سعاة بريد بغداد يصنفون الرسائل. كان بعضهم يرتدى ملابس على الطريقة الغربية، وآخرون على الطريقة العربية، لكن كل واحد منهم يضع على رأسه القبعة الزرقاء المعروفة ذات الواقية، وعلى حافتها بحروف عربية مذهبة كتابة تقول، على ما أظن، «بريد بغداد» وكانوا جميعهم يبدون تشيليين.

كانوا يقفون بجانب بعضهم بعضاً حول المنضدة، وأمامهم أكوام من الرسائل المختلطة. يخرجونها من أكياس خضراء مصنوعة من قماش خيام سميك ومركونة إلى جانب كل واحد منهم على الأرض، بين الأرجل، ويرتبونها بسرعة كبيرة وسط فوضى تتبع نوعاً من القواعد الخاصة. وبين لحظة وأخرى يرمون إحدى الرسائل، بصورة منحرفة، وببراعة كبيرة، بحيث تطير على ارتفاع شبر عن المنضدة، أو ترسم قوساً فى مناسبات أخرى، لتسقط فى يدى شخص فى الجانب الآخر. وقد استنتجتُ بعد قليل أن كل ساعى بريد مسئول عن قطاع معين، عن حى أو شارع، وأن هذا الذى يقومون به هو الأسلوب المتبع لتقاسم الرسائل التى عليهم توزيعها. كان كما لو أن أحدهم

يقول: «حى كونتشالى» وتتجه إلى هناك الرسالة المحددة. وفى الوقت نفسه تقريباً، يصرخ أحدهم «المحطة المركزية» ويطير العصفور. وهكذا: «جادة ماتا» «سان ميجيل» ...«الجادة الخامسة».

وتكون هناك فى بعض اللحظات خمس أو ست رسائل طائرة فى الهواء، فى اتجاهات متعاكسة ووعرة فوق المنضدة. وفى لحظات أخرى يتوقف الطيران والصراخ، فلا تسمع إلا الأنفاس المنهمكة فى العمل وفرقعة المغلفات وهى تُراجع وتُرتب فى حزم بأصابع رفيعة وسمراء. وقد تصطدم فى بعض الأحيان رسالتان وتسقطان فى منتصف المنضدة. فيسبب ذلك ضحكات وتعقيدات، لأن أياً منهم لا يتيح له طول ذراعه الوصول إلى تلك المنطقة البعيدة مهما حاول مدّه. فيحاول أحدهم، بخراقة، أن يدفع الرسالتين بعكاز أو عصا (العديد من سعاة البريد مصابون بعاهات) ولكنه لا يتوصل إلى بغيته. وأخيراً، يصعد أحدهم، وهو شاب ونحيل، فوق الطاولة ويتقدم زاحفاً، وسط القهقهات والتصفيق، حتى يصل إلى الغنيمة. وقد بدا لى أن جميع سعاة البريد أولئك هم تشيليون.

كان المشهد مثيراً للاهتمام، ولكننا لم نحرز تقدماً بشأن رسالتى المسجلة. أومأتُ بإشارة متضايقة إلى مرافقى الشاب الذى كان ينظر بابتسامة بليدة إلى حركة الرسائل الطائرة، أريته الورقة المجعدة التى تدعونى لاستلام رسالتى وكررت له مرتين أو ثلاث مرات: «أحمد ... أحمد ...».

عند هذه النقطة سأتوقف وأضيف ببراعة فقرةً مناسبة من كتابى المفضل «بريد بغداد»، حيث يروى كيف يستقبلون حامل البريد (وهو سيد وجيه حقيقى، يتولى توزيع المراسلات على حصان) فى القرى التى على طريقه. أو بعبارة أدق كيف كانوا يستقبلونه، لأن ما يُروى كان يحدث فى أواسط القرن التاسع عشر.

«عندما يصل الطَاطر (رجل البريد)، تحييه جماعة من الناس، ويتولى اثنان أو ثلاثة من أشد المتلهفين حمله إلى الديوان، حيث تقدم له القهوة وهو يستريح متكئاً. وعندما ينتهى من تناولها، يبسطون سجادة أمامه، ويقوم هو، بكل المهابة التى يستطيع إبداءها، بإفراغ أكياس رسائله. وعلى الفور تمتد عشرات الأيدى لتصل إلى كل ما تستطيع الوصول إليه، وتدوى أصداء مئة اسم فى الحجرة: يسمع أحدهم اسمه، ويطلب أن تعطى له الرسالة؛ فيتناقلونها من يد ليد. ويجد آخر رسالته فى كومة الرسائل، فينسل بها مبتعداً، ويفسح المكان لمن هو بجواره. والغريب فى الأمر أن الرسائل تكاد لا تضيع أبداً».

أخيراً وجدتُ أحمد، وهو شاب خجول جداً وأسمر البشرة. وبعد أن بحث فى جرابه الجلدى، وفى جيوبه وبين أوراق دفتره الحلزونية، وجد أخيراً رسالتى، فسواها بتمريرها تحت إبطه وسلمنى إياها بانحناءة احترام. وهكذا دخلت مرحلة امتلاك شيكى، لم يكن شيئاً يستحق الازدراء، مقابل مجموعة من سبع

لوحات جرافيك لشارع الصاغة، وقد اشترتها شركة فورد لمقرها الرئيسى فى دِترويت، حسب ما حدده لى كوسرا فى ملاحظة قصيرة مرفقة، مع إشارات تعجب متتالية.

وبعد بعض العمليات المصرفية التى رحت أصير خلالها خبيراً، دخلت مرحلة امتلاك سيارة جيب كلية الدنيوية لها اسم كلب: ويليز. وهى ذات لون صحراوى، وعجلات مسننة مثل تمساح. ستتيح لى التنقل فى هذه الأراضى الوعرة ورؤية أشياء كثيرة عن قرب. كانت إيفا مشرقة بعد عملية الشراء، ولكنها بعد الرحلة الأولى تذمرت من قساوة المقاعد. لقد كانت رحلة لا تنسى، ليست طويلة جداً، أُعجبنا خلالها بقوس طيسفون، القائم عند منحنى مهيب لنهر دجلة، ووصلنا بعد ذلك إلى بابل.

لقد سبب لى القوس غماً مثل الذى أحدثته فىَّ صورة البرج، وبوجود السيارة الويليز الآن آمل بالتعرف على البرج شخصياً، وإن لم يكن هناك من يحدد مكانه بالضبط. فالأخبار متناقضة. وهى كذلك بشأن القوس الذى يسميه العرب طاق كسرى، وبالقشتالية يدعى قوس كسرى. وهذا كما تعلم اسم أحد ملوك الفرس الساسانيين ، وقد هُزم على يد هرقل، حسب البروفيسور الزميل بييرو ديلا فرنشيسكا. المهزلة هى أنه كان هناك ملكان اثنان باسم كسرى، الأول والثانى، وديلا فرنشيسكا لا يقول من منهما الذى هُزم. يُفترض أن يكون الثانى. ولكن

كتاباً ألمانياً سميكاً حول حضارات ما بين النهرين، يقول (حسب ترجمة إيفا) إن البناء الذى يشكل القوس جزءاً منه هو قصر الملك شابور الأول. أين هى الحقيقة؟

لكن الغم الذى يسببه لى هذا البناء الضخم لا يتولد من عدم الدقة التاريخية، وإنما من ثقل وطأة الزمن والعمل المتراكم؛ التفكير فيمن شيدوا البناء بالعمل ثلاثين سنة متواصلة، وهم يموتون كالذباب فى مسعاهم، يعملون بعناد تحت الشمس الضارية والسوط لوضع آجرة صغيرة بعد أخرى، مناوبين دوماً بين الآجر المشوى كثيراً والمشوى قليلاً، الضارب إلى الحمرة بذات اللون الأمغر المائل إلى الصفرة، طوال حياة بكاملها. فكر أيها البروفيسور، كم من ملايين وملايين قطع الآجر المربعة تلك - خمسة سنتيمترات بخمسة سنتيمترات، وسماكة لا تزيد عن سنتيمترين - كان لابد من استخدامها لبناء تلك القبة. قد يبدو هذا التأمل قليل الأصالة بعد رؤية ماتشو بيتشو، لكننى أؤكد لك أن الإحساس الذى شعرت به كان حقيقياً.

الجدران التى تنحنى لتشكل هذه المغارة الضخمة لا تقل سماكتها عن ستة أمتار فى الأسفل وحوالى مترين فى الجزء العلوى. ويتجاوز ارتفاع القوس فى منتصفة الثلاثين متراً. وقدرتُ العرض بعشرين متراً، والعمق بنحو أربعين متراً. وقد شُيد هذا كله منذ سبعة عشر قرناً، من أجل مجد إمبراطورية وملوك طواهم النسيان اليوم.

يا للسر ويا لليأس! أتساءل لماذا اليأس. أيكون السبب هو التفكير بمدى طول النسيان (ومدى قصر الحب). إننى أفكر بمعشرى من أبناء المابوتشى. أين كانوا، أين كنا قبل١٧٠٠ عام، عندما كانت تجرى تحت القوس طقوس ملكية، وكان العلماء يحفرون ألواح الطين بأزاميلهم ليكتبوا تاريخ تلك العصور؟ ولم يبق منهم، على أى حال، أى شىء عملى. أجل، بالطبع، هذا القوس العملاق المجرح بشقوق هائلة والذى سيسقط منهاراً بكل تأكيد ذات يوم، ربما فى أحد هذه الأيام. وماذا بعد؟ كيف كانوا يعيشون، بماذا كانوا يفكرون، وماذا كانوا يفعلون كل يوم؟ بعض تلك الشعوب لم تحتفظ الذاكرة حتى باسمها. ويشعر المرء عندئذ بأن هناك نوعاً لا يطاق من الزهو فى كل ذلك النضال المابوتشى طوال ثلاثمئة سنة أو أكثر (وما هى ثلاثمئة سنة!) والسعى لتأكيد هويتنا والمطالبة باسترداد الأرض التى انتزعوها منا.

ومع ذلك نواصل، وسنواصل، مثل غيرنا من التحرريين. لا يمكننا عمل شىء آخر. اعذرنى على هذا الهذر. وانظر إليه على أنه مجرد نوبة غيبية.

باختصار، من أجل تفادى الهموم، انهمكت فى أخذ كمية كبيرة من الملاحظات عن القوس، لاسيما المنظور الذى يقدمه عند النظر إليه من أسفل على مقربة من الجدار، إذ ينحنى وينعكس نحو الأعلى هناك فى الأعالى فوق رءوسنا، حتى يسبب لنا الدوار. بل إننى اصطدت غيمة صغيرة من حرير،

وطائراً أسود يعبر بسرعة على خلفية سماء سماوية عبر الشرخ الأكبر فى سقف القبة.

أمضيت بعد ذلك وقتاً طويلاً فى ملء أوراق بقطع آجر وتدوين ملاحظات باستخدام رموز (لم أستطع حلّ شيفرتها فيما بعد) حول الأضواء والظلال، إلى أن بدأت إيفا التى لم تقل شيئاً، بدافع التعقل أو الانضباط، أو ربما الحب، بدأت تتثاءب بتفخيم أشد من تثاؤب أسد مترو جولدن ماير الذى يجب عدم الخلط بينه وبين أسد بابل.

فور العودة إلى بغداد، انهمكتُ فى رسم قطع آجر. وكان مجموعها ١٩٧٣ إذا أنا لم أخطئ الحساب. لكنى سأحدثك عن هذه الرسوم فيما بعد.

عندما خرجنا من القوس، دعانا أشخاص بأسمال لزيارة شيء بالغ الأهمية، هناك فى مكان قريب: قبر حلاق النبى محمد! ولكن، إضافة إلى ذلك، وهم ينظرون بملامح غموض عربية فى كل الاتجاهات، بدؤوا يُخرجون من بين ملابسهم قطعاً من الخزف أو الأحجار المشذبة، ويعرضونها بأسعار مبالغ فيها، ليخفضوها بعد ذلك، خلال دقائق قليلة، ثمانين أو تسعين بالمئة. ولكى أتخلص منهم اشتريت من أحدهم قطعة آجر قاتمة، أكبر قليلاً من المستخدمة فى طيسفون، عليها حفر ناتئ ممسوح: رسم حيوان بقرون. ولم تستطع إيفا، ولا أنا بالطبع، معرفة منشئها، ولا أدرى إذا كان السبب هو انعدام الرغبة أو انعدام المخبر العارف. لكن النتيجة جاءت مناقضة لما أردناه: فقد خرج، لستُ أدرى من أين، مزيد من أولئك

البائعين، يطلبون منا أن نشترى بضاعتهم، إلى أن دخلنا خائفين، وراكضين تقريباً، فى الويليز وانطلقنا بسرعة بينهم.

فى بابل أُصبنا بالبكم أمام الأسد الضخم، يكاد يكون أكبر من سيارتنا الجيب، فهو يبدو بحجمه كشاحنة من الجرانيت الرمادى. إنه ساكن جداً، وعظيم التثاقل، ولكن يفترض أن نية النحات كانت إظهار الأسد وهو يعمل: فقد انتهى للتو من طرح رجل، وهو يثبته ببراثنه الأمامية (وقد أوشكت على الاختفاء اليوم) ويستعد لالتهامه. وفى كتيب سياحى أحضرته إيفا المتبصرة، قرأنا: «رأس الأسد والرجل فُصلا بأيدى السكان المحليين، وهم محطمو أيقونات بامتياز، ومعادون بصورة خاصة لأى تجسيد بشرى». هيئة الرجل تكاد تكون غير ملحوظة الآن، وقد فقد الأسد، بسبب قرون من التآكل والريح والرمال، كل تقاطيعه البارزة. وصارت الملامح تموجات ناعمة لما يشبه نوعاً من المنطاد الحجرى، وسيتحول خلال مئة قرن تالية إلى... بيضة.

فى هذه المرحلة، ومراحل أخرى، كانت إيفا هى من تقود الجيب وليس كاتب هذه السطور. فأنا، من جهة، لا أتقن فن قيادة العربات الآلية. كما أننى لا أملك الوثائق الخاصة بذلك. أما إيفا فلديها رخصة قيادة دولية، بالتشيكية والإنجليزية والعربية. أما عندما أجلس أنا خلف المقود، فإننى أنسى أننى أقود. لأن المشهد وتفاصيل الطريق تتسلط على ذهنى وتستحوذ علىّ بالكامل، وعند أى منعطف أواصل

التقدم بصورة مستقيمة إلى أن أصطدم بالواقع المحتوم لكومة تراب، أو أجمة نباتات، أو رابية. ولحسن الحظ أن السيارة تتحمل. وحتى الآن لم تقع حادثة تدعو للأسف.

عند العودة، هرعت كما فى مناسبات أخرى إلى بينتو المعصوم عن الخطأ طالباً الاستنارة. وعندما سألته عن الساسانيين والهيمنة الفارسية على ما بين النهرين، أبدى ملامح التركيز (بنفخ خديه وإغماض عينيه حتى يصير مثل سمكة صينية) وأخرج القصاصة الورقية المعهودة، وقد قرأها لى بلغة الأصل الفرنسية، بأفضل لكناته السوربونية، وليس دون تلونات هسبانية من القصبة: Avezus vous déjá vu Persan? Mon Dieu qu'il est curieux d'être persan.

«ما هذا؟» قلت له، «يبدو أنه شىء من المسيو شوفينى شخصياً...»

ودون تأثر، ترجم بينتو: «هل رأيت فارسياً من قبل؟ رباه كم هو مدعاة للفضول أن تكون فارسياً»

«ألا ترى أن هذا ذروة الشوفينية الفرنسية؟»

فأجابنى بوقار: «هذا لمونتسكيو. من كتابه «رسائل فارسية». وهو نقيض الشوفينية. إنه يسخر من مواطنيه. أعنى أنها عبارة تهكمية.

«قريدس مشوى!» أجبته بالنبرة التى نقول بها «رؤوس أسماك» ولاحظت للمرة الأولى أنه مرتبك. بحث عن شىء يرد به علىّ، ولم يجده. ونظراً لذلك، هاجمنى من جانب آخر.

قال لى: «هؤلاء الأكراد والكرديات الذين تهتم بهم كثيراً. لهم صلة قرابة مع الفرس».

«وكيف ذلك؟ أليسوا على صلة قرابة بالعرب؟»

«لا. هناك قدر من الاختلاط بينهم وبين العرب، وعهود طويلة من التعايش. ومن العرب تلقوا الدين. فهم فى غالبيتهم مسلمون. أما أصلهم الاثنى ولغتهم فمختلفان».

«هذا ممكن، لكن الأكراد الذين عرفتهم بدوا لى شبيهين جداً بالعرب. هل يمكن التمييز بينهم؟».

«أظن أن ذلك ممكن، بصورة عامة. فالأكراد يتكلمون العربية بلكنة كردية، مع وجود استثناءات. وهم فى العادة أكثر سمرة من العرب، وخاصة من يعيشون منهم فى الجبال».

«لماذا؟».

«لأنهم معرضون لقدر أكبر من الإشعاعات الشمسية فوق البنفسجية»

«يا لسعة المعرفة! وتقول إن الأكراد مسلمون...».

«مسلمون، أجل. وغالبيتهم من السنة. لكنهم يحافظون على طقوس دينية أقدم بكثير، مثل الطقوس الأشورية الكلدانية، والنسطورية، والمزديكية. أو مثل طقوس الأزيديين المعروفين أكثر بأنهم عبدة الشيطان».

«يا للشياطين! هذا أمر يهمنى. لقد قرأت فى مكان ما عن هؤلاء الناس. ولكن وضح لى أمر يبدو لى

غامضاً. هل تعرف كل هذا الذى تقوله الآن منذ زمن بعيد أم أنك قرأته فى وقت قريب؟».

«منذ وقت قريب جداً. صباح هذا اليوم تحديداً».

فسألته بذهول: «ولماذا ظننتَ أو عرفت أننا سنتحدث فى هذا الأمر تحديداً؟».

ابتسم ابتسامة شيطانية، ببريق غريب فى عينيه، مبدياً أسناناً غير منتظمة، لكنها مقبولة البياض، بأنياب شديدة البروز. وقال: «يا رجل، كان ذلك متوقعاً».

وبضحكة هجومية، أخرج من خزانة مشروبات تاريخية جداً، مصنوعة من خشب مطعم بالصدف، زجاجة مارتيل باهرة وسكب منها قدحين. نسيت أن أقول لك إننا كنا فى شقته المكسوة بالسجاجيد حتى السقف. اعتذرَ لدقيقة، وذهب إلى الحجرة المجاورة، هى غرفة نومه على ما أظن، وأحضر بصعوبة علبة ثقيلة مغلفة بمادة سوداء تحاكى الجلد. وضعها فوق المنضدة الصغيرة الواطئة التى فى منتصف الغرفة، وبادر إلى نزع غطائها الذى ينفصل عنها تماماً. ثم سحب بالطريقة نفسها جزءاً جانبياً، فانكشفت آلية من معدن أبيض، لها محوران، ومربع مع إبرة، وعدة أزرار أو مفاتيح. بدا لى الجهاز معروفاً بصورة مبهمة، لكننى لم أستطع أن أحدد حقيقته بدقة. وكان بينتو يستمتع بوضعه الغامض بانتظار أسئلتى، لكننى لم أسأله عن أى شىء.

ومن أحد أنحاء الآلة الداخلية أخرج كابلاً طويلاً ينتهى بمقبس كهربائى. حلّه، وليس دون تعثر ولحظات

تفكير مطولة، وصله بمحول أخرجه من فجوة أخرى فى الجهاز، ثم وصل كابل المحول بالتيار الكهربائى. نظر إلىّ نظرة غامضة، لكننى أبقيت شفتى مشدودتين.

«أتعرف ما هذا؟» سألنى أخيراً بشىء من انعدام الصبر.

فقلت: «لا أعرف بالضبط. أهو جهاز لتسجيل المكالمات الهاتفية؟».

لم يرقه سؤالى تماماً. وقال:

«حسن. يمكن استخدامه فى هذا الأمر أيضاً. ولم لا؟ إنه جهاز تسجيل بشريط مغناطيسى. نموذج متقن جداً».

«أين صنع؟».

نظر إلىّ نظرة تأنيب. ثم زم شفتيه فى تكشيرة، مثل الأطفال عندما يوشكون على البكاء. وهز رأسه أخيراً باتجاه الشرق والغرب، بحركة دورانية.

اقتصرت على النظر إليه دون أى تعبير. بدا عصبياً وأضاف بنوع من التسرع: «الحقيقة أنه نسخة مقلدة. فالأصل هو ماركة نيجرا، سويسرى».

قلت له «سيان لدى لو كان يونانياً. ولماذا ترينى إياه؟».

أطلق قهقهة مفاجئة وواصل انهماكه فى عملياته التقنية، ولم يبدِ فيها موهبة كبيرة. وضع على المحورين بكرتين من زجاج بلاستيكى، وأخيراً وصل سماعتين ضخمتين فى فتحة بالجهاز، ووضعهما على

أذنىّ. انتظرتُ محشوراً فى بئر سمعى يعطى الانطباع بهبّةٍ متطاولة، كما لو أن المرء فى سقطة حرة، بينما راح هو يحرك مفاتيح الجهاز، وفجأة بدأت أسمع موسيقى متماوجة ضعيفة ونائية، اشتدت بغتة إلى أن صارت غير محتملة. قفزت فى مكانى. فأشار لى بينتو الذى كان يراقبنى بإيماءة تهدئة بإحدى يديه وحرك مفاتيحه. انخفض صوت الموسيقى. وظللت أستمع لدقائق طويلة.

كان لحناً نائحاً لا يمكن تحديده، مشغولاً بما لا حصر له من التنويعات. تؤديه بصورة رئيسية آلة «كيما» أو شىء مشابه، قد يكون نايأ عادياً من القصب أو الخشب، يتناوب فى بعض اللحظات مع ناى آخر أو مزمار قرية، ربما هو سلف تشيلى قديم للكلارينيت، بينما فى الأسفل طقطقة نوع من الأوراق اليابسة من جيتار بدائى أو مندولين، وطبل عظيم أصم يضبط إيقاعاً بطيئاً ذا حسية عالية. إنها موسيقى شبيهة بالكانتو خوندو، بذلك النوع من القنوط الشامل أو التمهيد الموسيقى الذى لا ينتهى أبداً. فكرتُ فى أنه شىء شبيه بما أحسست به أمام قوس طيسفون، معبر عنه بطريقة موسيقية. استمعت بعينين مغمضتين، متأثراً رغماً عنى بانفعال. وعند الانتهاء، أزحت السماعتين عن أذنى وظللت صامتاً لبعض الوقت.

كان بينتو يراقبنى بابتسامة غامضة: «حسن، ما رأيك؟».

«رائع» قلتُ له، «إنها موسيقى لذيذة وتُسمع بهذا الجهاز بدقة كاملة. ولكن أخبرنى، ما هذه الموسيقى؟ أهى موسيقى إسبانية؟».

قال بغموض: «يعنى... تقريباً».

«كيف تقريباً؟ أهى موسيقى أندلوسا أم غجرية؟ أهى فلامنكو؟».

فقال لى متفاجئاً: «يا رجل! حامى، حامى. لا يمكن نكران أنك سمِّيع جيد، وأنك تملك ثقافة موسيقية. وهو أمر نادر عند رسام. ولكن لا، ليست موسيقى أندلوسا بالضبط، لكنها أندلسية».

«يبدو لى هذا مجرد تلاعب بالكلمات».

«إنك مخطئ يا عزيزى. ما سمعته هو نوبة، إنه نمط موسيقى أندلسى من بلادى، من المغرب، وإن كان شائعاً بتنويعات أخرى فى كل البلدان المغاربية».

قلتُ له: «حسن، لكن هذه الموسيقى آتية من إسبانيا دون شك... أليس كذلك؟».

«نعم ولا. ففى هذه الأمور لا يمكن أبداً معرفة ما يأتى وما يذهب. لا أحد يشك فى أنها موسيقى عربية، وهكذا يمكن القول إنها كانت شائعة فى إسبانيا. وآخرون يقولون إنها ولدت هناك، خلال الخلافة فى قرطبة. وهى بالتالى، لكونها عربية، جاءت من إسبانيا. لكن ما تجهله بكل تأكيد هو أن أصلها الأندلسى مرتبط بزرياب، الطائر الأسود، وهو كردى. لقد حمل إلى بلاط عبد الرحمن الثانى الموسيقى الكردية، إضافة إلى الهليون».

أحسست بفضول عنيف. لكن قاطع الطريق بينتو الذى انتبه إلى ذلك فوراً، بدأ يماطل فى الحديث. وبعد أن ملأ مجدداً القدحين اللذين يبدو أنهما فرغا من تلقاء نفسيهما، اقترح علىّ: «قهوة؟».

وافقتُ دون أن أوجه إليه أسئلة، مجارياً إياه فى اللعبة، وانهمك هو، بتركيز مهووس، فى عملية إعداد القهوة شبه اللانهائية. طحن أولاً بطاحونة يدوية كمية دقيقة من حبات البن (هل عدّها؟). ثم أشعل بعد ذلك موقد غاز صغيراً، ووضع فوقه إبريقاً نحاسياً له مصبّ معقوف مثل منقار طائر التوكان. ووضع البن فى إبريق آخر أصغر، من فضة مطروقة، وله ذراع خشبية ـ الإناء التقليدى للقهوة التركية ـ وبعد ذلك، عند غليان الماء، سكبه فوق البن. وأضاف ملاعق من السكر وبعض الحبوب القاتمة، أخرجها من علبة فضية يحملها فى أحد جيوبه عميقة الغور. ووضع بعد ذلك الإناء فوق رمل ساخن مخضعاً إياه لمراقبة صارمة، ومحركاً إياه بصورة دوارة فوق فرشة الرمل، مما كان يُحدث حفيفاً خشناً. ملأ الحجرة عبق قهوة لا يمكن وصفه مختلطاً برائحة جفاف رمل ساخن.

«ها قد أتت، ها قد أتت» قال بينتو دون أن يغمض عينيه عن فتحة الإبريق الفضى.

«ما التى أتت؟» ، سألته.

«الآنسة الرجراجة» أجابنى. وكان الماء المكثف بالزيد ومسحوق البن قد بدأ يرتفع منتفخاً ومترجرجاً... أجل، مثل آنسة. (فى أية ظروف؟).

رفع بينتو الإبريق عن الرمل الساخن وتنهد. ثم ملأ بعد ذلك بمهارة فنجانين معدنيين صغيرين ملبسين بالذهب من الداخل، كان قد هيأهما فى صينية صغيرة.

شربنا ببطء القهوة اللذيذة قليلة السكر.

«إنها من اليمن» قال بينتو.

فقلت له: «ماذا تعنى؟ الموسيقى؟».

ضحك: «لا يا رجل! أعنى القهوة».

«آه، رائعْ. وهل يمكننى أن أعرف ما هى تلك البذور السوداء التى أضفتها؟ أرجو ألا تكون مخدراً».

«يا رجل، لا! فأنا لا أقدم مخدراً لصديق أبداً دون رضاه. إنه "بربى توركو"».

«آه! أجل» أجبته مطمئناً.

ضحكنا. وبعد ذلك ألح على براءة ما أضافه: إنه حب الهيل. وهو يُحسن القهوة ويضيف إليها مذاقاً خاصاً.

لكن ما كان يهمنى هو أمر آخر: «إنها قهوة جيدة. رائعة. ولكن... أخبرنى مزيداً عن هذه الموسيقى الكردية. هل هى كردية حقاً؟ وماذا هناك عن ذلك الطائر الأسود؟ ألا يكون من اختلاقك؟»

فقال لى راضياً عن نفسه: «كنت أعرف أن هذا سيستحوذ على اهتمامك. وهو ليس اختلاقاً بالطبع. كانت لدى قصاصة ورق فى هذا الشأن...» وبدأ البحث فى جيوب المهرج التى له، والتى تضم عشرات

أو مئات القصاصات، حزم منها! بعضها مجعدة جداً ومنفوش، وأخرى أحدث عهداً ذات ألوان سماوية، أو وردية، أو صفراء، مثل وصفات استخدام تجارية، أوراق دفتر، مناديل ورقية، فواتير، صفحات منتزعة من كتب، وجميعها تضم تدوينات محشورة ومكتوبة يدوياً بحروف عربية، أحياناً فوق النص المطبوع، فى متاهة لا يمكن حل رموزها. بعد ساعات، بدا لى أنه وجد ما كان يبحث عنه. قرأ لى ببطء، مقرباً الثاءات والسينات قدر الإمكان من طريقة نطقها بالإسبانية، ولكنها ظلت تبدو عربية، وفى بعض الأحيان متفرنسة:

«أحد أهم الموسيقيين الأكراد، يدعى زرياب (الطائر الأسود) بسبب بشرته القاتمة، مولود على مقربة من الموصل عام ٧٨٩ عزف فى بغداد عند هارون الرشيد. ووقع فى محنة بسبب خصومات موسيقية، فرحل إلى المنفى، وجاب البلاطات العربية فى شمالى إفريقيا. وفى العام ٨٢٢ نزل فى الجزيرة، واستقبله عبد الرحمن الثانى فى قرطبة. وسرعان ما اكتسب نفوذاً واسعاً بفضل موهبته السياسية الطبيعية وسعة معارفه لأحدث الاستخدامات فى ذلك الزمان. وقد أغنى المطبخ بالهليون... وثوّر الموسيقى: أدخل مخلب النسر لعزف الطمبور (العود الطويل)؛ واستبدل أوتار الحرير بأوتار من الأمعاء؛ وأسس فى قرطبة أول معهد للموسيقى فى أوروبا، ووضع ألحان أول النوبات، وهى المصدر التاريخى للكانتى خوندو والفلامنكو... ومع طرد الموريسكيين من إسبانيا،

وصلت هذه الموسيقى إلى بلدان المغرب، حيث مازالت شائعة ويُحافظ عليها فى التقاليد الشعبية باسم الموسيقى الأندلسية».

«من أين أتيت بهذا كله؟»، سألته.

«آوه» قال بينتو، وكأنه يقلل من أهمية الأمر، وأضاف: «هذا وارد فى شرفنامة، أى أخبار شرف، حسب النسخة المطبوعة بالإسبانية على يد مانويل مارتوريّى».

تناولنا أقداح مارتيل أخرى، فى صحة مارتوريّى، ثم ودعت بينتو، ولم أتذكر أن أسأله عما إذا كان أولئك الأزيديون الغامضون الذين حدثنى عنهم جماعة أو فرع إثنى من الأكراد لهم ديانتهم الشيطانية الخاصة أم أنهم مجرد طائفة دينية. ولكننى عندما رجعت إلى كتاب العجوز ريفادينيرا فى البيت، وبعد تصفح وتجاوز ملازم مازالت مغلقة من الكتاب، وجدت هذه القصص التى أستنسخها بمعظمها:

«لكن من لفتوا انتباهى أكثر من سواهم هم عبدة الشيطان الذين يشغلون سبعين قرية على مقربة من الموصل، كل قرية منها تضم ما بين عشرة وستين بيتاً، وقرى أخرى فيما وراء بحيرة أرومية. وهم قليلو العدد فى هذه المدينة، لأنه يحظر عليهم إقامة معابد. أما مقر الزعيم الروحى الذى يعاملونه كأمير، فهو فى جبال سنجار، حيث يقيمون كل عام احتفالات كبرى فى شهر سبتمبر... ويقتصر السماح بمعرفة القراءة والكتابة على زعمائهم، وبالتالى دراسة كتاب ديانتهم

العظيم الذى يقال إنه موجود فى مدينة حلب. ويملك الأمير فى بيته سبعة ديوك من الصفيح، بالحجم الطبيعى، ترجع إلى أوثان كثيرة أخرى، ويقال إن من صنعها هو سليمان؛ ومن سماتها العديدة، هناك افتقارها إلى إحدى العينين. وإحدى طرق عبادتها تتمثل فى إشعال صمغ الصنوبر أمامها، نهاراً وليلاً، دون توقف. وفى مارس وإبريل، يأخذ أكبر الزعماء سناً أحد تلك الديوك، ويحمله ليلاً فى موكب عبر مختلف القرى؛ ولدى رؤيته قادماً، يخلع العامة عمائمهم، ويقبلون الأرض، ويضربون صدورهم، ويقدمون له القرابين التى تسمح بها إمكاناتهم؛ ومن يقدم أكثر ينال امتياز الاحتفاظ به فى بيته بقية الليل».

«وعبدة الشيطان جميعهم من الفلاحين، يصومون ثلاثة أيام فى بداية رمضان ويمارسون الختان، ويحظر عليهم قص الشعر واللحية، ولا يمكنهم الدخول إلى حمام للاغتسال، ولكنهم يستطيعون الاستحمام فى نهر؛ ولا يتفوهون أبداً باللعنات، خشية أن تقع على الشيطان. ومن غير المسموح لهم نطق كلمات تبدأ بحرف الشين، لأنه الحرف الأول من شيطان، سواء بالعربية أو التركية أو الكردية».

ويضيف ريفادينيرا أيضاً: «قد يكون السبب الذى قادهم إلى مثل هذه العبادة الغريبة واضحاً وجلياً فى نظرهم. فهم يقولون إنهم واثقون من رحمة الله، ولكنهم ليسوا كذلك بشأن الشيطان».

ما رأيك يا بروفيسور؟ أنا أرى فيه جواب فلاح محترس، يحاول التودد إلى القوى الموجودة واسترضاءها. وما عدا ذلك، لا أجد فى وصف رحالتنا الطويل لطقوس الأزيديين أى شىء مخيف أو شيطانى.

إننى أتساءل عما إذا كانت هناك حقاً فى مكان ما، باستثناء هذه الطائفة الإسلامية، عبادة منظمة للشيطان، باعتباره تعبيراً عن الشر. لدى شكوك كبيرة حول تصنيف «عبدة الشيطان» فى هذه الحالة وغيرها. فهناك تشيلى أكن له الكثير من الاحترام، وأعنى ريكاردو لاتشام (العجوز)، كتب عن أهلى المابوتشيين باحترام وسعة اطلاع (مع أنه أخطأ أيضاً). فهو يجادل من قالوا إن المابوتشيين الأراوكانيين كانوا ملحدين ويمارسون السحر أو التعاويذ الشيطانية. ويقول لاتشام إن الإخباريين الأوائل عن عادات الأراوكانيين كانوا أساقفة مثل روساليس، أو الأباتى مولينا أو الأب أوفايّا، ولأنهم أناس دءوبون يسعون لأن يكونوا صادقين وعلميين، لم يستطيعوا الخروج من أطر عصرهم وتكوينهم الدينى. وقد كانوا يشمون فى طقوس السكان الأصليين رائحة الكبريت الشيطانية. والكنيسة الكاثوليكية، مثل المسلمين فى العراق، مع أنها ربما كانت أقل عنفاً، فعلت الشىء نفسه لاستئصالهم. والمابوتشيون من جهتهم، مثل غيرهم من الشعوب التى تجد نفسها فى أوضاع مشابهة، تراجعوا ظاهرياً وتحولوا إلى

المسيحية، لكنهم واصلوا الحفاظ على تقاليدهم القديمة، وتمسكوا بها أكثر من السابق. إذاً، بالنسبة لمسألة عبادة الشيطان... حتى هنا ولا مزيد.

تلك المحادثة مع بينتو والتأمل قليلاً فى هذه الأمور التى قلما أهتم بها، أفادتنى فى رحلتى لأكثر من ثلاثة أسابيع فى ذلك الربيع الأيارى الجليدى، والبديع أحياناً، والتى قادتنى إلى قلب كردستان، عبر طقطق (يا للاسم اللطيف!)، وأربيل، وصلاح الدين، مسقط رأس القائد العظيم الكردى (وليس العربى) الذى هزم الصليبيين الذين كان يقودهم ريتشارد قلب الأسد. وقد ذهبت كذلك إلى السليمانية، وبعد ذلك دخلت الأراضى التركية، وجلت على ديار بكر، وهكارى، وماردين، وسرانك...

تجربة يستحيل نقلها (مع أننى سأحاول ذلك يوماً)، سرت فيها على أشد الجروف والقمم وعورة فى العالم، بسيارتى الويليز أو على صهوة حصان أحياناً، ترافقنى أفضل مترجمة محتملة: زكية. وأخيراً قمت برحلة سريعة حتى اسطنبول، ومنها أرسلت إليك بطاقة بريدية لجسر جلاطة، آمل أن تكون قد تلقيتها.

لا أريد ولا أستطيع إطالة هذه الرسالة أكثر، فمن ستحملها تنتظرنى. هناك أشياء متبقية فى دواة الحبر أكثر من أى وقت مضى. مازلتُ أعمل كثيراً بإدمانى المفضل، وهو يتمثل الآن فى رسم قطع آجر. لا تفزع. لك مودتى.

هـ.

ملاحظات على الرسالة الثانية عشرة

رسالة عظيمة مغزى من وجهة نظر فنى- تاريخى - لأنه فيها يتحدث رسام كما بشكل عابر عن لوحته «آجر» الناقد لامع سيد روميرا هلل لها فى أواخر عام ١٩٦٢ مع أنه، بسبب خطأ لا يغتفر بتعليق اللوحة (رأس إلى أسفل)، يتحدث عن «رؤية عميقة غور». ومن وجهة نظر أخرى، مع ذلك، يتمكن من تقويم صائب جداً فى التقدير. إنه دون شك رسم دوارى مستوحى من قوس كسرى فى طيسفون، ويتحدث عنه هويركيو فى رسالة التى أتحدث عنها.

ربما لا حاجة إلى إلحاح من جديد على تقدير خاطئ لناقد جريدتكم محترم سيد مالالانيت الذى يصنف بـ «دراسة شكلانية غير كاشفة» هذا الرسم عميق مضمون تأملى.

وصف مضحك لمنهج تصنيف رسائل فى بريد بغداد حوّله فنان إلى لوحة جرافيك بماء نار، على طريقة دوميه، أتشرف بامتلاكها. هويركيو منحها اسماً مناسباً «رسائل جوية» وهى فعلاً تطير فوق ممر من وجوه عربية وتشيلية أو تشيلية - عربية حول

طاولة كبيرة، بملامح مختلفة، بينها صورة ذاتية غير متوقعة، ملامح مابوتشى بارزة بقوة.

فى عشرة أيام ثانية من شهر أغسطس، يصل أخيراً إلى براغ مسافرانا العزيزان. وفى هذه أثناء تجرى محادثاتى ما قبل أخيرة مع هويركيو. وفيما بعد، رسائله أخيرة من بغداد أيضاً تصبح قليلة. وتتوقف بعد ذلك نهائياً.

تبكى باختلاج، تتشج صهرتى العزيزة ريبيكا حين تلمس الأرض طائرة تحملهما من فيينا. وأكثر عندما باتجاه من ننتظرهما يتقدمان محملين بحقائب وأكياس، عبر قاعة مطار روزينى قديم. ولكن دون مزيد من مقارنات، تقريباً تختنق ريبيكا ببكاء بينما تقترب من ابنتها عزيزة إيفا، نحيلة جداً. عيناها زرقاوان رهيبتان فى وجهها، وخطوط أوردة زرقاء على صدغيها تظهر من خلال بشرة شفافة ولم أستطع إلا أتذكر رسم الباستيل وأبيات شعر ماتشادو «السيئ» (لماذا؟) التى كتبها هويركيو على شكل إكليل فوق صورتها بالباستيل: «ذهب أصفر ......»

وبتذكر القصيدة نفسها أستطيع أنا أن أضيف: «كانت كلها عينين زرقاوين وفى العينين دموع» .فى عينى إيفا لم توجد فى هذه مناسبة دموع ـ يجب تحديد هذا ـ مثلما دموع غزيرة بالمقابل فى عينى ريبيكا. ولكن منها كان يعبق عطر كآبة (إذا كانت لكآبة رائحة).

بينما أم وابنة تتعانقان فى عناق طويل، أشد أنا على يد رسام يمنى الذى بدا لى، بعد ابتسامة أولية دافئة، يلامس حالة معنوية غريبة، كما لو أنه فى بعيد، ليس فى ماضى ولا فى حاضر، وإنما فى مستقبل، يختبئ شيء لا يمكن تجنبه.

أعتذر. هل يمكن أن أشوه أو أُسقط على أحداث تافهة أو عادية شحنة عاطفية ناتجة عن أحداث تالية، وأكون عندئذ صانع نبوءات أحققها ذاتياً وليست وقائع بأى حال، أو أنسب إلى تدخلات ما فوق بشرية أو تمتع بميزة تكهنات لم توجد قط؟

ممكن، ممكن.

سأحترس إذاً من ألعاب ذاتية فى خداع نفس، وأقتصر على أحداث مؤكدة.

صحيح: إنه متغير. أكثر أسمر بكثير من بشرته، بسبب تعرضه لشموس قوية بالتأكيد. الشعر أسود جداً، سبط، طويل جداً، حتى يشكل لبدة وبعض التغيير فى وجه وملامح، إنه الآن أشد قسوة، أشد صرامة. تقريباً مختفية تماماً نعومة قديمة أو استدارة طفولية فى ذقن، وشفتين، وخدين. واليوم أقول خطوط عسكرية مستقيمة حلت محلها. ولكن بعد ذلك انفجرت ضحكته قديمة ونظرته مباشرة، شديدة إنسانية، أكرر، بتأكيد خاص: إنسانية. للحظات، لم يفقد على أقل مزاجه ماكر أو كئيب.

بكثير من حزن تقول لى ريبيكا بعد يوم واحد إن علاقة بين زوجين ليست كما يجب. إيفا تظل

متحفظة، ولكن أخيراً تتفجر بدموع عندما توجه إليها ريبيكا سؤال نسائى تقليدى بقدر ما هو خطير: أنت سعيدة؟ تبكى، ولكنها تكتفى بالقول كلام قليل جداً. تعترف أن هويركيو قد تبدل، ربما هناك امرأة أخرى، ولكن ليس هذا فقط. ومرة أخرى بكاء عاصف.

ومع ذلك، يحافظان على قرار عودة معاً إلى بغداد مرة أخرى، رغم معارضة قوية من ريبيكا. إيفا وأليرو لم يبقيا إلا أكثر قليلاً من أسبوعين فى وطن محبوب. وفى هذا وقت، أسبوع واحد فقط فى براغ. بقية وقت فى مصحة فى تاتراسكا ليمونيكا، أعالى جبال تاترا؛ حيث يوم «لا عمل» كما نسمى حرفياً بالتشيكية يوم الأحد (Nedela) أمضيناه معهما برفقة روزينا والصغير دافيد. عند رجوع رافقنى هويركيو إلى براتيسلافيا وبعد ذلك، بقرار مفاجئ، واصل معى حتى أوستى ناد لابيم. وهناك، فى رحلة بقطار، وبعد ذلك فى بيتى ظللنا حتى فجر فى أطول محادثة بيننا. روزينا فى تلك أثناء ظلت مع طفل فى جبال تاترا، يوم آخر على أقل، كما قالت، من أجل إعادة ترتيب الأمور مع إيفا. وأضيف أننى تبادلت حديث مع رسام فى براغ أيضاً.

موضوعات حديث فى مناسبات ثلاث يمكن تصنيفها فى ثلاث مواد، هى: آ) علاقة مع إيفا وغيرها؛ ب) علاقات مع الرسم؛ ج) علاقات مع الدنيا (الحياة؟).

هذا «سهل جداً» أقول حسب تعبير يستخدمه هويركيو. لا يجب أن يُفهم على أنه جدول جلسات

بشكل متتال، وبهذا ترتيب بالذات. كل شىء كان يتشابك، والترتيب أكثر من محتمل، بل مؤكد، أدخلته أنا بطريقة تفسير ذاتية، مهما حاولت أنا توخى موضوعية.

المادة آ.

اعترف هويركيو، بسذاجة تلك التى يُظهرها دوماً معى، أن علاقات مع إيفا تأذت كثيراً، لحظات صعبة، ربما تجاوزت إمكانية إصلاح. وفى هذا يؤثر «تبديد منوى» حسب قول رسام، مقاربة دون كابح مع أخريات نساء، ولكن ليس فقط هذا. يضيف: «يبدو صحيحاً يا سيد جوزيف ما يقولون فى بلادى إن المرأة ولدت لتتزوج والرجل لعدم يتزوج أبداً»

لفتُّ نظره إلى خطأ فى هذا طرح، لأن زواج يتطلب فى كل مرة توافق رجل وامرأة (باستثناء حالات شاذة فى بلدان مثل السويد والإنكلترا). تسببت كلماتى بإحدى أشد نوبات ضحكه اندفاعاً حتى انحنى تماماً من خصره.

بعد أن هدأ قليلاً وجدياً، بالرغم من بقاء جمرات متقطعة من ضحكة كامنة، حدثنى باقتضاب عن جميلة (أو Djamila أو Dzamila لأن حرف Z بلغتنا التشيكية متوجاً بـ «v» يلفظ تقريباً مثل ll فى كلمة caballo الإسبانية (إسبانية منطقة ريو دى لابلاتا)، أو مثل gg الإيطالية فى كلمة .Caravaggio تلك المرأة البربرية الجميلة ذات الزوايا التى تُذكِّر بمشية الجمل

وهى ترقص رقصة هز بطن. (انظر رسالة رقم ١١ وكذلك رسالة رقم ١٢ التالية).

لأنها كانت معروضة للبيع - بهدوء بالغ تكلم بينما أنا أبكم أنظر إليه بعينين جاحظتين - قرر شراءها. السعر لم يبدُ له مفرطاً. العملية بسيطة. المرأة تذهب معه راضية. تأتى عندئذ مشكلة غير بسيطة فى مكان تسكنه، وغير ذلك. فى إحدى لحظات يعرض عليها إعتاق، وجميلة ترفض، لأنها تخطئ فى تقدير نواياه. والخطأ يكبر. هويركيو لا يخفيها، فى علاقة جسدية زخمة بينهما.

لكن بغداد قرية. وربما تصل أخبار إلى إيفا، ورد فعلها نوبة غضب عنيف، تعانى بصورة مريعة، تريد الرجوع فوراً. تواصل جدل طويل، حاسم جداً. هويركيو يوضح فى بداية واثقاً جداً من نفسه، حتى إنه يمزح («مزاج نساء أقل مرحاً من مزاج دركى») ولكن كلماتها (كلمات إيفا) فى إحدى لحظات تصل إلى عظم، يقول.

توضيح متبادل لمراجعة علاقة معقدة بينهما: عدم انتظام (عذراً) سياق جنسى يُنسب، حسب رأى إيفا، إلى علاقات خارج زواج؛ وهويركيو لا ينفى، يقلل من أهمية، يطلب تفهم متطلبات ذكورية وحتى إثنية-وراثية، ميل وراثى متأصل إلى تعدد زوجات؛ وترد هى بسؤال غير متوقع بالنسبة له: وهل يمكننى أنا أيضاً ممارسة الحق نفسه؟

جدل غير منظم يتحول إلى سلوك مشترك. صمت غير متسامح من جانب رسام، وتركيز مهووس على رسومه، وغيابات مفاجئة دون تفسير لها، عدم اهتمام بكل ما تفعله هى، أو تفكر أو ترغب فيه.

هجوم مضاد من هويركيو يؤنبها على رفضها أمومة. وهى، متفاجئة جداً، تقول إن مسوغات عقلانية تظن أنها متقاسمة بينهما: ألم يتفقا أن ابن يجب أن ينجبا عند الرجوع إلى براغ، فى حياة منظمة، فى بيت خاص لهما، وعمل يوفر دخلاً منتظماً؟ هو ينفجر: «مثل هذه المشاريع تخنق! ليس لى روح عصفور كنارى. وماذا إذا كنت أريد شيئاً آخر؟ إذا كنت لا أريد عودة إلى براغ، إذا كنت أخطط - أو نخطط - لحياة أخرى، فى تشيلى مثلاً، أو بلد ثالث، كى أرسم، وهى تصمم؟» وغير ذلك.

هى تبكى. يحاول هو مواساتها. هى ترفض. يتواصل لجوء إلى نساء أخريات، وإلى مخاطر غامضة (لكليهما) فى نشاطات تأمرية مع إرهابيين أو أمور مشابهة. هو ينفجر من جديد. وأخيراً، باستنفاد تقريباً، تعترف هى ويعترف هو أن الحب موجود بينهما (ومازال). يجب الحفاظ عليه، انتظار نظام سلوك مشترك يحددان من أجل سنة أخرى أخيرة فى بغداد، لأنهما متفقان فى هذا أمر، وإن يكن لأسباب مختلفة: هى تريد عودة إلى بغداد لأن راتب سنة دراسية أخيرة، مثل راتب سنتين سابقتين توفير كامل تقريباً، سيكمل مبلغ مبرمج لشراء شقة وأثاث وأدوات

منزل وغيرها من ضروريات؛ وهو يشعر أن لديه مهمات معلقة، ورسم، وأشياء أخرى.

فى إحدى لحظات، أرى أن هويركيو يصمت عن شئ جوهرى بصورة ملحوظة، فأتجرأ على سؤاله: «وزكية؟».

رد فعل بارز: لمرة أولى على ما أذكر، يتورد خجلاً. وقت طويل يصمت. أخيراً يعترف (وسأكتب بأكبر دقة، حسب ما أتذكر):

«معك حق. زكية مشكلة وأنا نفسى لا أعرف حلها. عندما أحاول تحليلها، أصل إلى حائط آجر طيسفون: دون مخرج مرئى (إلا بهروب جوى عبر شرخ علوى). إنها لا توحى إلىّ بحنان زخم، وجاذبية غير محدودة، وضمان مشاعر مثلما هى إيفا، ولكنها تتسلط على عقلى. أستيقظ فجأة فى الليل وأنا أفكر فى الجنوب الأقصى... فى جسدها. أبحث فى نساء أخريات، وحتى فى إيفا، دون جدوى عن حركتها الخاصة تلك برفع رأسها بشئ من: كبرياء؟، رباطة جأش؟ ثقة بنفسها؟، تحدى العالم؟ والنظر بصورة مباشرة، دون ذرة واحدة من تغنج، أو حسية، أو تلميح أنثوى. التهرب ليس عملة سارية المفعول معها. هل هى جميلة؟ ربما. بالمقارنة مع إيفا يمكن القول إنها ليست جميلة. أو أقل جمالاً فى كل الأحوال. عيناها الخضراوان-الرماديتان (إرث أمومى سويسرى جيرمانى) غير واسعتين، لكنهما تطلقان شرر الحساسية، الذكاء. أوليس فى عينى إيفا مثل ذلك؟

بلى، فيهما. ولكنه شىء آخر. لا يمكننى تحديده. إنه شىء باعث على الجنون. ربما جسدها. أو طريقتها. (طريقتها بأى شىء؟ بالمشى، بالتكلم، بالاستلقاء، بالمضاجعة، بمجرد جلوسها واستماعها؟)»

قلت له كطبيب تقريباً: «يستخلص من هذا أننا حيال الحب العظيم. وليس هناك كائن بشرى مستثنى من هذا الأمر».

ضحك بقوة، ولكن دون سعادة: «أنت تفهمنى أيها الدكتور البروفيسور، لكنك لا تمنحنى مخرجاً. وماذا لو قلت لك إننى أشعر نحو إيفا كذلك بالحب العظيم؟».

استغرق فى تأمل ثم قال بعد ذلك: هناك أشياء أخرى. مع زكية، ومن خلالها، أقمت علاقة أخرى: مع شعبها الكردى. أعتقد أن لدى التزام تجاههم، التزام قوى كالتزامى تجاه أبناء جلدتى المابوتشيين. لقد ذهبتُ إلى بيوتهم فى الجبال، وشاركت معهم فى صلاة إلى إله معتقداتهم القديمة السابقة للقرآن، عندما كان الساحر يتوجه إلى النار، يحدثها بترتيلة ملحّة، يقدم لها الشراب، أى يسكب عليها خمرة سرية ويهز غصن قرفة. حسن، ليس غصن قرفة، بل شىء آخر، حزمة أغصان صغيرة يسمونها باريسمان ba-resmsn: يهزها ويشمها. ولكن لا تظن يا البروفيسور أن ما ينتابنى هو شعور دينى. إنه شىء آخر: تطابق مع خذلانهم، مع معاناتهم، مع سعيهم الضارى لترسيخ أنفسهم، مع نضالهم. هل تفهمنى؟».

المادة ب.

آراء هويركيو حول الرسم غير مباشرة تقريباً على الدوام. لا أقول، بأى حال، إنها نظرية أو ذات طبيعة عمومية، تقتصر على أعمال معينة، محددة، ولكن تأملات هو، غزيرة فى رسائل، هى فى الحقيقة تضىء أيضاً طريقة تفكير فنان حول فن. هناك شىء جلى: لا يوجد عنده أى شك حول فن تشكيلى - بمختلف لغاته - ليس كطريقة أكثر مثالية فقط، بل أقول كطريقة وحيدة لتعبير عن روحه. ويمكن رفض أيضاً، نتيجة أحكام مسبقة، اتهامات مخيبة لآمال بشكلانية تزينية، وحتى «رجعية» يذكرها مرات عديدة الناقد السيد مالالايت.

فى الحديث الذى دار جزئياً فى جبل تاترانسكا لومينيكا وجزء آخر خلال رحلة طويلة بحافلة وقطار إلى أوستى، عن طريق براتسلافا، هويركيو يسأل بصوت عالٍ حول أعمال رسمه. دون أن يفهم هو نفسه سبب هذا «مرض» (كلمته هو)، تَسَرُّع فى التهام كل شىء بعينيه، محكوم بقدر لاإرادى باختزال كل تجربة، كل شىء، كل منظر أو موقف، إلى مصطلحات تشكيلية.

«إننى أشبه روكفلر»، قال.

ويضحك بشهية عندما أسأله إذا كان هذا الشخص رساماً جيرمانياً أو من بلدان واطئة.

«لا يا سيد جوزيف. إننى أعنى المليونير اليانكى. العجوز، مؤسس السلالة».

«أكان هاوى رسم؟».

قهقهات جديدة. وأخيراً يوضح: لقد قرأ ذات مرة تحقيقاً عن رجل المال المذكور. وعندما سأله صحفى كيف توصل، وقد كان فقيراً فى شبابه، إلى جمع هذه ثروة هائلة، أجابه روكفلر: «لقد كنت دوماً، منذ الطفولة، حيال كل ما أراه، كل ما أسمعه، كل ما ألاحظه فى أى مكان أكون فيه، وكل ما يخطر ببالى، دوماً دوماً أفكر فى أى طريقة يمكن أن ينفع فى كسب نقود».

وقال هويركيو إن الشىء نفسه يحدث له مع الرسم. فكل شىء بالنسبة إليه ينعكس تشكيلياً.

ميله الغريزى، أكثر من كونه مشروعاً عقلانياً، هو وضع قائمة تصنيف للعالم، ليس ببرودة كاتب بالعدل بقدر ما بحرارة توالى التجارب الحيوية التى تُلزم كيانه بالكامل، بما فى ذلك المستوى التأملى - الفكرى. ويعمل هو فى وقت نفسه على «ترجمة» كل ذلك - هل يمكن استخدام كلمة ترجمة؟ - إلى مصطلحات تصويرية.

يبدو غير مرتاح عندما أسأله لماذا لا توجد رسوم عن مسقط رأسه وعن شعب مابوتشى. وبنوع من حرارة يرد إنها موجودة، قسم كبير من أعماله الأولى تحتله تلك موضوعات. لكنه الآن مضطر، يؤكد على ذلك، إلى تطوير هذه موضوعات أخرى. «لا يمكننى أن أرسم من الذاكرة» و «بالرسم من الذاكرة سأسقط فيما هو متعارف عليه، ربما فى الـ «Chilean Art»

(وهو بالنسبة إليه لعنه). ومن جهة أخرى، ربما يكون التجول فى أوروبا وشرق أوسط شرطاً ضرورياً للعودة إلى ما هو محلى بعينين أخريين.

وأُلحُ بشىء من الوقاحة ـ أعترفُ بذلك ـ على أنه ليس دوماً الفنان بحاجة أن يكون على اتصال مباشر مع عالمه أصلى. ألا يمكنه، وهذا مثال نظرى، أن ينجز بكل عمق لوحة من صور مطبوعة فيه منذ طفولة، ويستعيدها من بعيد؟

«بروفيسور» يقول لى ببعد نظره الشيطانى، «أتقترح علىّ الأسلوب الشاجالى؟» .ولا أجد ما أجيب، فقد رأى هو فى ذهنى لوحات شاجال عن قرية ذات سور أعمدة خشبية، والعروسة، وعازف جيتار، وخراف تطفو فى جو. «لا يا بروفيسور. حنين شاجال لا يعنينى، مع كل الاحترام. مرضى هو شىء آخر».

المادة ج.

إذا لم تخنى ذاكرة، فى محادثتنا الثالثة، عند الفجر، ونحن وحدنا فى بيتى فى أوستى، تجرأت على طرح أسئلة حول علاقته بأكراد.

رأيته مشوشاً جداً. لا، من الأفضل القول معقداً جداً من أجل شرح، أو عرض، فكرته حول موضوع. من كلامه، وكان وافراً على غير عادته، اكتشفت من الممكن شيئاً هكذا: بنسبة له جوهرى جداً التزام مع شعبه مابوتشى؛ فهو يشعر دوماً أنه مابوتشى، مهما بلغت عظمة نجاحه، بما فى ذلك نجاح مالى، ولا بد له فى نهاية مطاف من عودة إلى أرضه أراوكية، إلى

أنـاسـه، إلى مـشـهـد طـبـيـعـى الـفـاتن، إلى لـغـتـه، إلى مـوسـيـقـاه، وإلـى نـقـوش رصـيـنـة بـأبـيض وأسـود عـلى عباءات بونتشو تقليدية.

ولكنه بابتسامة مريرة يقول: إننا غير مثقفين. كثيراً يفكر فى عالم، فى كتب، أفكار، مدن، تجوال. البراءة ضاعت. فى تلك أيام فى تشيلى، جال على قرى مابوتشية، لاحظ أنه ينظر بطريقة أخرى. اللقاء دافئ مع الـنـاس، هـنـاك مـشـاعـر لا تحـتـاج كـلـمـات، ولكن... هل يقضى بقية حياة فى قرية كوراريهوى؟ مستحيل. يتساءل: هل فاسد أنا؟ ويجيب: نعم. الثقافة فساد ـ فهم مغزى كونى، وليس أسلاف فقط ـ هو فساد. رسومه مثلاً، أليست لأقلية مختارة متنفذة؟ على سبيل مثال، لإقطاعيين عرب أثرياء، لأوروبيين متأنقين، لهوينكا تشيليين أغنياء. إنه بحث كونى، ربما، من محتمل أن شيئاً ينجو لمزايا فنية (إذا كان موجوداً)، ولكن لوحاته ممتلئة برسائل «ثقافية» لمبتدئين، لزملاء، غمزات بين متفاهمين.

الأسوأ ليس هذا. إنه النجاح بجوقة شرف، بريت متملق على الظهر، بحساب مصرفى، برغبة كبيرة فى نسيان صندل الأوخوتا، وأسمال، وجوع، وازدراء. هذا يُنتج ازدراء ومعاناة هائلين، لأنه كذلك، أليس الرسم هو ما يريد عمله قبل أى شىء آخر؟

عندئذ، وفى بلد ناء جداً مثل عراق، تقول رسالة الغريزة من جديد: لا تنسَ. وتكون حاملة الرسالة هى زكية، بجسدها الذى مثل جسد عظاية مرنة، وبعينيها العظائيتين الخضراوين ـ رماديتين، وذكائها المتوقد.

ويفكر المرء (المرء = هويركيو) وهو يجوب تلك الصخور، ويحس بنظرة أخوية من أولئك رجال ذوى شوارب وتلك النسوة سمراوات وحانيات، وتدمع عيناه معهم إلى جانب موقد يشوون عليه فخذ خروف، ويشاطرهم حرمانهم منذ ثمانمئة سنة، عندما يسمع أغنياتهم حزينة متماوجة، عندما يشم شمع زيت بنادقهم مقدسة، عندما يشد حزام حصان جبال يلهث وينظر بطرف عينه، عندما يُستقبل بثقة مطلقة فى بيوتهم الحجرية، بالرغم من عدم وجود شيء مشترك - باستثناء شرط المنبوذين -، وقبل ذلك كله عندما يرى أطفالهم الذين ينتقلون من مهد إلى معركة، يفكر أحدنا: ما أهمية أحلامنا صغيرة، أحلامنا برجوازية - صغيرة ببيت مفروش بسجاد مع ساعة كوكو وأى أهمية برازية (مع معذرة، ج.ب.) لرسومى التى لا يفهمها إلا بعض المترفين؟

على هذه الحجج، عارضتها طبعاً بحججى. على سبيل مثال: من يجبره على العيش فى كوراريهوى؟ إذا ما رجع إلى بلاده، لا يخامرنى شك فى أنه يستطيع عيش فى عاصمة، سانتياجو. وليس حياة سيئة، بسبب نوعية رسومه، بسبب علاقات دولية، وغيرها. وسيكون بالإمكان دوماً فوق ذلك، السفر إلى منطقة مابوتشى، إذا رغب.

وركزتُ بصورة خاصة على واجبه كفنان، بإعطاء أقصى ما لديه، وفهم أن تفتح كامل لرسام هو أعظم تقدمة لقضية إثنية - وطنية لشعبه وغيره من شعوب. وأن قطع فنه، بتره والتضحية به، وحتى تقديم حياته،

حتى فى سبيل أنبل أسباب سيكون جريمة، خيانة لنفسه. كان يسمعنى باهتمام، وهذا هو شىء وحيد توصلت إليه، ولكن ليس أكثر من ذلك.

مرة أخرى سافرا كلاهما، حزينين جداً، إلى بغداد فى يوم حار ذى غيوم منخفضة جداً تتوعد بمطر، والعزيزة ريبيكا بكت مثل مجدلية. وفكرتُ أننى لن أرى هويركيو بعدها، لكننى كنت على خطأ.

الرسالة الثالثة عشرة

قصة جميلة والصور السبع/ ابتسامة نعجة حكارى/ اخبار عن معرض تشيلى.

عزيزى جوزيف: لقد أحرجتنى؟ باستجواباتك البارعة المتنقلة، المشاءة، والسكة-حديدية. لقد أجبرتنى على ممارسة تنظيف استبطانى، وهذا شىء أشبه بإخراج الصملاخ من أذنىّ الروح. لم يكن هناك كثير من الصملاخ فى نهاية الأمر. وأجدك محقاً فى كل أمر تقريباً، لكنك تمضى أسيراً أيضاً. أنا أسير. ربما لستُ كذلك الآن، ولكن ذلك محتمل الحدوث فى أى لحظة.

انتهز الفرصة للكتابة إليك الآن، فى هذه الأيام الأخيرة من سبتمبر، مستغلاً ـ كالعادة ـ وجود مسافر. إنها مسافرة هذه المرة، تدعى فريدة، وهى تلميذة عند إيفا، وتسافر إلى براغ فى منحة دراسية. لديها معرفة باللغة التشيكية، ولكن ليس بالإسبانية. ولهذا تجرأت على إرسال الرسالة معها، لأنها قد

تكون غير متكتمة فى حالة أخرى. وهى تحمل إليك فى الوقت نفسه شيئاً مهماً.

من الموضوعات العديدة التى تركناها معلقة، أو لنقل إننا قاربناها قليلاً، هناك موضوع جميلة. وقد وعدتك أن أخبرك بكل تفاصيله، وسأفى بهذا الوعد الآن. أعود إلى تلك الليلة التى شاهدتُ فيها رقصة هز البطن، وهذا أمر مضى عليه، فلنر، حوالى سنة. غير معقول. الوقت يكتسب سرعة فاحشة.

ومثلما تتذكر، فقد افترقت عن بينتو بشىء من الفتور نحوه. أما نحو المرأة المذكورة، سمراء قصيدتى، فالأمر عكس ذلك تماماً. فكرت فى العودة إلى موقع الجريمة، لكننى أحسست بأننى مهزوم سلفاً لكونى أصم أبكم بالعربية. توجهتُ متضايقاً نحو بيتى، ولكننى كنت ذاهلاً إلى حدّ أننى بدل الانعطاف عند ناصية إلى اليمين، انحرفت نحو اليسار ورحت أمشى على غير هدى ودون وجهة لساعات.

سرت فى شوارع وأحياء مجهولة تماماً، وبائسة فى الغالب، وأعتقد أنها خطرة أيضاً. وأمام بوابة ضخمة لأحد المساجد، رأيت أعداداً من النائمين الملتفين بأسمال. وآخرين، أشخاصاً منفردين، أو شخصين معاً، أو أسر كاملة مع الأولاد والأطفال، مطروحين فى ساحة أو أمام بيت، تحت غبار الصحراء وتحت القمر الجديد اللامع، غير أن خديه يتوجهان إلى أسفل، باختلاف كبير عن قمرنا، القمر الشرعى، الذى لا تعرفونه أنتم أهل النصف الشمالى، ويتوجه خداه إلى أعلى، كما يجب.

ولم أكن، أثناء سيري، أفكر فى الأجساد السماوية وإنما فى جسد أسمر وإنسانى وأنثوى. كنت مضطرباً جداً، وأنا أعترف بذلك. ووصلت إلى البيت متعرقاً ومحموماً مع بداية الفجر. كانت إيفا تحتفظ بالمصباح الذى بجانب السرير مضاء وهى تقرأ - فى مثل هذه الساعة! - فى جريدة «رودى برافو» نظرت إلىّ باطمئنان خالص، وبعينيها الزرقاوين المفتوحتين جداً، وقالت بالتشيكية فى الأصل: «Ahoj! Jak se mas»(*) مما استثار حفيظتى بصورة غير مبررة، وهائلة للسبب نفسه. فزمجرتُ «أى براز تقرئين فى مثل هذا الوقت» فردت علىّ ببراءة: «إنها مقررات اللجنة المركزية حول الإصلاحات الزراعية» أصابنى الغضب بالبكم، ولم أدرِ بماذا أرد عليها، فاخترتُ أن أطلق ضحكة زائفة. ثم ذهبتُ إلى الحمام، وغسلت وجهى بماء بارد، ورأيت نفسى فى المرآة بوجه مجنون. كنت أتهاوى من النعاس، وكان فى فمى أثر ذلك الطعم اللذيذ للعرق، والذى صار الآن أشبه بماسورة متأكسدة بحمض النِتريك. انتقلت إلى المطبخ، وشربت نصف لتر ماء معدنى، ثم عدت إلى غرفة النوم، ولاحظت أن إيفا توقفت عن قراءتها الأيديولوجية وتظاهرت بالنوم. سقطت إلى جانبها بزمجرة خنزير. لدى فضيلة النقد الذاتى، وهذا لمصلحتى.

عندما استيقظت فى اليوم التالى، بعد منتصف النهار، هاجمنى جنون الأحمق موراليس، لكننى قاومت

(*) مرحبًا. كيف الحال؟.

هجماته، وبعد استحمام تأملى تحت الدش، قررت اللجوء مرة أخرى إلى بينتو.

استقبلنى بشىء من التحفظ أو الخوف، مستذكراً توتر وداعنا. لكنه فتح عينيه مثل صحنين عندما قلت له عن قرب: «أريد شراء البربرية السمراء».

«فحلات مشوية!» صرخ وراح يضحك مع اهتزازات كبيرة من بطنه.

عندما اقتنعَ بأننى أتكلم بجد، سألنى: «ولماذا»؟

«أريد أن أرسمها»، أجبته. كان ما قلته الحقيقة، ولكن ليس كلها. تفحصنى بصمت وصدقنى. على ما أعتقد. لم تستثر المهمة حماسته، لكنه قدم لى فى نهاية الأمر المساعدة التى طلبتها. وكان هو عملياً من أنجز الجزء الأكبر من الصفقة. وكانت أغلى كلفة وأكثر تعقيداً مما تصورته. لأنه كان لا بد من: أ)المساومة والتوافق على سعر مع البائع؛ ب) الدفع؛ ج) نقل البضاعة إلى مكان مناسب وآمن، وهو مكان كان لابد من العثور عليه مسبقاً واستئجاره؛ د) التفاهم مع جميلة حول نواياى.

وكان هذا الأمر الأخير هو الأصعب. فلو أن نواياى كانت داعرة ومنحرفة، لكان الأمر أسهل. أشد وضوحاً بالنسبة إليها. ولكن، السماح لى بأن أرسمها؟ فهذا أمر بمنتهى الانحراف (ربما كانت على حق) وهو يدخل فوق ذلك فى ميدان المحرمات القرآنية، التى تكنّ لها جميلة احتراماً كبيراً، مع أنها ليست متدينة، نتيجة قرون من بتر أطراف كفار متنوعى اللبوس.

أما بالنسبة لنيتى فى أن أدفع لها مقابل عملها كموديل، فكان أمراً لا يستطيع عقلها استيعابه. ولم يفهمه بينتو نفسه أيضاً: «لا يمكنك أن تدفع مقابل شىء تملكه»، كان يقول لى بكل منطقية. وقد تعقدت الأمور أكثر بسبب مسألة اللغة (فإلى جانب لغتها البربرية الشائعة فى جبال الجزائر، كانت تتكلم بعض العربية، وكلمات من الفرنسية).

وأخيراً تفاهمنا. لا تسألنى كيف. ربما عن طريق الجلد. فقد كانت بشرتها قصيدة. أفخم من جلد «سَموم» بالنظر إليها عن قرب، على النور الطبيعى، يبدو فيها شىء أشبه ببقع ذهبية أو أشد وضوحاً، خليط من الذهب والفضة. مع اختلافات حسب الأمكنة. ففى الوجه، توليفة من تلونات القهوة ـ مع الحليب أو من دونه، أو متوسطة الحليب ـ، والبنفسجى حول العينين وفوق الجفنين، فحم العينين اللتين إذا ما نُظر إليهما عن قرب بتدقيق وضوء معاكس، يكشفان عن قوس قزح مخملى بلون تراب المغرة المحمص. ونوعية نسيج البشرة، وصقلها، ونعومتها اللذيذة التى أنتجها الجان، والشمس، والضوء، والرمل، والريح، وتضاريس الصحراء، وصخور جبال القبائل. أضف أخيراً الانطباق التام لذلك النسيج على العظام المتقنة. بل أكثر من ذلك، فالجديلة الطويلة والثقيلة التى تتحول، عند إفلاتها، إلى أشد أنواع الوبر فخامة، بسوادها شبه الأزرق، وإن كان يعكس فى بعض الظروف انعكاسات حمراء.

ولا يمكن لك، من جهة أخرى، أن تقول شيئاً عن الطبيعة الحيوانية لأناقتها، حتى فى أدنى الحركات، سواء فى رفع ذراع، أو القرفصة للتبول فى الفناء، أو فى بقائها واقفة، متأملة (وهذا افتراض)، على ساق واحدة، والثانية مرفوعة وباطن القدم يستند براحة على الركبة الأخرى والذراعان متهدلتان أو جالسة على الأرض وهى تنظر نحو الصحراء، كأن عينيها تخترقان السور، بظهر مستو يستند إلى الجدار وساقين متقاطعتين، وذراعين طليقتين، ويدين مبسوطتين إلى أعلى.

وكم هو عمرها؟ سألت نفسى هذا السؤال مرات كثيرة، ولكننى لم أتجرأ قط على سؤالها، عن طريق الوسيط بينتو. يمكن لعمرها، حسب تقديرى، أن يكون بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين.

أحضرت من عند سليم، وهو تاجر فى شارع هارون الرشيد، عدة قطع قماش مختلفة الألوان: أرجوانى، أزرق بروسى (تقريباً)، برتقالى، أخضر، أصفر كرومى، وبنفسجى قاتم. آه، وعدة أمتار من مخمل أسود. هل حزرت ما هو مشروعى؟ رسمتها سبع مرات، مع هذه الخلفيات المعلقة كستائر، وفى أوضاع مختلفة. وفى كل مرة كنت أرسم جسدها بتلونات مختلفة، لأن تدرجات الخلفية تملىٍ على دوماً مقاماً جديداً. إنها سبع لوحات كبيرة، ست منها شاقولية وواحدة أفقية، بالحجم الطبيعى. وكمية كبيرة من الرسوم الأولية والتخطيطية والإسكتشات التى تفاجئنى أنا نفسى.

لكننى تجاوزت بعض الأمور. فقد أسكنتها أولاً فى بيت صغير ومعزول، له حديقة، فى حى الأغنياء. وقد كان المكان محكم السرية. ولا شك فى أن مالكه - وهو عقيد فى القوات الجوية مشغول بشراء طائرات من الاتحاد السوفيتى - تصور أننى أريد البيت لاستخدام مشابه لما استخدمته من أجله (دون جلسات الرسم). وكان بينتو، طبعاً، هو من وجد البيت وتعاقد مع امرأة لتقوم بالخدمة.

جميلة التى لم تكن تجد صعوبة فى التعرى، واتخاذ الوضع للرسم أو أى شىء آخر، عندما رأت نفسها مرسومة، فى اللوحة الثانية غير المكتملة، أطلقت ولولة حقيقية، وراحت تصرخ وهرعت لتختبئ فى غرفة النوم.

لم أدرِ ماذا أفعل. انتظرتُ بضع دقائق وسمعت ضجة صماء. انتبهتُ إلى أنها تدفع الأثاث، وبالفعل، عندما أردتُ فتح الباب لم أستطع. لقد أقامت متراساً وراء الباب. كلمتها بعذوبة مستخدماً الكلمات الست أو السبع التى تعلمتها بالعربية، ثم بالإسبانية، وبالفرنسية، والتشيكية، وحتى بلغة المابوتشى. لا شىء سوى الصمت. فكرتُ فى أنها ستخرج فى وقت ما، ورحت أشتغل فى اللوحة، لكن الوقت مضى، وحلّ الليل دون حدوث أى شىء. عدتُ إلى الهجوم، طرقت باب غرفة النوم، دفعته بقوة. وأخيراً، وجهت إلى الباب بقلق بضع ركلات سببت لى ألماً شديداً، لأنى كنت حافى القدمين. قلت «يا للبراز»! وأنا أتلمس

قدمى. إنها كلمة تتمتع بقدرة على تسكين الألم. وكان الجواب مزيداً من الصمت.

لم أجد مفراً من النوم على الأرض، فوق سجادة، وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى، عندما جاءت امرأة الخدمة التى تبدو مذعورة على الدوام، بدا ذعرها الآن أكبر بكثير، بعد أن أدركت أو لم تدرك ما الذى يحدث. خرجت لأتصل هاتفياً ببينتو. (لم يكن موجوداً فى البيت). وكما هو متوقع، استمتع ذلك الوغد أجمل استمتاع بالوضع. فقد جاء فى سيارة تاكسى، بعد حوالى ساعتين، وهو يكاد يموت من الضحك. وكان يضع ربطة عنق زاهية، مع لطخة كبيرة من الصلصا على الجانب الأيسر من سترته. بدأ عملية دبلوماسية مطولة. كان هو المتكلم الوحيد خلال الساعة الأولى، بنبرة معسولة بصورة مبالغ فيها تكشف عن نفاقه الواضح. نبهته إلى ذلك، فازداد ضحكه. وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، تمكن أخيراً من جعلها تفتح الباب، بعد أن أزاحت المتراس الذى أقامته، وخرجت هادئة وصارمة، مثل ملكة، ملتفة بجلباب أبيض.

طالت المداولات والتفسيرات. وكانت جميلة تستمع إلى خطابات بينتو، وهى بالعربية كما يبدو، وفى بعض الأحيان بلغة حلقية، أظن أنها البربرية، ثم تغمض عينيها وتهز رأسها. استطعت تحديد كلمة «شيطان» التى كانت ترددها بالعربية. فخمنتُ أن رسومى تبدو لها من أمور الشيطان. كما أنها كانت تقوم بحركات لجوجة مشيرة إلى جسدها من الخصر

إلى أسفل، ووصلتُ فى التفكير إلى أن هناك فى ردّ فعلها عنصر حياء، لا أدرى كيف أسميه، أيكون دينياً؟

لا شىء من ذلك! أوضح لى بينتو فيما بعد، فضلاً عن الصدمة برؤية نفسها «منقولة» إلى قماش اللوحة، كان سبب رد فعلها المذعور هو أن رسمى، غير المكتمل، كان بلا ساقين. وقد ظنت أننى عازم دون شك على بتر ساقيها بنوع من السحر الشيطانى. استعادت الطمأنينة بصورة تدريجية، وأظن أن امرأة الخدمة كانت أكثر تأثيراً فى هذا المجال من قدرات بينتو. لأنها عملت من قبل فى بيوت بعض الأجانب، ويبدو أنها أقنعت جميلة بأن لدى هؤلاء عادة تعليق هذه الاستنساخات البشرية الملونة فى بيوتهم، وأن ما أفعله، فى نهاية المطاف، ليس خبيثاً جداً.

هذا كله كنت أستنتجه من تبدل سلوك جميلة التى بدأت تبدى فضولاً كبيراً تجاه لوحات صورها. وفجأة، ابتسمت برضا أمام إحدى اللوحات، كانت لوحة مستطيلة، تظهر فيها مستلقية وهى تنظر إلى الكاميرا (أعنى إلى المشاهد)، تلبس إلى حد ما كتلة شعرها بالذات الذى يبرز من خلاله نهداها المدببان والصغيران، والمخروطيان بصورة بارزة، مع تاجيهما الأسودين، (ولنقل دفعة واحدة: إنها إلى حد ما محاكاة لجميلات جويا)، على خلفية برتقالية شمسية.

لاحظت لديها بعض الدلال الذى لم يكن موجوداً فى السابق، وطريقة مدروسة أكثر، وأقل عفوية، فى

اتخاذ الأوضاع عند رسمها. وتبدو باهرة الجمال مثلما كانت. أضف إلى ذلك، كيف أعبر عما أريد، أيها البروفيسور، دون أن أُغضب احتشامك الطبيعى، بدأت تظهر مختلفة فى سلوكها الجنسى، وقد كان حماسياً على الدوام، مثلثى الشكل وغير متوقع. أأتجرأ على القول إنه قد ظهر بصيص... حنان؟

لكن الوضع تعقد فجأة. يبدو أن عقيدنا المرتبط بأسرة التكريتى كبيرة العدد، كان مشاركاً فى مؤامرة ما. وأنا أعنى صاحب البيت. فبعد ظهر أحد الأيام ظهر ضابطان فى سيارة جيب، يحرسهما جنديان متجهمان يصوبان بندقيتيهما الأوتوماتيكيتين إلى الذباب، طرقوا الباب بقوة عسكرية ودخلوا فجأة، حاملين فى اندفاعهم امرأة الخدمة. هددوا جميلة التى لم تقل لهم كلمة واحدة وظلت تقف بوقار، ملتفة بعباءتها السوداء. وجهوا أسئلة بأصوات صارخة، وفتشوا كل شىء بطريقة جنونية، قلبوا خزانة ومنضدة، وكسروا حمّالة اللوحات وإطارين. ولكنهم، لسبب ما، لم يلمسوا اللوحات (وكانت اثنتان من اللوحات قد أُنجزتا فى ذلك الحين) بالرغم من أن أحد الضابطين تأملهما مطولاً بملامح من هو غير مصدق لما يراه، منقلاً نظره مرة بعد أخرى من اللوحتين إلى جميلة والعكس بالعكس.

ما أرويه هو إعادة بناء للمشهد، بالاستناد إلى ما استطاع بينتو استخلاصه من امرأة الخدمة التى كانت تبكى دون توقف، ولا تريد سوى الهرب من هناك بأسرع ما يمكن. وتبين أن الهروب من هناك تحديداً

هو التصرف الأكثر عقلانية. أنا لم أكن موجوداً فى البيت عند حدوث التفتيش العسكرى. وصلتُ بعد ساعة من ذلك ولجأت على الفور إلى متديل دموعى المعهود: بينتو. غادرنا فى وقت قياسى بما نلبسه، وحملت معى علبة خشبية فيها ألوانى، واللوحتين اللتين أنهيتُ إحداهما والثانية كانت على وشك الانتهاء مخبئتين فى أنبوب مناسب أحمله تحت إبطى. وقد تصرفت جميلة بصورة رائعة: أعدت حزمة أمتعتها ـ وهى الآن أكبر قليلاً ـ، وألقت بها على كتفها وكانت جاهزة للانصراف فى أقل من ثلاث دقائق. استنتجت أن لها نوعاً من الخبرة فى الهروب، مثل باخ.

اضطررنا إلى اللجوء فى بيت بينتو، بينما بدأ هو التقصى فى محاولة لمعرفة سبب الزيارة العسكرية. رجع فى وقت متأخر، بوجه قلق، وقال لى إن لدى قاسم شكوكاً بالعقيد وقد أرسل فى طلبه من موسكو، ومن المتوقع وصوله فى طائرة عسكرية بعد قليل. وتفتيش البيت الذى أجًرنا إياه كان إجراء احترازياً، روتينياً، ولكن من الأفضل عدم الرجوع إلى هناك. نصحنى بأن أوفر لجميلة مأوى فى أحد الفنادق... فى أغلى فندق فى بغداد، وأن أعود حالياً إلى بيتى (وكنت متغيباً عنه منذ حوالى أسبوعين).

وهذا ما فعلته. عند الوصول بأفضل وجه يمكن إظهاره، وكأن شيئاً لم يحدث، وقعت مشادة عنيفة مع إيفا التى كانت قد رجعت منذ عدة أيام من حلقة

بحث حول التصميم فى الموصل، ولم تكن تعرف أى أخبار عنى، ولهذا كانت تتصور حدوث الأسوأ.

وقد ازداد غضبها فى اليوم التالى عندما أخبرتها بأنه علىّ السفر بصورة مستعجلة إلى باريس لأمور لها علاقة بالرسم ـ ولابد لى من الاعتراف بأنه كلام مبهم ـ لكننى حملت من جديد علبة ألوانى وخرجتُ صافقاً الباب. وكنت قد تركت اللوحتين اللتين تحملان صورة جميلة فى صندوق الأمانات فى الفندق.

لكننى لم أتمكن من السفر إلى باريس بالسرعة التى رغبتُ فيها. فقد كانت المشكلة الكبرى فى الحصول على جواز سفر لجميلة. وفى هذا الشأن، كان بينتو، مرة أخرى، هو الوحيد القادر على مساعدتى (لو كان ساشا فيسبيرك لا يزال هنا... ولكن لا. غير ممكن! فأنا أعتقد أن بإمكانه الحصول على عشرين جواز سفر وليس واحداً فقط، على أن يكون ذلك لأمر فى مصلحة الحزب أو الدولة الاشتراكية... ولكنه لن يحصل على أى جواز سفر لأغراض آثمة). حسن، كان لابد لى من الانتظار إلى أن يسافر بينتو إلى أثينا، حيث يبيعون كما يبدو جوازات سفر حسب رغبة الشارى فى أى مقهى، وعودته من هناك. خمسة أيام.

فى هذه الأثناء، اتصلوا بى من المصرف، وأخبرنى السيد مصطفى حسن، أحد مصرفيى تلك الأسرة، بعبارات لطيفة، أن أموالى المودعة فى المصرف قد تقلصت بصورة تدعو إلى القلق. لم يبق

فى الحساب سوى حوالى خمسة آلاف دولار، وبإضافة حساب الفندق، وثمن تذاكر السفر إلى باريس وبعض الأشياء اللازمة للرحلة سأبقى على حافة اللاشىء أو دونها. ولكن السيد مصطفى، وفضلاً عن إبلاغى بحالة حسابى، كان يريد أن يعرض علىّ حوالة إضافية متواضعة، حتى ستين ألفاً، لأن المصرف يثق بقيمة أعمالى الفنية. وافقت على العرض وطلبت منه وثيقة موجهة إلى مصرف فرنسى تتيح لى أن أسحب من المبلغ بالتدريج، حسب حاجتى. فقال إنه سيرسل إيداعاً باسمى إلى مصرف كريديت ليونيز، وبعد انتظار قصير، تناولنا خلاله قهوة رائعة وأغرقنى هو بدخان أزرق من سيجار هافانىّ، حضر خادم وسلمنى شيكاً كبيراً ضارباً إلى الخضرة كان يحمله فى صينية فضية. شعرت بما أرغب فى الشعور به بالضبط: رجل أموال.

سأختصر. سافرنا بطائرة للخطوط الجوية الفرنسية، تخرخر مثل هرّ، وبالرغم من ذلك، فإن مدام جميلة أويدا، المولودة فى باهيا، مثلما يحدد هويتها جواز سفرها البرازيلى الجديد، كانت تشعر برعب حيوانى وهى متكورة بين ذراعى، تئن من الخوف طوال خمس ساعات من الطيران حتى مطار أورلى. وأخيراً، سقطنا فور وصولنا فى فندق فى شارع هوسمان حيث ملاءات السرير ناصعة البياض إلى حدّ الإحساس بالخجل من الاندساس بينها. منحنا نفسينا يومى شهر عسل وبعد ذلك، إلى العمل! استأجرت سقيفة جيدة الاتساع، لها كوة مزججة فى

السقف، فى حى مينالمونتن القديم، متبعاً نصائح بينتو، ورسمت خلال شهر بضراوة، إلى أن أنهيت ما هو أساسى فى مجموعة لوحات «جميلة» لم يرهقنى العمل قط كما فى هذه المرة. والحقيقة أننى عملت بضربات فرشاة سريعة، وهو ما لم أفعله من قبل، وكانت فى الوقت نفسه كما لو أنها تشير علىّ فى اختيار الألوان، ولكننى كنت أقول لها إن السلسلة تفرض على الخلفية وليس علىّ سوى الانصياع.

لابد أنك تتساءل عن خططى بشأنها. أم أنه لم تكن لدى أية خطط؟ لا تظن ذلك، فأنا أيضاً كنت أتساءل عن ذلك. وقد حسمت الأمر على النحو التالى: يجب أن أجعلها تدرك أنها حرة وأنه يمكن لها أن ترجع إلى بلادها، أو ترجع إلى بغداد، أو تبقى فى باريس، أو... أى شىء تشاؤه. وما لم آخذه فى الحسبان هو أن يكون ردّ فعلها بالغ السلبية على هذه الخيارات (وقد عرضتها عليها قبل السفر، بوساطة بينتو). أحست أنها منبوذة. ويبدو أنها كانت تنتظر أن آخذها إلى بيتى كزوجة. ولم يكن يهمها فى الواقع أن لى زوجة. أو زوجتين أو ثلاث زوجات. فهذا أمر طبيعى فى نظرها. ولم يكن بمقدورها أن تتصور كذلك أنه يمكن لزوجتى السابقة أن تعترض على وجودها. آه، إنها حكمة الشعوب الإسلامية الرائعة. وأخيراً، ظلت نصف مستاءة، نصف مشوشة، وبقى الأمر نصف معلق، على طريقة جد تشيلية. لكن الحياة حلت الأمر أخيراً على طريقتها، ودون استشارتى.

ففى مساء أحد الأيام، عند عودتى إلى البيت، لم أجدها فيه. وكان ذلك طبيعياً بصورة نسبية، لأنها تعلمت الخروج وحدها للشراء فى لاسامراتين، وللجلوس فى أحد المقاهى وطلب القهوة. لكن غير الطبيعى هو العثور على ورقة متسخة ومجعدة كُتب عليها، بخط طفولى: «Reviens plus tard Djamila». سيطرت على الحيرة، لأنها غير قادرة بكل تأكيد على كتابة هذا. فهى لا تعرف الكتابة، وهذا أمر أكيد. من الذى كتبها إذاً؟

ولكى أتخلص من القلق رحت أرسم بصورة مركَّزة، ومن عادتى فقدان الإحساس بالوقت فى مثل هذا الانهماك. وعندما تذكرت، ونظرت إلى ساعة المطبخ، تبين لى أنها الثالثة فجراً تقريباً. والزنجية لم تعد بعد. ذهبت إلى المطبخ، وأكلت بالقضم، لمواساة نفسى، ربعاً من جبن جروييير وشربت رشفة نبيذ من الزجاجة مباشرة. واستلقيت بعد ذلك لأنام.

استيقظت عند الظهر، وكانت الشمس تصفع وجهى. فتلمست السرير بجانبى وأنا مغمض العينين. لم يكن هناك أحد! حاولت ابتلاع الأمر بالصودا، ولكن ذلك لم يكن سهلاً. استحممت، تناولت فنجان قهوة فى الخارج، ثم رجعت وأردت شغل نفسى بالعمل. كانت هناك مشكلة فى اللوحة رقم ٥ ذات الخلفية الزرقاء. تفحصتها على النور الطبيعى وشعرت بالقرف. ذهبت إلى الحمام ومنحت نفسى حوالى سبع دقائق من اليأس، بكيت قبالة المرآة، مثل مجدلية.

سأوجز: لقد عادت بعد حوالى أربع ساعات من ذلك. ولكنها لم تكن وحدها. كان يرافقها شخص طويل ونحيل. وبشرته أكثر قتامة بنصف درجة من بشرتها. وكان كل ما فيه بالأبيض والأسود: بنطال أسود، وحذاء أبيض، سترة بيضاء، وقميص أسود مع حبل أبيض معقود كربطة عنق. ولست أدرى إذا ما كان ذلك يتواصل فى ملابسه الداخلية: فانيلا بيضاء وسروال داخلى أسود. وكان يضع فوق ذلك نظارة سوداء كبيرة جداً، لها إطار أبيض، والواقع أنها تغطى نصف وجهه. شعره مجعد وقصير جداً. ظننت للوهلة الأولى أنه غجرى أو نابوليتانى صياد نساء يعيش على نفقتهن، ولكنه أطلق نعيبين أو ثلاثة وانتبهتُ إلى أنه من مواطنى جميلة. وفيه شىء من الشبه بها. إن لديه أيضاً نوعاً من الرشاقة أو المرونة الخطرة، مثل وحش ضار، لكنه يُذَكِّر أكثر بحصان سباق، أو بأحد أمراء المافيا، بخواتمه الذهبية.

نظرت إليه جميلة بطريقة مذعنة (كما لم تنظر إلىّ قط) ثم نظرت بتحد نحو كاتب هذه السطور. كانت تلف شعرها بمنديل أحمر نارى. وتذكرتُ بوخزة قلبية أنه اللون المفضل لدى الناس الأكراد. وهو يجملها بصورة هائلة. لكن المسألة هى فى أن كل شىء يجملها. فأنا لم أرها تسوء قط. وبحركة أنيقة واحدة انتزعت المنديل وهزت رأسها. ظللتُ فاغر الفم من الدهشة: لقد قصت الحمقاء شعرها! وكانت تبدو بارعة الجمال، طبعاً.

أدركت أن كل شىء آخذ بالانتهاء. نظرت إلىّ وقالت لى شيئاً بالعربية لم أفهمه. هززت كتفى. عندئذ تكلم ذلك الشخص: Elle s'en va. سألته إلى أين. فصاغت هى شيئاً له وقع شبيه بالفرنسية ولكنه لم يكن بالفرنسية. وأضاف هو بحزم: Elle s'en va avec moi. فقلت له: «Okay, elle est libre» ولكنى سألتها إذا ما كانت تريد الذهاب معه حقاً. فهزت رأسها بحدة. كانت تتابع الحوار عن قرب. عندئذ قال ذلك الشخص، بشهامة، إنه سيتركنا الآن. وسيعود بعد ساعة ليأخذها مع أشيائها. وانصرف.

كانت تنظر إلىّ بثبات تبدو معه حولاء. قلت لها بالفرنسية إننى آسف جداً، لكننى لا أستطيع المعارضة، وأحترم قرارها. وأعتقد أنها فهمتنى. ولابد أنها لاحظت كذلك أنى مصدوم جداً وحزين. ففعلت شيئاً لم تفعله من قبل: اقتربت منى وداعبت وجهى. ابتعدتُ بجفاء، وأخرجتُ من محفظة نقودى مبلغاً محترماً، وضعته فى مغلف وسلمتها إياه. دسته هى بين نهديها. فكرت فى أن أقول لها شيئاً، لا أدرى ما هو، ربما كلمة وداع، أو نصيحة، لكننى اكتفيت أخيراً بإيماءة عجز بيدىً وكتفىّ. إننى أميل فى باريس، بسبب الإيماء، إلى استخدام عظمى الترقوة أكثر مما أفعل فى غيرها من العواصم. أخرجت هى حقيبتها من تحت السرير (صار لديها حقيبة الآن، أجل يا سيدى) ووضعت ملابسها فيها بسرعة كبيرة. ثم تعرت بعد ذلك بتلقائيتها المعهودة (كنت أشعر

بانقباض فى حنجرتى) واستحمت طويلاً تحت دش ماء بارد.

ذهبتُ إلى المطبخ لأجتر خيبتى. تناولت فنجان قهوة، ثم آخر، وجرعة كونياك، وكأس ماء. وظللتُ أخيراً، دون أن يكون لدى ما أفعله، أنظر إلى الجدار.

سُمع طرق خفيف على الباب، سمعتها تفتحه، ثم وشوشة أصوات خافتة (فكرت: لدى السوداء من يكلمها بلغتها على الأقل) و... بلاف! انصفق الباب. لقد انصرفا.

بدأت أحرك شفتى، كان فمى يميل إلى أسفل من تلقاء نفسه، لكننى صفعتُ وجهى صفعتين، وسكبت على رأسى إبريق ماء بارد جداً أخرجته من الثلاجة. وبينما أنا أرتجف، بدلت ملابسى وبدأت أشتغل كممسوس. ولكننى لم أرسم. كنت أشعر بشىء غريب، بنوع من الهاجس بأن شيئاً سيحدث، أو سمه كما تشاء. وفى وقت قياسى، فككت قماش اللوحات كلها عن أطرها، ثم لففتها ووضعتها فى أنبوبين كبيرين من الكرتون القاسى، مغلفة بقطعة قماش أسود سميك يحاكى الجلد، وانطلقت بها إلى فندق شارع هوسمان نفسه الذى نزلنا فيه من قبل. استأجرتُ غرفة لشخص واحد وقلت إننى سأجىء بأمتعتى فيما بعد. تركت الأنبوبين محفوظين فى صندوق الفندق، ثم اتصلت هاتفياً بكوسرا العجوز، صاحب جاليرى هاوزر فى فيينا كى أقول له إننى راغب فى الذهاب لزيارته. أجابنى بفرنسيته البطيئة والاحتفالية، بأنه

كالعادة، تحت تصرفى على الدوام، ويمكن لى الذهاب للقاء به متى أشاء فى المكان نفسه الذى التقينا به فى مرات سابقة، وكانت لديه أخبار طيبة لى، فقد بيعت اثنتان من لوحاتى، وهل لدى أعمال بارعة أخرى؟ هذا السؤال الأخير هو نوع من المزاح الساخر الذى اعتاد ممارسته. حددنا اللقاء بعد يومين.

فضلتُ قضاء تلك الليلة فى الفندق. لم أرغب فى البقاء وحيداً فى السقيفة، مع وجود إشارات كثيرة إلى حضورها.

وعندما ذهبت، عند الظهر تقريباً، لإحضار أمتعتى، استقبلتنى البوابة بسيل جارف من كلام لا يتوقف ولم أكن أفهمه بالكامل، بينما نحن نصعد معاً الطوابق الخمسة أو الستة على السلالم. كان المشهد خراباً. لقد دخلوا دون خلع الباب (جميلة لديها مفتاح)، وبعد ذلك انهمك الشخص، أو الشخصان فى الغالب، فى البحث عن اللوحات فى كل مكان، وعن النقود أيضاً على ما أعتقد. أنت تظننى ساذجاً، ولكننى لا أريد أن أصدق أن تكون هى قد شاركت فى هذه العملية. كان الخراب أكبر من ذاك الذى أحدثه العسكريون فى بيت بغداد، بل يمكننى القول إنه أكثر حنقاً. حاملة اللوحات الجديدة التى اشتريتها من باريس حوّلوها إلى فتات. ونصف دزينة من قطع القماش الجديدة، بعضها مشدود إلى أُطر ومجهزة، اغتيلت بضربات سكاكين حادة، حتى لم يبق منها شىء صالح للاستخدام. وقد كسروا كذلك أحد أبواب

خزانة الملابس، وأخذوا السترة الوحيدة المحترمة ومزقوا ملابس أخرى بالهيجان المسعور نفسه.

كانت البوابة تقدم تقديراتها حول عادات الأجانب وخطورة العلاقة بهم، تطلق تهديدات مكتومة، تطالب بتعويضات، تتكلم عن الاتصال بالشرطة، وغيرها. الحقيقة أن الأضرار فى الشقة لم تكن كبيرة. فقد تركز الحنق على ممتلكاتى القليلة. تأكدت من أنهم أخذوا علبة ألوانى ومغلفاً فيه رزمة رسوم تخطيطية. وهى الأشياء الوحيدة التى تأسفت عليها، فضلاً عن الألم الأخلاقى. نظرت مرة أخرى إلى المشهد الكئيب، ووضعت فى جيبى فرشاة الأسنان وماكينة الحلاقة. ثم سويت الحساب بعد ذلك مع البوابة التى تبدل سلوكها بصورة بارزة بعد أن رأت الأوراق النقدية، وانصرفتُ مبتعداً.

ولن أضيف المزيد. فاستخلاص العبرة من مسئوليتك يا عزيزى جوزيف.

راح الصديق كوسرا يطلق أصوات: أوه! أووه! أووو! وبعض الـ Grüss Gott! بإعجاب متزايد كلما فتحت لفافة وعرضت واحدة أخرى من صور جميلة السبع. وفى النهاية كانت هناك دموع فى عينيه، لا أدرى أهى نتيجة انفعال جمالى أم تقدير لأرباحه المحتملة. وقال لى بوقار شديد: «أيها المعلم، لقد بلغتَ بهذه اللوحات مرحلة النضج» وهذا إطراء كبير لصدوره عن رجل شديد النضج مثله. لكننى لا أريد أن أكون ظالماً. فسلوكه معى كان مستقيماً جداً على الدوام. وقد عرض علىّ فى هذه المرة سلفة دسمة،

فضلاً عن تصفية ثمن المبيعات السابقة، وإعداد حملة قصف دعائى مناسبة لإطلاق الـ «صور٧» فى معرض خاص بها، وبإطارات غالية، وفى قاعة ذات إضاءة مناسبة، والتفكير فى الكبار، فى بعض كبار جامعى اللوحات الأمريكيين والفرنسيين أو فى مؤسسة جوجينهام. وعن كل شىء كنت أقول له نعم. ورجعت بسرعة إلى بغداد حيث استقبلتنى إيفا بالصخب. ولكننا تحدثنا عن هذا من قبل.

أريد أن أعترف لك بأمر آخر، وهو يتسلط على عقلى، لماذا أنكر ذلك. ما يلى ليس إلا مصارحة شعورية أو غيبية، ويمكن لك تجنب قراءتها. وفى هذه الحالة، اقطع عند الخط المتقطع التالى واحذف المقطع الذى ينتهى بخط متقطع آخر.

أنت تتذكر دون شك الرحلة التى قمتُ بها إلى منطقة كردستان (أجل، مع زكية، بالضبط، ودعنا لا نبدأ بالأسئلة من جديد) فى السنة الماضية. وهناك، فى حكارى، وبالتحديد فى كردستان التركى، حدث لى شىء، رأيت شيئاً. إنه شىء بسيط جداً إذا شئت، عادى وشائع. ولكن...

نعجة ميتة ابتسمت لى.

كان هذا هو كل شىء.

ابتسامة ماكرة، مع... آى! لا أكاد أستطيع كتابة ذلك (وإذا ما كتبته فإننى أفعل فى محاولة إبعادها عن نظرى، عن ذهنى، من أجل طردها)، ابتسامة مع تقليب للعينين. هل تفهمنى؟

لا، أعرف أنك لا تفهمنى ويضايقنى عجزى عن إيصال ما أشعر به. لكننى سأحاول أن أروى لك الواقعة، لعلها تصل من تلقاء ذاتها.

كنا خارج حكارى، فى بيت حجرى، مدخن ويعبق برائحة جلود وجبن وتخمرات. وهناك كنت أتقاسم مع زكية فراشاً قاسياً من فرش أخوتى الأكراد، قال الشاعر. قاس حقاً. وعلى أسرة أخرى، وعلى الأرض، متدثرين ببطانيات وجلود، كان ينام ثلاثة أو أربعة من أفراد الأسرة التى استضافتنا وعدد غير محدد من الصبيان والأطفال. استيقظت باكراً، سمعت صوت ديك بعيد، وخلال نصف دقيقة أحسست أنى فى كيلاكو أو فى لوماكو، فى موطنى. خرجت من الفراش بأقصى ما يمكن من الحذر، وحبوت بين النائمين ورحت أعالج الباب محاولاً فتحه دون جدوى، إلى أن أوقعت البندقيتين المستندتين جانباً، كما فى كل بيت كردى يحترم نفسه، وفجأة وجدت رجلين، واحداً من كل جانب، يقفزان متأهبين لأى شىء. وعندما انتبها إلى ما يحدث ابتسما، وجعلتهما يفهمان أننى أود الخروج، فربطا ذلك بحاجة معوية مستعجلة، فأرخى أحدهما المزلاج الخشبى والمعدنى والجلدى وأفسح لى الطريق للخروج.

كان الفجر يبزغ بكل جوقته، بتورد زخم ونهر ذهبى فسيح فى سماء جميلة الغيوم إلى حد تبدو معه باعثة على الضيق. إحساس ببرودة لذيذة، خمسة وعشرين تعض الأذنين، وتحت حذاء الرحلات النرويجى الذى أنتعله يُسمع صرير الصقيع على

العشب. كنا فيما يشبه الواحة، مع أشجار يانعة الخضرة، ربما هى أشجار صفصاف، تطل ذراها على مستوى الأرض فوق حافة انكسار غير منتظم الحافة. ولكن، على بُعد مسافة قصيرة، كان هناك حاجز من أحجار كبيرة. مشيت باتجاه الشمس، صاعداً المنحدر ومبتعداً عن الانكسار، بين البيوت المتفرقة. ووصلت هكذا إلى منخفض صغير شبه دائرى وراء البيوت، حيث تُرمى عادة الفضلات والقمامة كما يبدو. طائران كبيران كأنهما نسران حلقا عالياً عندما شعرا باقترابى. وعندئذ، حين نظرت ساهياً إلى يمينى، رأيت رأس النعجة، وفى اللحظة نفسها التى عدت للنظر فيها إلى أمام، انتبهت بطرف عينى، أحسست، أن الرأس قد ابتسم. فلنتفاهم: لم تكن نعجة. كانت أقل من ذلك: مجرد رأس نعجة فقط مع قليل من الجلد على شكل غطاء. إنها بقية نعجة مذبوحة ألقى بها أحدهم هناك.

احتجت لأجزاء من الثانية كى أستوعب حقاً ما رأيته. أعدت النظر وتقدمت خطوتين أو ثلاث خطوات باتجاهه. وفكرت: إنه جلد نعجة فقط تحركه الريح. وفى هذه اللحظة عاد للابتسام لى، وفعل شيئاً أشد خطورة بكثير: قلّب عينيه بمكر.

إننى واثق من أننى أحسست بهاجس داخلى، بضربة خوف، وبقرار مبهم بالتراجع مع هز الكتفين، وهذا يعنى: يا للأمر الغريب. هذا ما بدا لى، وانتهى. فالذهاب، ونسيان الأمر. هو أفضل ما يمكن عمله.

ولكن لا - فالشاب المابوتشي المقدام، والتشيلي فوق ذلك، عليه أن يمضي إلى ما هو أبعد، أن يواجه أي شيء، أن يتأكد. اقتربت أكثر، إلى جانب قطعة جلد النعجة التي عليها بعض الصوف الضارب إلى الصفرة والمشعث. وعن قرب، تأكدت من أنها تحرك عينيها مرة أخرى وتمط أحد طرفي فمها بتلك الابتسامة. ولكن لا: لم تكن تحركهما. بل هناك شيء يتحرك داخل العينين. بنوع من التلوي القلق، رفعت الجلد بقدمي وأزحته جانباً بعض الشيء.

صار الرعب مكشوفاً. فتحت الجلد، وداخل بقايا جمجمة النعجة، عند حواف عظام العينين غير الموجودتين والفم الذي بلا شفتين، كان يعج بضيق فاحش حشدٌ من الديدان السمينة، ديدان بيضاء_ رمادية بهياج التهام مرعب. كانت كثيرة وسمينة إلى حد تمكنت معه من التفكير بصورة وامضة، ربما برد فعل دفاعي، في أنها جزازات صوف تحركها الريح. ولكن لا: كانت كما هي في الحقيقة.

تجمدتُ في مكاني لوقت لا ريب في أنه قصير، لكنه كافٍ لأن تتغلغل تلك الصورة المتحركة إلى أعمق أعماق عيني، دماغي، جسدي كله.

بعد ذلك بدأت الهرب، دون أن أشعر بالهواء العليل، بالسماء التي امتلأت الآن بالبرونز(بتدريجات اللون البرونزي)، بالمذاق الحامض_الحلو للمشهد الطري والعجيب في آن واحد. هربت كما الأطفال عندما يخافون فجأة، ولم أكن أريد سوى أن ألوذ

بحضن أمى؛ حسن، بحضن زكية فى هذه الظروف. أسوأ ما فى الأمر أن الباب كان مغلقاً، وكان الجميع فى الداخل نائمين. لم أتجرأ على طرق الباب. جلست على حجر وأنا أتعرق عرقاً بارداً وأغمضت عينى. عدت أفتحهما فجأة، لأن الشىء الوحيد الذى رأيته عند إغماضهما هو رأس تلك النعجة بابتسامتها الميفستوفيلية ودغدغتها المرعبة فى تقليب عينيها، والتى هى دعوة.

ظللتُ على تلك الحال وقتاً طويلاً، محاولاً التفكير فى شىء آخر. لم أتوصل إلى ذلك. حاولت التحليل العقلانى: لقد كانت صورة موت، الخوف من الموت أمر طبيعى، والابتسامة وحركة العينين كانتا مفعولاً طارئاً لـ... لـ... وبهذا بدأت أسنانى تصطك، ليس من البرد. فكرتُ فى أننى قد أتمكن فيما بعد من رسم ذلك. كى أتحرر، مثلما فعلت مع الجراد. لكن التفكير فى الأمر سبب لى نوبة ارتعاش عنيفة.

عندما فُتح أخيراً ذلك الباب اللعين وظهرت زكية، وهى تتمطى، تغطى وجهها حمرة النعاس، كنت على وشك الصراخ، لا أدرى ما الذى سأصرخ به. ذُعرت كثيراً حين رأتنى وقالت وهى تتحنى نحوى: «ما هذا يا هويركيو! إنك شاحب جداً ...» أمسكتها من ردفيها وأغرقت وجهى بحضنها ورحت أرتعش فى نحيب جاف. حاولت مواساتى، بالمرور بيدها على رأسى.

لا أريد أن أتكلم أكثر فى الموضوع. فقط أريد أن أقول لك إننى فى كل ليلة، عندما أبدأ أغفو، حتى

بعد أيام طويلة من العمل الكثير، تزورنى مجدداً ابتسامة النعجة ودعوتها بالعينين الماكرتين إلى الوليمة. وأعود إلى التعرق عرقاً بارداً لكننى أضغط أسنانى، ألستُ مابوتشياً أنا... وتشيليًا فوق ذلك؟ أنظر إليها وجهاً لوجه وأنام مثل حجر، دون أن أدرى كيف. ولكننى فى اليوم التالى، عندما يحين موعد النوم، أبدأ بما يشبه محاولة تأخيره، أقوم بتنقلات غير ضرورية، لأنى أعرف أننى سأرى من جديد تلك الابتسامة، وتلك العينين اللتين تتحركان وأفكر أحياناً فى أنى لم أعد قادراً على الصمود أكثر.

نهاية اعترافات روح حساسة.

من أجل القص، اتبع السطر المنقط.

سأنهى، وقد حان الوقت لذلك، بخبر، بل بخبرين: معرض سانتياجو سيقام. كل الأمور قد حُلت، نهائياً، اللوحات بدأت تطير إلى هناك، مثل روخاس خيمينث(*) وسيكون المعرض فى الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر الثانى. وبما أننى لا أستطيع السفر (ولست راغباً فى ذلك أيضاً) فقد قرر كوسرا ألفريد أن يأخذ لوحات المعرض بنفسه. لا أظن أنه ستكون هناك مبيعات كبيرة فى تشيلى، ومع الأسعار التى وضعها للوحاتى «أسعار دولية» كما يقول. ولهذا، سيسافر باللوحات بعد انتهاء المعرض إلى بيونس آيرس، وهى سوق أقوى بكثير، حيث أجرى الاتصالات مع صالة عرض مهمة جداً، يبدو أن كل

(*) الإشارة هنا إلى قصيدة مشهورة لبابلو نيرودا فى رثاء صديق شبابه روخاس خيمينث.

شىء مهم هناك. وأخيراً، يخطط لمحطة أخرى فى ساو باولو.

والآن، أنا راغب فى توجيه دعوة إليك، بكل جدية: أقترح عليك أن نلتقى فى فيينا، فى السادس من نوفمبر الثانى على أبعد تقدير، فى جاليرى هاوزر. أعرف أن الفترة قصيرة جداً، وغير كافية لمعاملات السفر التشيكية الرشيقة، ولكن بالمساعى ومساعدة الأصدقاء يمكنك إنهاء الإجراءات. فريدة ستحمل إليك بعض الأخضر من أجل نفقاتك. وستكون تأشيرة دخولك بانتظارك فى سفارة النمسا. وتوجه دون خجل إلى الصديق فيسبيرك، وهو سيساعدك فى الحصول، خلال زمن قياسى، على جواز سفرك وإذن الخروج. افعل ذلك، أرجوك يا عزيزى البروفيسور! أنت مدرك بالطبع سبب هذه الدعوة. أريدك أن ترى اللوحات التى ستذهب إلى معرض سانتياجو مجتمعة، وأن تعطينى رأيك. فمن المستحيل تقريباً أن تتوافر فى المستقبل فرصة أخرى لرؤيتها مجتمعة كلها، وربما لأن نلتقى معاً مرة أخرى.

لا تولى اهتماماً كبيراً لهذه الرسالة. فهى قد تعطى فكرة خاطئة عن حالتى المعنوية. لقد كانت تفريجاً عن النفس قبل أى شىء آخر، وأشبه باعترافات. ولمن أعترف غيرك، بقدرتك غير المحدودة على التفهم، يمكننى أن أعترف بكل هذه الأمور؟

قدم بعض القبلات الحانية باسمى إلى روزينا والصغير دافيد. هل سترسل لى صورة للأسرة؟ أنتظر رؤيتها، من كل بد، خلال أيام قليلة. ولك معانقة حميمة من هذا الهندى المابوتشى الضجر بعض الشىء، والذى يمضى باحثاً.

هويركيو.

ملاحظات على الرسالة الثالثة عشرة

ربما لا حاجة إلى إلحاح على قيمة رسوم هويركيو عظيم. فى ملاحظات سابقة أتحدث أنا أكثر من مرة عن لوحات محددة، ورسام نفسه فى رسائله يكشف أموراً لا تقدر بثمن عن أصل أعماله، وستكون مهمة فى توفير وقت وجهد دارسين مستقبليين.

ولكن، يجب أقول، لا شىء يقارن بتأثير التسع عشرة لوحة كبيرة، إضافة إلى إحدى وأربعين منمنمة التمر، دراسة لا تضاهى فى الألوان، وثمانى عشرة رسماً للجائحة (جراد)، دقة عظيمة فى رسم تخطيطى.

تجارب شحيحة جداً سابقة لى تتحمل مقارنة مع تأثر مركّز فى رؤية تلك لوحات واحدة بجانب أخرى على جدار نفسه فى قاعة مضاءة. كل هذا فى فيينا، فى جاليرى هاوزر، حيث سيد كاوسر محترم، بطلب من هويركيو، نظم هذا العرض لى، عشية إرسال جوى لكامل معرض تشيلى (باستثناء مجموعة جميلة).

أجل، إذا كان سيد كاوسر أطلق، حسب رسالة هويركيو، ثلاث مرات «أوه!» متعاظمة، فماذا أقول أنا عن رد فعلى؟ ألف مرة أوه!

إنها هناك، كل لوحة بألوانها وغموضها، «ميلينا أوروبا» أكثر من ساخرة. وتراجيدية «إنجازات ثورية» (غير مفهومة بصورة محزنة جداً من قبل الناقد سيد مالالايت)، بقدر ما هى مكفهرة، وأكاد أقول خارقة بجمالها، «فلاحون يهربون من الإصلاح الزراعى» وصورة متكبرة لسَموم. ومذهلة بتقنيتها فى الضوء والظلمة «سمك دجلة» مع خلفية دجلة فى الليل، ومرة أخرى سخرية وقَطع عظيم تصورى - اجتماعى مع الجثة بيضاء ملتقطة من المياه بين أذرع صيادين وحفلة أضواء روتينية من واجهة فندق كبير أبيض فوق رابية قاتمة... وأخيراً، مازال علينا أن نرى «مدخناً أنتظر» بخطوط ضوء وظل على وجوه نسائية مثقلة وملابس سجن أو دير رمادية فى معمل سجائر، و«الجرادة الأم» ببطنها شفاف حاوى أبناءها، وكذلك «إهانة» وأخيراً جدار الآجر المقعر الذى يلقى ثقله علينا...

سأضيف فقط أن الرحلة كلها بالنسبة لى كانت تجربة مكثفة، بعد سنوات هدوء فى أوستى. رحلة بديعة فى قطار مفضض فاخر «فيندوبوبا» (وهذه تسمية ڤيينا بلغة رومانية)، حملنى فى ساعات قليلة من محطة براغ رئيسية حتى فرانز جوزيف بانهوف (محطة فرانيس يوسف فى ڤيينا): تبدل كامل فى عالم، بعد أن أنجزت، بطريقة لا تصدق، فى أيام قليلة، تتطلب من مواطنين آخرين أقل محظوظين شهوراً أو سنوات.

عرض اللوحات، هويركيو يسميه vernissage حضره كذلك بعض نقاد أو خبراء من فيينا، وأشخاص من صالات عرض أخرى، وتجار أعمال رسم. وبارزة كانت انفعالات أمام لوحات قوية، خاصة شديد احترام هير أوتو جلوكليخير، من جريدة «فيينر هندلسبلات» كان يحاصر هويركيو بكثير من أسئلة ونظرات تفحص من خلال عدستى نظارته، أكثر سماكة من نظارتى. وكان رسام يرد بقصيرة كلمات وخجولة ابتسامات: «نعم... لا ... ممكن» أجوبة كافية لمستجوب لأنه مع كل واحدة يبدى رضا أقصى ويطلق خطبة تفسيرية طويلة. ورسام يهز رأسه. صلعة كوسرا كبيرة تلمع من سعادة حين نرفع كئوس شراب تافه ماركة سِكت (شمبانيا جيرمانية) نخب نجاحات مستقبليه لفنان.

فى إحدى لحظات، يعلن هويركيو أنه تلقى برقية من سنيور ريخيفو، من تشيلى، يخبره أنه معرضه لن يكون فى صالة بنك تشيلى، مثل اتفاق سابق، بل فى جامعة تشيلى. وهذا خبر يزيد من بهجة سيد كوسرا وسبب نخب جديد، مع أن رسام يقول بصوت منخفض، لى وحدى، إذا كانت صالة جامعة ربما أكبر شهرة، وهى بتأكيد أوسع وأفضل إضاءة، ربما تجارياً تكون أقل فعالية من صالة مصرف. وهذا يمكن يقلص سعادة سيد كوسرا.

كل شىء يجرى بسرعة لأنه لا بد فى أسرع وقت من سحب لوحات، ولفها بحذر شديد وحفظها فى

أنابيب، وبعد ذلك فى صناديق من ألمنيوم، وكلها أعمال يتابعها هويركيو بحرص شديد خطوة خطوة، ليس لأنه خائف على أعماله التى يسلمها لقدر، كما اعترف فيما بعد، وإنما كى يتعلم تلك أساليب أو تقنيات مع أنه من ممكن أنه قد لا يستخدمها أبداً، أو بالعكس، ربما يكون محتملاً جداً.

هذه طريقة فى تفكير متناقض، موجودة مسبقاً عنده، تظهر مهيمنة جداً فى محادثة طويلة وأخيرة بيننا فى فندق له اسم تواراتى Goldenes Lamm (العجل الذهبى). وهويركيو يفضله لأن فيه موظف استقبال ليلى، بعمر ناضج، يبدو مفاجئاً جداً، هو تشيلى! هذا يسهل حياته، لأن معرفته بلغة ألمانية ضئيلة.

يجب أن أبتعد عن تفاصيل صغيرة. فى حديثنا أخير (كلانا يعرف ضمنياً أنه أخير)، بدا هويركيو مكتئباً، وجهه نحيف ومتطاول، مع بعض شحوب فى لونه أسمر، الشعر طويل يسقط أحياناً أمام عينين ويزيحه هو بضيق. صحيح أنه مازال يستطيع ضحك بشهية فى لحظات عديدة، لكن حالته معنوية أساسية هى جدية، بل يمكن قول مكفهرة.

بدأتُ سؤاله عن خطط عودة. يفترض أن يتم ذلك فى حوالى يونيو ١٩٦٣ قال نعم، طبعاً، دون شك، يكفى بغداد. هذا محسوم. لكنه صمت.

ألححت عليه: «ستكونان بيننا فى براغ إذاً فى صيف قادم».

نظر إلىّ بطريقة لا أتردد فى تسميتها خرقاء، فى إحدى عينيه حول خفيف، لم ألحظ ذلك من قبل: «لا يمكن معرفة ذلك» قال من بين أسنانه.

فقلت: «ولكن إيفا تقول»

«إيفا تقول، إيفا تقول»، قال بضيق وهو يبعد خصلة شعر عن وجهه. وأخيراً أضاف: «أجل، بالتأكيد. سنكون هناك فى الصيف».

وتدريجياً جداً بدأت تذوب تحفظاته فى مطعم إسفوجل القديم بمساعدة نبيذ رائع من الرون، اسمه جعل هويركيو يبتسم أولاً، ثم يضحك على مكشوف. Liebfraumilclr «حليب المرأة المحبوبة» ، ونحن نأكل شواء إوز رائع مع هليون غريب عنى (لم أتذوقه منذ ١٩٣٧) حمله موسيقى كردى إلى بلاط قرطبة، وأخيراً حلوى ساتشر تورت فيينية وقهوة فيينية، وكذلك، وإن كانت مقارنة فظة، سليفوفيتش تشيكية، توصلنا إلى هذا تواصل، هذا شعور طيب، هذا نظر إلى حياة معاً بضحك وثقة يصفه أهالى فيينا بكلمة سحرية غير قابلة لترجمة: Gemütlchkeit هويركيو يتنهد. صحيح أنه، دون وصول أبداً إلى العمق، اعترف لى بمجموعة تناقضات حيوية (تثقل عليه؟). من أجل إمكانيات تعبيرية، فى ثلاث لحظات أصنفها.

لحظة١

مشاعر. إنه فى شك عميق من مشاعر غرامية نحو زكية، وأقول إنه شغف، يبدو معززاً جداً بـ أ/

مشاركة فى رؤية إلى عالم ممزق بصراع بين قوى اضطهاد وشعوب مضطهَدة. بين غرب رأسمالى قاس وثرى، وغالبية ساحقة من عالم مستعمرات تابع ومتخلف. ب/ وعى مشترك بأقليات مضطهّدة فى بلدانها (أكراد ـ مابوتشى)، تزايد مشاعر إثنية وطنية ينتج عنها، فى تناقض ظاهرى برأيى، فكرة أممية رومانسية بأن لا فرق من نضال هنا أو هناك، وتحرر شعب يساهم فى تحرر آخرين وأن خوض نضال واجب أخلاقى شخصى. خلاف حول دور اتحاد سوفييتى واشتراكيات ـ زكية تثق وتقدر عالياً، وهويركيو لديه شكوك كبيرة ـ تبدو ثانوية نسبياً فى سياق علاقة جنسية وسياسية زخمة.

تناقض حاد يبرز بالنسبة لرسام من عاطفة قوية نابضة ـ حب ـ نحو إيفا، رغبة فى عدم جرحها، دور قوى لما يسميه هويركيو المجنون موراليس، يؤثر كثيراً على سلوكه. حضور متناقض لقرارات سابقة أو خطط زواجين متفق عليها معاً ـ عودة إلى براغ، إنجاب ابن، بيت، حياة مشتركة ـ تعذبه، مع أنه يميل إلى إنكارها باعتبارها «أوهام» برجوازية صغيرة.

يبقى حائراً عندما أجيبه: «وماذا نحن، أنت وأنا، سوى برجوازيين صغار؟ وأشك أن تكون صفة صغير مناسبة لمن يملك فى مصرف موارد مثلك.» بعد أن يكبح أنفاسه فى لحظة مباغتة، يضحك ويرد: «لستُ سوى مستفيد ثانوى من فائض قيمة».

عن مصائر حيوية. هنا تتشابك تناقضاته متعددة. بشأن ميل وموهبة فنية لا يوجد شك (مهما كان رأى سيد مالالايت...). ولكن تتواطأ وضع إثنى تابع يهمشه من اعتراف رسمى وربما اجتماعى. «فى سانتياجو أحسست أننى فائض عن الحاجة، غريب، طائر نادر» سألته: «وفى أراض مابوتشية؟» ترد. «لا، أنهم أهلى. ولكن ليس هناك من يفهم ما أفعله. لديهم شكوك، إننى أصنع أشياء هويتكا. إننى غارق فى ثقافة أخرى».

ألفت انتباهه إلى أن هذا ينتج عنه ضرورة خوض نضال طويل، صراع مزدوج فى مجتمع ثنائى، ولكنه ملتحم مثلما هو مجتمع تشيلى مثلما أفهم: من جهة من أجل توصل من خلال جدارة، وموهبة، وقوة الفنية، إلى نيل تقبل على مستوى أبناء جلدة وعلى مستوى «وطنى» (على مستوى جمهورية)؛ ومن الجهة أخرى، من أجل تجاوز أفكار مسبقة، وعدم ثقة طبيعية وجهل قومك المخدوعين.

ينظر إلىّ متفاجئاً: «أنت تقرأ أفكارى».

«أحياناً»

يقول بحرارة: «أجل، كل هذا ليس هو الجوهرى، ولكننى فكرتُ فيه مرات كثيرة. وقد اعتقدتُ كذلك، وربما مازلت أعتقد بأن شق طريق فى خارج، فى عالم أوروبى واسع الشهرة، وكذلك، لم لا؟ كسب المال،

سيسهل الأمر الأول. ما تسميه حضرتك بصورة صائبة جداً القبول على مستوى الجمهورية. ولكن، فى وقت نفسه، ألن يزيد ذلك من حدّة الحسد والتحامل؟ إننى أسمع الآن ما سيقال: انظروا إلى هندى براز، لقد أدخل إصبعه فى فم الألمان. صار من الرءوس. لا، لقد كسب الكثير من المال، ونسينا، وسينسانا، إنه يخجل منا، وهو يضع الآن ربطة عنق».

«نادراً ما وضعتها» نبهته.

ضحكنا لبعض الوقت. وبعد ذلك بجد:

«هناك شىء آخر. وأنا أنظر إلى هذه لوحات قبل إرسالها إلى تشيلى، تنتابنى شكوك كثيرة».

«لا يجب. النوعية ممتازة»

«لستُ أشك فى ذلك وأعذر تواضعى. ولكن، هل هذه هى الموضوعات، ونمط الرسم الذى علىّ صنعه؟ إننى منذ الآن أسمع البعض يقولون: موضوعات كوزموبوليتية، سياحية، رسم متأجنب. أعرف أن ذلك غير عادل، لأنى أقف أمام الموضوعات بأقصى نزاهة ولا يمكننى أن أذهب لأرسم مابوتشيات جميلات بعيون سوداء بينما أنا فى الطرف النقيض. وعندما أكون هناك لن أستطيع أيضاً. إننى أحاول، فى العمق، أن تكون رسومى نافعة لتشيلى أيضاً، أن تتحدث عن حقائق جوهرية، عن خلفية إنسانية مشتركة. شريطة أن تكون لها، بالطبع، لغة وقيمة جمالية: بطريقة أخرى، كل ما عدا ذلك يموت دون أن يعبر عن نفسه.

لا يمكنهم القول إن ما هو اجتماعى غائب، ولكن سيكون هناك من يؤنبنى لأنى لا أرسم طوال أربع وعشرين ساعة فى اليوم سعادات النضال الطبقى، ويتهمنى بالسقوط فى مهاوى ضعف إغواءات الشكلانية».

وفى هذه اللحظة، أضاف شيئاً بعث الرعب فى نفسى:

«ومن جهة أخرى، ما أهمية كل الرسم فى العالم أمام ألم طفل واحد بلا ساقين بسبب عمليات قصف؟».

حاولت أن أبين له زيف هذه حجة، ولكن دون جدوى.

لحظة ٣

حول واجبات أخلاقية. مما سبق (وأرى اصطناع غير واقعى فى تصنيف إلى لحظات منفصلة) ينتج، على ما أعتقد، قرار هويركيو. التزام حاسم فى دعم نضال تحررى كردى، ليس نظرياً وإنما بصورة عملية. ففى نظره هذا هو قرار أخلاقى منطقى، وليس عاطفى (يرفض هذا الاحتمال)، بل عقلانى، إنسانى، ووحيد ممكن. ويدعم كلامه باقتباس من نيرودا (تشيلى): «تعالوا انظروا الدم فى الشوارع»

فأقول له: «حسن، حسن جداً. ولكن ذلك لم يجعل نيرودا يتخلى عن الشعر. وبه، ومن خلاله، خاض معركة. لم يحرق كتبه كى يذهب لقتال فى فيتنام».

«وهو بهذا يختلف عن تشى جيفارا» ردّ على.

ومرة أخرى ألفت انتباهه أن واجب أخلاقى أقصى لشخص مثله، يملك مواهب فنية غنية، هو الرسم. هذه هى أهميته، وكذلك قيمة اجتماعية كبيرة لشعبه المابوتشى. هذه هى طريقة للعيش فيما وراء الموت، أوليس هذا هو هدف نهائى لإنسان فنان؟

وبصورة غير متوقعة يرد باقتباس مناسب جداً لوجودنا فى ڤيينا، من البروفيسور سيجموند فرويد: «الخلود يعنى أن يكون المرء محبوباً من أناس كثيرين مجهولين». ولكنه يضحك بعد ذلك ويقول: «لدى الفنانين غرور هائل ويتطلعون إلى البقاء أكثر مما يمكن للمادة أن تبقى، بل يرون أن بقاءهم هو واجبهم الأصلى وأمر يتوجب على الطبيعة أو الرب ضمانه بكل الأحوال». ويضيف مقطعاً خطابياً صعباً لنيرودا، لا أعرفه، من قصيدة «من يقول ظلالاً» وقد سجلته بحرفيته:

فليكن إذاً ما أنا كائن فى مكان ما وفى كل الأزمان

شاهد مستقر ومضمون ومتوقد

يدمر ذاته ويحفظها بحذر

دون توقف

منهمكاً بوضوح فى واجبه الأصلى.

بعد ذلك ظل صامتاً، مستغرقاً جداً فى تفكير ولم يتكلم أنا مزيداً فى الموضوع.

نهاية لحظات ثلاث.

فى ذلك صمت تذكرت رسالته، عن قصة حول نعجة تبتسم. وأظن، تقريباً أتجرأ على قول إنه كان يفكر فى ذلك فى تلك لحظة بالضبط.

فى يوم التالى، مع برد شديد بعد هطول ثلج مبكر طوال ليل، كان وداعنا فى محطة فرانسيس جوزيف وعندئذ - قبل أن أنسى - سلمته صورة فوتوغرافية عائلية لروزينا والصغير دافيد وأنا، ملتقطة فى ساحة أوستى صغيرة من قبل صديق أنا مصور. تأملها بذلك اهتمام كامل الذى يركز به على ما يهمه. وأخيراً قبّلها وأعادها إلىّ، وفى عينيه دموع: «احتفظ بها أنت أفضل يا بروفيسور»، قال لى، وأضاف: «سآتى يومًا لطلبها منك» بعد ذلك، أخرج من جيبه داخلى مغلفاً وضعه فى جيبى. أردت مقاومة، لكن هو رفع إصبع إلى شفتيه وقال لى: «إنه شىء لدافيد وروزانا ولك، ربما أحب أشخاص إلىّ. وفيه لك، خاصة، رسم صغير آخر، كتذكار».

شدنى بعد ذلك إليه فى عناق دب، وقبّلنى قبلة أخيرة على خدى. استدار وانصرف ماشياً بسرعة، منحنياً قليلاً، غير مرتاح فى معطفه شتوى، واسع عليه وطويل، والرأس مكشوف برغم برد. راقبته حتى اختفى وراء أحد الأقواس.

بعد ساعتين تقريباً، عندما كان قطار يعدو فى أراضى سلوفاكية باتجاه براغ، أخرجت مغلف من

الجيب ونظرت محتوياته. كان فيه مبلغ كبير من نقود، وإضافة إلى ذلك، على قطعة كرتون سميكة، رسم بالريشة لراس نعجة فظيع، بابتسامة موت شهوانية، وعينين ماكرتين (لم يكن هناك التقزز الأولى) وإشارة خفيفة فى ظل الجزء العلوى لقرنين. أم أن هذا هو انطباعى فقط؟

أخبار انقلاب عسكرى

فى الأيام التالية، لجأت إلى استخدام مكثف لسلاح الصحفى الأساسى. لا، ليس المقص، كما يعلم كورتيس بونثى، وإنما آلة استنساخ الفوتوكوبى. فالمقص، من جانب آخر، ممنوع منعاً باتاً فى هذه المكتبة البروسية للمطبوعات الأمريكية اللاتينية، كما هى الحال فى المكتبات قاطبة، وهذا لا يمنع أن بعض الصحف والكتب قد تعرضت للقص على يد جنوبيينا المتعطشين للثقافة.

ما يلى هو سلسلة برقيات صحفية حول انقلاب العراق، مع بعض العناوين الفرعية التى وضعتها بحكم العادة، كى لا أفقد مهارة اليد.

معركة دامية

بيروت، ١١، (أ. ب) حكام العراق الجدد يخوضون معركة دامية «لتصفية» الشيوعيين فى كل أنحاء البلاد، حسب ما تشير التقارير الواردة من عدة

عواصم فى الشرق الأوسط، بينما تتواصل عمليات اعتقال العسكريين المنتمين إلى الفريق المهزوم.

بغداد ١٤ (أ. ب) . الشيوعيون العراقيون الذين حثتهم محطات بث إذاعى سرية على الانتفاضة ضد النظام الثورى العراقى الجديد، خاضوا مواجهات مسلحة عنيفة فى الليل ضد قوات الجيش فى العاصمة، بينما ألمح وزير خارجية سورية إلى أنه يمكن للعراق وسورية أن يشكلا اتحاداً فيدرالياً.

جنود، ورجال شرطة، وطلاب يضعون على أذرعهم عصابات خضراء خاصة بالحرس القومى للثورة، تقدموا بصورة منهجية عبر المدينة، فى محاولة لتطهير معاقل الحمر.

القتال اندلع ليلاً عندما دوت رصاصة بندقية أطلقت من نافذة مرتفعة على مقربة من مكتب التلغراف. وقد ردت عليها دبابة بزخة من مدفع رشاش. تواصلت المعركة بصورة متقطعة، وتوقفت قبل الفجر بقليل إثر تبادل إطلاق نار قوى بالقرب من التقاطع الرئيسى فى بغداد، ساحة الحرية. وكان القتال قد بدأ فى الثانية عشرة والنصف ليلاً وتوقف فى الخامسة والنصف فجراً.

وقالت مصادر مطلعة إن ٢٥٠٠ شخص قد اعتقلوا. معظمهم من الشيوعيين.

مازالت الإذاعات الشيوعية السرية تدعو إلى المقاومة وتطلب كذلك من القبائل الكردية فى شمال البلاد أن تنضم إلى الشيوعيين فى تمرد مفتوح. وكان

الأكراد قد خاضوا صراعاً ضد قاسم طوال ثمانية عشر شهراً.

الأكراد يفاوضون

بغداد ١٥ (و.ص. ف). زعيم الثورة الكردية، الملا مصطفى البرزانى، وصل اليوم إلى كركوك وزار القائد العسكرى للمنطقة المكلف من الحكومة العراقية الجديدة بالاتصال بالزعيم الكردى كما عُلم اليوم من مصادر واسعة الاطلاع.

بغداد ١٥ (أ.ب) . ستحمل طائرة خاصة خلال الساعات القادمة قادة الأكراد الأساسيين إلى كركوك للتفاوض مع أعضاء من الحكومة العراقية الجديدة حول حلّ مسألة كردستان.

تصفية الشيوعيين

بغداد ١٥ (أ.ب) من ويب ماك كينلى: بعد أسبوع على إسقاط نظام رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، يواصل قادة العراق الثوريون تصفية الشيوعيين من كافة قطاعات المجتمع.

أكثر من ٢٥٠٠ شخص، بمن فيهم جميع وزراء نظام قاسم، جرى اعتقالهم بعد انقلاب الثامن من مارس.

ويجرى تطهير الوزارات من أنصار الدكتاتور السابق. وقد شوهد فى الأيام الأخيرة ضباط من النظام الجديد يحملون قوائم فى أيديهم، وينطلقون فى شاحنات محملة بمعتقلين.

الجيش وأشخاص مدنيون، أعضاء فى الحرس القومى، يجوبون شوارع بغداد ويفتشون البيوت التى يسكنها شيوعيون معروفون. وقد شوهد جنود مسلحون بالبنادق يركلون بأقدامهم أبواب بيوت يُعتقد أن شيوعيين يقيمون فيها.

الرابع عشر من رمضان

بغداد ١٤ (وكالة الصحافة الفرنسية). لم يكن الجنرال قاسم، بالمصادفة، فى مقر إقامته المعهود فى وزارة الدفاع عندما بدأت طائرات قاعدة الحبانية هجومها، صباح يوم الجمعة الثامن من فبراير. هذا اليوم المصيرى - اليوم الرابع عشر من رمضان حسب التقويم الإسلامى - كان، مثل غيره من أيام الجمعة، يوم عطلة رسمية فى الإدارات العامة والخاصة. عابرون نادرون يسيرون فى الشوارع المقفرة، حيث المتاجر مغلقة.

كانت الإذاعة قد بدأت بثها المعهود. وأشار المذيع إلى أن قاسم قد قام فى الليلة الفائتة بإحدى زياراته التفقدية على بعض أحياء العاصمة. وفجأة - كانت الساعة الثامنة والنصف - توقف البث. كانت تلك هى ساعة الصفر. جماعة صغيرة من العسكريين تمكنت من السيطرة على محطة البث الإذاعى القائمة فى ضاحية بغداد الجنوبية الشرقية، بالقرب من الطريق إلى سورية. إنهم ضباط شباب، مثل من بادروا إلى القيام بالانقلاب

الأمر بالقصف

وفى الوقت نفسه، فوجئ قائد سلاح الطيران العراقى فى منزله باقتحام جماعة أخرى من الضباط الشباب. وبمسدس رشاش موجه إلى بطنه أجبر على توقيع الأمر بعملية ضد وزارة الدفاع الوطنى، مقر إقامة الزعيم قاسم والقصر دار الحكومة الرسمى.

رفض قائد الطيران الانصياع أول الأمر، وراح الضباط يتخذون موقفاً أكثر توعداً. اعتقد القائد أنه يستطيع إلهاءهم بإجلاس أحد أبنائه الصغار على ركبتيه. ولكنه وافق تحت التهديد مع ذلك على توقيع الأمر. وفور توقيعه أعدموه هناك بالذات بصلية مسدس رشاش.

مناورات جوية

وبموته توالت العملية الثورية المذكورة.

طائرات قادمة من الحبانية، ظهرت فى سماء القاعدة المهمة القائمة جنوب شرقى بغداد، والمعروفة باسم «معسكر الرشيد» وبما أن الجماعة المتمردة تعرف أنها لن تتمكن من كسب تأييد الضباط الطيارين فى هذه القاعدة، فقد قامت طائرة قاذفة بتدمير كافة الأسراب الموجودة هناك.

وفى أجواء الفوضى السائدة، شُن الهجوم على وزارة الدفاع.

الطائرات المحلقة على ارتفاع منخفظ، متبعة مجرى دجلة، مرت عدة مرات أمام الوزارة. وكانت

الطائرات توجه قذائفها بدقة وتعاود الارتفاع، فوق العاصمة نفسها. وقد ظن الأهالى فى أول الأمر أنها مناورات جوية.

سرعان ما أذيع «البيان رقم ١عن المجلس الوطنى للثورة» وأعلن - خطأ - أن «الدكتاتور الخائن» لم يعد موجوداً. والواقع أن قاسم لم يكن فى المبنى الذى تعرض للقصف.

جولة على أحياء العاصمة

عند الفجر - وبعد جولته شبه الروتينية فى شوارع بغداد - ذهب الزعيم قاسم مع مرافقه الخاص إلى بيت أمه، فى حى الكرادة: وهناك فوجئ بالهجوم الجوى.

وقد ظل طوال ساعتين تقريباً على اتصال بالهاتف مع وزارة الدفاع إلى أن قرر - بين الساعة العاشرة والعاشرة والنصف - أن يذهب بنفسه إلى مقر قيادته ليقف على رأس مقاومة الانقلاب. وقبل أن يدخل إلى المبنى المقصوف، جال قاسم فى عدد من أحياء العاصمة، بهدف تقويض التأثير الذى خلّفه الإعلان عن موته.

وقد قوبل فى كل مكان بالهتاف، ذلك أن بائسى بغداد يشعرون بتعاطف مخلص معه.

مبارزة استثنائية

فى أثناء ذلك، شهد الأهالى مبارزة استثنائية بين الإذاعة والتليفزيون العراقيين. فالإذاعة - وهى بأيدى

المتمردين ـ تعلن موت قاسم. بينما التليفزيون يعلن أن «الزعيم الوفى» مازال حياً ويقود المقاومة. وجرى عرض مشاهد تُظهره وهو يخطب محرضاً الجموع.

وبعد محاولة بلا جدوى، عبر الهاتف، لوقف بث التليفزيون، أمر المجلس الوطنى للثورة بقصف محطة التليفزيون جواً. وقد توقف البث بصورة مفاجئة. وهكذا فقد قاسم التواصل مع سكان بغداد.

ومع انتهاء صباح يوم الجمعة المضطرب ذاك، كان قاسم لا يزال يسيطر على وزارة الدفاع. وكان السبعمئة رجل المكلفون بحمايته قد نظموا الدفاع بطريقة لا يمكن معها إلا للطائرات أن تهاجمهم.

المدرعات تحسم الأمر

غير أن عمل العناصر المدرعة بدّل الوضع تماماً لمصلحة الضباط الشباب ووفرت النصر للمتمردين الذين نظموا عملية بالغة الجرأة، لكن الإعداد لها كان مقتضباً جداً.

ومع بداية العصر، ظهرت فى بغداد دبابات معسكر الوشاش لتبدأ حصاراً واسعاً لوزارة الدفاع.

كانت عمليات الطيران تحول دون تقدم الدبابات أكثر من المبانى المحاصرة. عندئذ حاول قاسم، من داخل الوزارة، طلب دبابات معسكر آخر ـ معسكر الرشيد ـ لتأتى لنجدته، لكنه اصطدم برفض شبه مكشوف.

المحاولة الأخيرة

بعد ظهر يوم الجمعة خفت حدة الهجوم. وكانت الإذاعة لا تزال تبث موسيقى عسكرية - مصرية فى الغالب - وتعلن بيانات تأييد، حقيقية أو مزعومة، للحركة. وفى هذه الأثناء، اتصل قاسم هاتفياً بالعقيد عارف، وحاول دون جدوى التفاوض مع حركة التمرد.

الطائرات المهاجمة صارت أقل عدداً، وقد أُسقطت إحداها ببطاريات وزارة الدفاع. وتواصلت مقاومة قاسم، غير أن تعزيزات بدأت تصل إلى المتمردين.

وفى حوالى الساعة الثامنة عشرة والنصف، بدأت تدخل إلى بغداد دبابات معسكر ثالث، مواقعه أكثر بعداً عن العاصمة. وببطء راحت الدبابات تقترب من وزارة الدفاع، وبدأت تطلق النار على المبنى.

استسلام وإعدام

استسلم قاسم فى حوالى الساعة السادسة، وأعدم قرابة الساعة الثالثة عشرة والنصف، فى قاعة الموسيقى العربية بإذاعة بغداد التى تحولت منذ يوم الجمعة الثامن من فبراير إلى مقر قيادة التمرد.

فى فيلم الإعدام الذى بثه تليفزيون بغداد يوم السبت ٩ فبراير ليلاً - بين فيلمى رسوم متحركة أمريكيين - شوهدت بالقرب من قاسم والثلاثة الآخرين الذين أعدموا معه، آلات موسيقية عربية تابعة لفرقة الإذاعة الموسيقية.

بغداد (العراق)، ١٦ (أ ب) وقائع الساعات الأخيرة من حياة قاسم رواها اليوم أحد قادة الجيش الذى طلب الحفاظ على سرية اسمه؛ لأن النظام الجديد يحظر أى نوع من الدعاية الشخصية. وهذه هى روايته للأحداث:

قوات متمردة مع دبابات وعربات نقل جند مصفحة شنت هجوماً على مقر قيادة قاسم فى وزارة الدفاع الساعة التاسعة من يوم الجمعة ٨ فبراير.

المقاومة الشرسة التى أبداها ستمئة جندى موالين استمرت يوماً وليلة إلى أن تمكنت القوى الثورية من شق طريق إلى المبنى الذى تحصن فيه قاسم.

ومن وسط أنقاض قيادة الشرطة ظهر قاسم ليستسلم فى الساعة الرابعة عشرة من يوم السبت. كان يحمل مذياعاً نقالاً تحت إبطه، ولوح بيده الأخرى قائلاً: «أريد التكلم مع أخى» وبدا نزقاً كعادته.

خرج العقيد فادى عباس المهداوى مع قاسم صارخاً: «أرجوكم، لا تقتلونى. لم أفعل شيئاً. أنا أخوكم».

تقدم جندى عادى من قاسم وصفعه على وجهه عدة صفعات. قائد القوة المتمردة أخذ قاسم والمهداوى إلى إذاعة بغداد.

شكل اثنا عشر ضابطاً هناك محكمة ميدانية.

وسأله عارف الذى ترأس المحكمة: «من الذى قام بالثورة، أنت أم أنا؟»

أجاب قاسم: «أنت»

سأله عارف: «لماذا أكدت أنك أنت من قمت بالثورة وأننى خائن؟» فرد قاسم: «لا، أنا الخائن. ولكن أرجوك، أنت أخى. أرجوك، دعنى أغادر بغداد. دعنى أذهب إلى فيينا» سأله عارف: «لماذا أعدمت أصدقاء وضباطاً، من رفاق السلاح الذين قاموا بالثورة معنا؟»

أجاب قاسم: «لستُ من أمر بإعدامهم. إنها المحكمة العسكرية»

التفت عارف نحو المهداوى قائلاً: «هل هذا هو رئيس المحكمة العسكرية؟ ما الذى يعرفه من القانون؟».

صاح المهداوى: «أرجوك، لا تقتلنى».

ووجدت المحكمة الميدانية قاسم والمهداوى مذنبين. فاقتيدا إلى غرفة صغيرة، طولها متران وعرضها متران، وأعدما رمياً بالرصاص.

نهاية الرواية.

وكذلك نهاية أخبارى المستنسخة بالفوتوكوبى.

الرسالة الرابعة عشرة

عزيزى جوزيف: لن تكون هذه الرسالة طويلة. أظن أننى أنهيت مرحلة من حياتى، وأنه يمكن لكتّاب سيرتى المستقبليين أن يطلقوا عليها «مرحلة الرسائل الطويلة». فالقديس بولس ليس إلى جانبى إلا صندل قديم. وأخشى كذلك أن وقتاً طويلاً سيمضى قبل أن نتواصل ثانية، لكننى أريدك أن تعرف ـ وأنت تعرف ـ أننى سأحتفظ بك حاضراً على الدوام فى ذاكرتى، وكذلك فى صلواتى (لا وجود لها، ولكن لا فرق). نادراً، أو مطلقاً، ما وجدت فى حياتى شخصاً قادراً على هذا التفهم غير المتناهى مثل شخصك. فأنت يا عزيزى جوزيف، كنت بالنسبة إلىّ بديلاً شرعياً للأب الذى لم أمتلكه، وقد انتبهت الآن إلى ذلك. ولم أكن أرى أننى بحاجة إليه إلى أن تعرّفت إليك. لكننى بحاجة إليه. ولم يعد ينقصنى الآن سوى الابن والروح القدس. لا تهتم بكلامى. فأنت تعلم أننى حين أزداد سخرية أكون أكثر جدية.

لقد اتخذتُ، كما تعلم، قرار رجل، وهو القرار الوحيد الذى تبين لى فى نهاية المطاف أنه ممكن أو شرعى أو أخلاقى. ويمكن لك أن تضيف صفات أخرى تنتهى بياء.

عندما تصل هذه الرسالة إلى يديك، بوساطة من لا يمكن التعريف به، سأكون بعيداً عن بغداد، «متولياً دون شك واجبى الأصلى» الذى هو فى نهاية المطاف ليس الرسم كما يبدو. بالرغم من إحساسى بالأسى لهجره. لأنه سيكون من الصعب علىّ أن أرسم وأنا على صهوة حصان.

أرفق لك قصاصة مقالة نقدية لروميرا حول معرضى، وفيها مبالغة فى المديح. كانت هناك مقالات أقل حماسة، واحدة منها إيجابية للدكتور المخيف إلبريشت جولدشمت؛ ولكن فيها الكثير من الحذلقة واللف والدوران الذى يصعب فهمه. ومقالة أخرى ساحقة، جائرة، وتزكم الأنوف بنتانة التعصب، لشخص يدعى مالالايت، يكتب فتاواه فى جريدة السيجلو. هذا المقال الأخير يحزننى، ليس بسبب درجة عدم الفهم التى يمكن للغمامة الأيديولوجية أن تحدده أو لمقدار اللؤم الوطنى، وإنما للتأثير الذى يمكن أن يكون قد أحدثه فى أناس كثيرين أقدّرهم وأجد نفسى واحداً منهم. مؤسف.

جرى بينى وبين إيفا وداع مقتضب ودراماتيكى. إنها لا تفهم قرارى، لا تتقبله، ترفضه بكل قواها. ترى أننى أخضعتها لأرهب عملية غش فى حياتها. أظن

أنها محقة فى الأمر الأول. أما فى الثانى، فليس إلى هذا الحدّ. لكننى لا أستطيع عمل شىء آخر. «هذا ما يقوله الرجال دوماً» صرخت بى فى النهاية، كما لو أنها صاحبة تجارب واسعة مع الرجال.

ما أضيفه بلا جدوى ويمكن أن يكون له وقع اعتذار سخيف. على أى حال، لقد باع كوسرا بسعر الذهب مجموعة لوحات «جميلة» السبع. سحبتُ نصف المبلغ لاستخداماتى الخاصة. وبقى الرصيد مودعاً فى حساب ثنائى بالدولار فى ڤيينا. يمكن لإيفا أن تحوّل ما تحتاجه من الحساب. المبلغ كله إذا أرادت. وطلبتُ منها كذلك أن تحوّل إليك ما تحتاج إليه لنفقاتك الشخصية والأسرية.

يبدو أنه ليس لدى شىء آخر أقوله. تذكر يوماً هذا الهندى الجلف المستسلم لفكرته. عناق قوى، وقبلة إلى روزانا وأخرى إلى دافيد.

أليرو.



مقالة السيد روميرا النقدية

معرض الفنان الشاب أليرو ماتشوكا (هويركيو أو هويركين) فى صالة جامعة تشيلى ربما يكون الأبرز فى موسمٍ كان سيصل، من دونه، إلى ختامه دون نماذج بارزة. إنه يشكل كشفاً عن موهبة تصويرية استثنائية، يمكن لنا أن نتنبأ له بمستقبل لامع، لولا أن التنبؤ البشرى يظل ضعيفاً جداً. أولم نشهد بالفعل، أكثر من مرة، إحباط أو غرق قيم جلية، بسبب محدودية الوسائل أو بسبب التناقضات الداخلية الملازمة كما يبدو لكثير من الأمزجة الفنية؟

هويركيو، وهو الاسم الذى عُرف به هذا الفنان فى أوروبا الوسطى، يكشف بقوة خاصة عن أصله المابوتشى. ولد فى ترايحين عام ١٩٣٠ وتشكّل إلى جانب معلمين من أمثال كاميلو مورى، وإزرائيل رواء، وماركو بونتا، وخوليو إسكاميث. كما أنه اشتغل بتقنيات جرافيك متنوعة، وبنتائج واضحة الجودة، فى ورشة ٩٩ التى يشرف عليها نيمسيو أنتونيث. من

الملائم أن تكون هذه المعطيات حاضرة فى كل مرة يمكن لهذا المعرض، بنوعيته وبمضمونه المفاجئ، أن يدفعنا إلى افتراض تكوين أوروبى، إكزوتيكى. فالإكزوتيكية هنا هى فى الموضوعات التى توصل إليها بفضل إقامة طويلة فى الشرق الأوسط، وليس فى التقنية أو تربية عين الفنان وحساسيته.

لدينا قناعة راسخة بأن كل مراحل الرسم الحقيقى عرفت كيف تنعتق من عبودية الموضوع. ونتذكر هنا، مرة أخرى، التعريف المشهور الذى قدمه موريس دينس: «اللوحة، قبل أن تكون صورة معركة، أو حصان، أو امرأة عارية، هى مجموعة لطخات وألوان موزعة بنظام معين» ومن زاوية أخرى يعبر عن الرأى نفسه البلجيكى ميجريه عندما يرسم، بتعبير طبيعى صارم، غليوناً ويكتب تحته، على اللوحة، بخط طفولى: «هذا ليس غليوناً»وهو ليس كذلك بالفعل، وإنما «مجموعة لطخات، ألوان...» إلخ.

غير أن التعريفات والاصطلاحات، بما فى ذلك أشدها رسوخاً، تجد نفسها خاضعة للتحدى وترتعش فى مواجهة المبدعين الحقيقيين الذين يفرضون دوماً مراجعة المفاهيم النظرية. وفى نماذج ماتشوكا، وهو دون شك رجل عصره، أى أنه رجل هذا العصر، نجد أنفسنا أمام لوحات تعيش وستعيش بفضل قيمتها التصويرية حصراً. ولكنها كانت وستكون أيضاً شهادة تاريخية اجتماعية، حتى لو ساءنا ذلك. فالاهتمام بالاستمرارية هنا، والنزوع إلى تصوير الحقيقة، وحب

الموضوعية، لا تضعف من العلاقة المضبوطة لدرجات الألوان، وجمال اللون، ودقة الرسم.

يمكننا القول إن الأسلوب الناضج الذى توصل إليه هويركيو ليس مناسباً لعدم انتظام المنظر الطبيعى وعدم وضوحه. مزاجه كرسام شديد الغنى. يحتاج إلى قوة بنائية هائلة، إلى مادة كثيفة، إلى زخرفة تعبيرية، إلى حياة. وهو لا يتهرب من أية مصاعب ويقتحم مشكلات تصويرية عظيمة الأهمية.

بعد كل ما قلناه، مازال ينقصنا ما هو جوهرى. فالخاصية البارزة فى هذا الرسم هى دفع المشاهد إلى ما يمكننا تسميته «التأمل الميتافيزيقى».

وثمة شىء من القلق حيال الألغاز الجوهرية التى يتمكن السورياليون من اكتشافها وإيصالها من خلال أشياء أو كائنات مصورة بواقعية مملة ومدققة، ويضيفون إليها ارتباطات غريبة وغير مألوفة. إننى أشير فى هذا المجال بصورة خاصة إلى اللوحة الكبيرة المعنونة «آجر» حيث التصوير الصارم لبئر عظيمة (*) مع أقصى استنساخ منهجى ودقيق لكل قطعة آجر صغيرة مستطيلة من تلك التى تشكل جداره الآخذ بالتقعر والانغلاق فى نزوله مُحدثاً إحساساً بقلق دوارىّ. وكمشاهدين ننظر من الحافة العليا لهذه البئر، مع أن الحافة لا تظهر، نشعر للحظة

(*) هذه اللوحة كما مرّ في صفحات سابقة هى لقوس كسرى الذي يصفه الفنان بدقة عندما يزوره. ولكن اللوحة، كما مرّ سابقاً أيضاً، عُلقت مقلوبة في المعرض، ولهذا يراها الناقد بئراً وليس قوساً.

كما لو أننا نسبح فى الفراغ. ولكن أكثر ما يفاجئ، وما يشد انتباهنا فوراً، هى بركة صغيرة أو بقية ماء غير منتظمة الشكل فى قعر البئر، تعكس سماءً زرقاء مع غيوم نائية يجتازها طائر أسود. وعند الحافة يظهر وجه يطل من أعلى - لكنه ينعكس فى الأسفل - غير محدد الملامح بدقة كبيرة، وهذا منطقى بسبب بعد المسافة وانعكاس الضوء، لكنه يوقظ جاذبية فضول لا كابح لها.

ومشابهة لها، ولكنها تزيد من حدة الغموض إلى درجة إثارة قلق مغموم، اللوحة المعنونة (أهى سخرية؟) **«فلاحون هاربون من الإصلاح الزراعى»** حيث أشكال النائمين، وهى أشكال مغفلة إلى حد افتقادها ملامح الوجوه، توحى - دون إثارة للشفقة - بألم جماعى عظيم، يواجهها برج بابل الذى عثر عليه الأركيولوجيون، افتراضياً، فى عراق اليوم، أى ميزوبوتاميا القديمة. يظهر البرج رهيباً ومتوعداً، تحجبه جزئياً هبات ريح محملة بسحب من الرمل. وعند قاعدته ضحايا بشرية لعملية تحول اجتماعى لا يفهمونها، يرقدون براحة دون أمل يستبق الحسم. العمل بمجمله يسبب إحساساً بخراب يمكن وصفه بالتوراتى.

وأكثر ثانوية بموضوعها، شبه تكرار لبضاعة بعينها، لوحة **«دجلة فى الليل»** حيث يقيم الفنان مواجهة بين وقائع تفاوت اجتماعى ببراعة خارقة. وإلى جانبها **«سمك دجلة»** بتشكيل بارز فى تصوير

النار ونسيج الدخان والنهر والأشباح القاتمة للرجال المنهمكين وسط الظلال.

ويلامس هويركيو السوريالية بلوحته المرعبة «الجرادة الأم» التى يمكن مقارنتها بحاملة طائرات محلقة.

إن هذا الفنان، بالتوازى وبالإجمال، هو معلم فى تصوير الحقيقة، مثلما هو معلم فى الوقت نفسه فى تقديم الاستعارة التى هى، كما قلنا فى مناسبات أخرى، إيحاء بالواقع. فعندما يريد الشاعر أن يقول شيئاً، ولا يريد فى الوقت نفسه المواجهة مع الظاهر المباشر المحض الذى يجرح مشاعره، فإنه يتفاداه. يقوم بالالتفاف، يرصد الواقع ويفاجئه من الجهة غير المتوقعة. إن هذا مثل «الوعد بشىء وعدم تقديمه» فى بعض الألعاب الطفلية. الاستعارة أيضاً هى لعبة كناية لفظية، لكنها ليست طفولية، وإنما مترعة بالحدس والبديهة الإبداعية.

بعض الرسامين يبدون متهربين مع الواقع. أعمالهم تحاول تجنب خارجية العالم المحيط بهم الظاهرية، مستبدلين نظام الخطوط، والأشكال، والكتل، والألوان، بلعبة مترابطة من عناصر تظهر فيها تعبيرية أشد زخماً.

ولكن، ماذا نجد فى هويركيو؟ تصوير الواقع الأكثر - ظاهريًا - واقعية. لكن هذا التعصب، الهوس بما هو خارجى، يبدو فى النهاية استعارة عظيمة لشىء آخر، يتفلت منا، مثلما يتفلت من الرسام، لأنه سر يتجاوز الإدراك العقلانى.

ويحدث هذا حتى فى لوحات شديدة الوضوح، فى الظاهر، كما فى الصورة «الإنسانية» لسَموم، بخلفيتها الساخرة لمآذن بطاقات بريدية، أو كما فى الإشارة الطقسية «**إهانة**» تلميح إلى حفر غائر أشورى، تعنى التكرار الأبدى لدورة العنف والألم.

ونضيف أيضاً أنه فى أعمال هذا الفنان ذى الأصل الأراوكانى، المغتنى بتكوين صارم ومعرفة عميقة لأفضل التقاليد الأوروبية ومختلف التوجهات الطليعية، لا نجد أثراً لما يسمى «نزعة فن السكان الأصليين» ولا لبلاغة سيكيروس الشعاراتية. نقول هذا كضريبة اعتراف بنضجه وجدية مسعاه الإبداعى.

إننا باختصار أمام أحد أكثر الجهود جدية لفنان تشيلى يعد ببلوغ قمم لا يصلها إلا قليلون.

ملاحظات على الرسالة الرابعة عشرة

ليس هناك كثير لتعليق عليه حول رسالة أخيرة من هويركيو، إنه اتصال سخى وعملى لرغباته الأخيرة. إلى يدى أوصلها، فى براغ، جان جاك بينتو بشخصه، فى يوم ثلجى فى أواخر شهر فبراير، وكنا قد علمنا بأمر انقلاب عسكرى فى بغداد. ومع أن صحافتنا أخبرت عنه باقتضاب شديد: بالكاد عمود من ستة أو سبعة سنتيمترات فى صفحة أخبار دولية فى جريدة «رودى برافو» تحت عنوان يتكرر يومياً «Udalosti v Bagdadu»أحداث فى بغداد، فى بلادنا هذه هى طريقة لمعرفة (قليل أو لا شىء) عن أحداث سياسية غير مواتية.

كان غم أسابيع أولى حينئذ قد انقضى، ولكن ليس تماماً. ريبيكا كانت أفضل بعض الشىء، بعد تشنج شرايين تاجية عنيف، ترقد فى فراش، وكثيراً تبكى. نعرف أن إيفا بأمان، وتعدُّ عدة للعودة إلى براغ. أما عن هويركيو فلا نعرف أى شىء.

كما حدث فى مرة سابقة، بينتو اتصل بى إلى أوستى ودعانى إلى فندق «باريس» قديم، غير بعيد عن برج البارود عائد إلى عصور وسطى، وأحجاره

المنحوتة سوداء بفعل سنين أكثر من فعل بارود ربما لم يكن له وجود هناك قط. وبالنسبة إلىّ التأمل كئيب يكون سبباً فى إعادة ذكريات شبابية إلىّ على دوام. وخاصة وسط ثلوج تساقطت فى الليل، ومازالت نظيفة فى هذه ساعة مبكرة، وتبرز بحواف مضاءة كل تفصيل فى قنطرة كبرى قائمة هناك منذ خمسمئة سنة.

فندق «باريس» الذى يبدو ألمانياً أكثر منه فرنسياً، كان غرامياً فى أزمنة غابرة قبل حرب. واليوم موظفون صغار فى حزب أو إدارة يقيمون فيه يوماً خلال مهمات خدمة هى محط طمع الجميع. وبالتالى مازال مكاناً لمآثر غرامية قليلة قيمة. إنه القدر.

فى ذلك ديكور، يبدو بينتو فى جوّه طبيعى، ولكن كشخصية من عصر آخر. استقبلنى فى غرفته، ملتف بروب دشمبر فاخر أحمر اللون، وشعرة أجعد مشعث. نظر إلىّ بتأثر شديد، بينما هو يستبقى يدى، بصورة غير مريحة، لوقت طويل بين يديه بيضاوين سميكتين، مليئتين بخواتم، ومتعرقتين بعض شىء. بدا لى هراً ضخماً.

وأخيراً تنهد، أطلق سراح يدى ودعانى لجلوس إلى جانب منضدة مكتب ممتلئة بعلب ولفافات مبعثرة بفوضى وقدم لى فى علبة مذهبة، وسط تخريمات ورقية، سكاكر محشوة بليكور. لم أقبل. يبدو لى ليس هذا هو وقت مناسب (الساعة ٤٥,٨ صباحاً) لاستمتاع بمثل تلك حلوى. ومن مكان بين ساقيه يخرج زجاجة شراب فرنسى مجهول لى، يسميها «كالفا؟»

وفى كأسين كبيرين، أحضرهما من حمام، سكب كمية سخية.

شربنا وكل منا ينظر فى عينى الآخر، على طريقة روسية. كان الشراب قوياً، يستحضر مذاق فواكه ويُذكّر، من بعيد، بشربنا السليفوفيتشى. كان النخب فى صحة هويركيو، بالطبع.

ليس من صعب علىّ فهم إسبانيته مثيرة لفضول، ومع أن بعض عاداته تزعج، مثل وضع يده على ركبتى أو تقريب وجهه كثيراً من وجهى والنظر بثبات فى عينىّ بعينيه ناتئتين ومزودتين برموش طويلة منحنية، أعتقد أنه صاحب أعماق إنسانية طيبة فى النهاية. وليس لدى شك فى محبته لهويركيو.

إنه حزين كثيراً. «يا له من شخص عظيم، ويا لموهبة، ويا لحياة ملتوية، ويا لمصير غريب مختار» قال. ومع أننى لم أعلق بشىء، فقد أصر بغضب: «أجل، أجل، مصير مختار. ليس نتيجة أقدار. يا لضياع فظيع عن وعى. إنها خطيئة كبرى».

رسالته (رقم ١٤) يقول لى، سلمه إياها هويركيو يوم ٣ فبراير، فى ليل، فى شقته. قال له إنه سيغادر، ولم يقل إلى أين. طلب منه عناية بإيفا إذا ما حدث شىء. تكلم قليلاً، وكانوا ينتظرونه قريباً من المكان. لم يكن يبدو عصبياً، لكنه بدا مصمماً، وخلاف طريقته معهودة، كان كلامه قاطعاً، شبه عسكرى. عندما قدم له بينتو كأس وداع، رفضه. وفى النهاية، ابتسم

وكلاهما أفرغا الكأسين دفعة واحدة، مثل رفيقين فى الجبهة. وكان هذا كل شىء.

بينتو غادر بغداد يوم ٦ مساء. «كانت تُشم فى الجو رائحة بارود» قال. وقبل ساعتين من مغادرته، تكلم مع إيفا هاتفياً. نصحها بذهاب إلى مقر إقامة خبراء تشيكيين، فهو مكان له وضع دبلوماسى، وألا تتحرك. «أظن أنها فهمت»

عن سياسة شرق أوسط غير مفهومة لى، وعن رسوم هويركيو، وعن انضمامه إلى قضية كردية حيث علاقة مع زكية تشكل عاملاً، ولكن بينتو يرى أنه ليس عاملاً وحيداً ولا حاسماً، وعن موضوعات أخرى ظللنا نتحدث وقتاً طويلاً. أيكون قد وجد أن فنه قد وصل إلى طريق مسدود؟، يسأل. أنا لا أظن، بل العكس أفكر أن دروباً واسعة تنفتح أمامه. «أكان يشعر بأن نجاحه خطيئة؟» ممكن. وفى النهاية لن يكون بالإمكان فهم سلوكه بالكامل.

«إننا صغار جداً» يقول بينتو البدين جداً، متسربلاً بملابسه قرمزية.

وأخيراً يكون وداع. إذا توفرت له أخبار عن هويركيو، يعد أن يوصلها إلىّ. وإلى المغرب يسافر الآن لزيارة أبوين عجوزين. وربما يرجع إلى بغداد، لا يعرف متى. ينتظر إلى أن تركد مياه.

لا شىء أكثر. زمن يمضى. ومؤخراً، فى شهر أغسطس ١٩٦٣ تقريباً، أعلم من طبعة يوم ١٤ يوليو من جريدتكم موقرة بخبر غير مؤكد عن موت أو

اختفاء رسام عظيم أليرو ماتشوكا، هويركيو. وقبل ذلك، بألم، وبسخط لا يجب أن أخفيه، عرفت تعليق ناقدكم سيد مالالايت حول معرض عظيم لهويركيو فى قاعة معارض فى جامعة تشيلى فى نوفمبر ١٩٦٢.

هذا أمر وذاك دفعانى إلى جمع رسائل رسام مرموقة، وكتابة ملاحق ملاحظات مملة وإرسال هذه مخطوطة ثقيلة إلى سيد مدير جريدة، على أمل أن تساهم بطريقة ما فى تغيير نظرة إلى أعمال وحياة هذا ممثل نبيل لأمة أراوكانية ولفن وطنى تشيلى. تلقى حضرتك وأعضاء هيئة تحرير وإدارة جريدة محترمين أسمى تحيات احترام.

ج. ب.

عودة المخطوطة

عزمتُ فى نهاية المطاف أن أعود إلى تشيلى فى شهر ديسمبر ١٩٩٠ كانت أجواء البهيمة لا تزال تطفو فوق البلاد، مثل السحابة الرمادية التى تغيّم طريقى. ولكن، ما العمل؟ لم يعد هناك كلام عن أفول الدكتاتورية. والسنة الحاسمة لم تحسم شيئاً. وصرخة «سوف يسقط» لم تعد أكثر من تفريج عن النفس. لقد صرنا مثل اللاجئين الإسبان الذين كنا نضحك منهم كثيراً، من قِصر إصبعهم لكثرة ضربه على المنضدة قائلين «هذه السنة سيسقط فرانكو»، ومن مؤخراتهم المربعة من كثرة الاجتماعات. وفوق ذلك، سقط الجدار، وتفككت أسرة الشعوب الاشتراكية الشقيقة العظيمة وصداقتها التى لا تنفصم عراها، والجميع فى تشيلى صاروا يرتلون إنجيل الـ Chicago Boys.

فى مركز شرطة الرحلات الدولية، شرطى بشارب، مثل من كانوا فى الأزمنة الغابرة، نظر إلىّ، دقق،أمعن النظر إلى الشاشة، نظر إلىّ مجدداً، استدعى شرطياً آخر، سأله شيئاً بصوت خافت،

وأخيراً ختم جواز سفرى وقدمه إلىّ بوجه سمكة. فى الجمارك سارت أمورى جيداً: عندما ضغطتُ الزر، ظهر لى الضوء الأخضر، ونجوت من التفتيش. كنت أشعر بحر خانق. خرجت أمام سور من الناس ينتظرون، ونظرت فى كل الاتجاهات دون أن أرى وجهاً واحداً معروفاً. أشار لى دركى إلى المخرج. رحت أتقدم، دافعاً عربة الحقائب ومفكراً فيما سأفعله إذا لم يكن هناك أحد بانتظارى.

كان هناك من ينتظرنى. ففى الشارع تقريباً، بينما كان سائق تكسى يشدد محاصرتى كى أركب معه، وكان على وشك أخذ حقائبى عندما رأيت شيئاً، فجأة، شخصاً ضئيلاً يرتدى السواد، بوجه مستغرق جداً وشعر رمادى ملفوف فى عقيصة قديمة. عانقت ذلك العصفور الصغير: أمى، وبكيتُ، لماذا سأنكر ذلك. وبينما أنا أعانقها، كانت هى تبكى أيضاً، مثلما ينبغى. أحسستُ أن هناك من بدأ يضربنى على خاصرتى، فأفسحت المجال كى أضم أخى إلى عناقنا، لم أتعرف عليه، أسود ونحيل مثل فقير هندى.

بعد ذلك قدمنى أخى إلى فتى بدين، قائلاً لى: إنه صديق من الضاحية، وقد جاء بشاحنته كى يوصلنا إلى البيت. كانت شاحنة أشبه بلعبة أطفال، ولم أتخيل كيف ستتسع لنا جميعنا. لكنها استوعبتنا. ركبتُ أنا فى المقدمة، إلى جانب البدين، وأجلستُ أمى على ركبتى، بالرغم من اعتراضها. لاحظتُ أنه مازال فى فمها سنان أو ثلاث أسنان على الأكثر،

ورحت أفكر فى هدية أخرى أقدمها إليها بدلاً من حلوى اللوز الأليكانتى التى خطر لى شراؤها فى اللحظة الأخيرة من مطار مدريد، عند عبورى منه.

وصلنا بعد ساعة من السفر بين الأكواخ البائسة المعهودة نفسها، «وما الذى قلته لى عن المعجزة الاقتصادية التشيلية؟» ضحك السائق، وأخى القابع فى الخلف، فوق الحقائب، ضحك. هو أيضاً تنقصه بعض الأسنان مثلما استطعت أن أرى فى المرآة. واكتفت أمى بهز رأسها قليلاً دون أن تفلت يدى.

التحسن كان بائساً لكنه نظيف، وانهمكت أمى فى المطبخ، بعد أن همست فى أذنى: «أعددت لك فطيرة حلوى البطاطا التى تروقك كثيراً» .وفى غرفة النوم كانت صورة أبى بالزى العسكرى عند أدائه الخدمة، إنها واحدة من تلك الصور الملونة يدوياً، بخدين متوردين جداً، فى إطار بيضوى. حييته، ثم مشيت بعد ذلك مع البدين وأخى حتى المتجر، حوالى كوادرتين، بحثاً عن النبيذ. وكانت تلك هى الفرصة التى ينتظرها البدين للإعراب عن أعمق قلق يراوده:

- حضرتك آت من ألمانيا، أليس كذلك؟

- أجل.

- وقد أمضيت هناك سنوات عديدة، صحيح؟

- صحيح. حوالى اثنتى عشرة سنة.

كان أخى ينظر إليه باسماً، وهو يعرف ما سيلى ذلك.

- أخبرنى، هل عرفت هناك العانة الشقراء؟

- ماذا؟

- العانة الشقراء.

ضحك أخى: - عسى أن تُطلعه على ذلك، لأن هذا ما يستحوذ على عقله منذ عادته السرية الأولى.

- المسألة أننى لم أجدها قط - قال البدين مغموماً - ولا تظن أنى لم أعاشر شقراوات.

- متأكسجنات - قال أخى.

طمأنته بأفضل ما استطعت بمعلومات مناسبة. وقد استمع إلىّ بملامح حالمة.

وخلال الشهور الأولى بعد عودتى إلى سانتياجو، كان هو الشخص الوحيد الذى أبدى اهتماماً بمعرفة تفصيل ما عن منفاى، فضلاً عن أمى طبعاً، لكن الأمهات وُجدن من أجل هذا.

عندما أنزلنا الحقائب من الشاحنة، كاد أخى أن يقع وهو يحمل الحقيبة اليدوية.

- اللعنة! ما الذى تضعه هنا؟ ألا يكون جدار برلين؟

- كيف عرفت؟ - قلت له - هذا هو ما أحمله بالضبط.

أريته ما جئت به: ست وستون قطعة من الجدار، وزن كل واحدة منها مئة جرام. وهى برأيى سمعة ونقود. يمكن بيع كل واحدة ببضعة آلاف بيزو على أى

حال. وكانت كل قطعة منها شرعية تماماً مع بطاقتها المطبوعة والمرقمة، ومع رسم الدب البرلينى، وبوابة براندينبرج، وتوقيع رئيس مجلس شيوخ برلين. وكل قطعة مرفقة بوثيقة ذات مظهر رسمى، نسر البوندسريبوبليك أسود فى الأعلى، ونص بالألمانية والإنجليزية والفرنسية يضمن صحة وشرعية القطعة المرفقة.

بدا أخى متشككاً وتبين فى النهاية أنه على حق. لم نستطع بيع أكثر من تسع قطع، خمس منها فقط بالسعر الأصلى، وثلاث بثمانمئة بيزو وواحدة بخمسمئة.

ولكنى أتجه إلى أمر آخر. فى الحقيبة نفسها كانت المخطوطة التى انتهيت إلى الوقوع فى حبها لكثرة ما تلمستها وحملتها فى أرجاء العالم.

عندما أعدت قراءتها كاملة، من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، بينما أنا أنتظر حصولى على «منحة إعادة الاندماج فى العمل» من جامعة الخدمة العالمية، وجدت المخطوطة مشوقة أكثر من السابق، وفكرت فى أنه ربما يمكن نشرها. مع أنه، من هو البراز الذى يمكن أن تهمه مغامرات رسام مابوتشى فى بغداد، وقد حشر نفسه فوق ذلك بين الأكراد الذين هم غير معروفين فى تشيلى ولو بالاسم.

وبما أن الوقت هو ما كان فائضاً لدىّ، جددت عاداتى فى المنفى وكرست وقتى لقراءة صحف قديمة

فى المكتبة الوطنية، كى أطلع، من جهة، على أحداث السنوات الماضية، وخاصة بشأن الموتى، ومن جهة أخرى ـ وأنا أعترف بذلك ـ كى ألاحق آثار هويركيو. لم أجد شيئاً.

وفى مساء أحد الأيام ذهبت إلى المكان الضبابى حيث كانت، فى أزمنة أخرى، مكتبة الحزب، لأنظر فى علية مزعزة، هى أشبه بمدفن لطبعات كتّاب كلاسيكيين قديمة وأوراق أخرى استردها أحدهم لا أدرى من أى سراديب. وبين كراسات للينين حول المسألة الزراعية، ومرض الطفولة اليسارى، والمرتد كاوتسكى، وغيرها... اصطدمت ببعض الرزم الملطخة والمحزمة بحبال. وحسب ما قالته لى الرفيقة القديمة وشبه العمياء التى تترأس هذه الغنائم الناجية، هى «جزء من أرشيف العصر الماضى».

ـ غير ممكن ـ قلت لها متفاجئاً ـ، من القرن التاسع عشر؟

ـ لا ـ قالت لى، وهى ترمش وراء نظارة فى حالة مزرية جداً، بعدستين مشروختين ـ، من أرشيف جريدة «العصر». الجريدة السابقة.

رحت أعطس وأقلب الحزم. «بعضها جرى إنقاذها من حريق» وقد مرت بمحنة النار والماء، فكانت محروقة الأطراف ومحدودبة باعوجاج، تتفرط فى أجزاء كبيرة منها. إنها بقايا جرائد سوفييتية، وصينية، ورومانية، وتشيكية محزومة فى صفحات

رمـاديـة من جـريـدة «**من أجل ـ من أجل**» كـمـا كـان يسميها أحد عمال الطباعة المجربين. وهى طريقة اقتصادية للإشارة إلى نشرة الكومينفورم التى توقفت عن الصدور فى سنوات الخمسينيات، بعد قليل من موت ستالين، والتى كان اسمها هو أطول اسم عرفته مـطبـوعـة صـحـفـيـة: «**من أجل سلام دائم، من أجل ديمقراطية شعبية**».

بدأت أضجر وبدأ الغبار يلسع عينى عندما وقعت على منجم من مجلة «الأزمنة الجديدة» بالإسبانية، فى حالة أفضل من البقية. فتحت الرزمة ووجدت أنها تعود للعام ١٩٧٦.

ـ ولكن كيف ـ قلت للرفيقة ـ هذه المجلات صادرة بعد الانقلاب.

فأوضحت لى أن وصول المجلة قد تواصل إلى العنوان السابق نفسه حتى نهاية العام ١٩٨٣. الدكتاتورية لم تبدِ قط ما يشير إلى أنها تلاحظ ذلك. أم أن المخابرات السرية DINA كانت تتعقب الأثر خفية؟ على أى حال، توقفت تلك الإرساليات فى تلك السنة فجأة. ربما لأن أحداً فى موسكو قد انتبه للأمر.

رحت أفتح رزماً أخرى، ووجدت مجموعة «أزمنة جديدة» من سنوات الستينيات. وعندما وقعت على أعداد العام ١٩٦٣رحت أتفحصها بمزيد من الانتباه، وأنت تتصور السبب. فى عدد ديسمبر، كانت هناك

مقالة للصحفى التشيكى أوتاكار ياناسيك حول «معركة الأكراد الطويلة من أجل حقوقهم القومية».

سألتُ الرفيقة إذا كان بإمكانى أخذ تلك الرزمة.

- ليتك تأخذ كل شىء - قالت لى.

قدمت لها الشكر وودعتها، لكنها أوقفتنى من أحد كمىّ:

- أيها الرفيق - قالت لى بصوت خافت جداً - ألا يمكنك أن تترك لى شيئاً؟

كنتُ ساهياً لا أدرى بماذا:

- شىء؟... مثل ماذا؟ - قلتُ لها. وندمتُ على الفور.

- بعض البيزوات - قالت لى، كما لو أنها تخزِنى - أى شىء. أى مبلغ. من أجل فنجان شاى صغير...

احمر وجهى وقدمت لها ورقة ألف، طالباً منها المعذرة. اختطفت هى الورقة النقدية ونظرت إليها، مقربة إياها كثيراً من عينيها الهائلتين والغائمتين وراء عدستى نظارتها.

- ورقة ألف - قالت غير مصدقة.

- أجل، لا بأس - قلت لها - المعذرة للإزعاج.

شكرتنى بانفعال، حسب ما بدا لى، وظلت تتأمل الورقة النقدية بينما أنا أخرج وأدوس بحذر على أخشاب الأرضية التى تهتز وتُصدر أنيناً وسحب غبار مع كل خطوة.

خلال الرحلة الطويلة فى الحافلة، قرأت المقالة بهدوء، مرتين أو ثلاث مرات. الصحفى يتحدث بنبرة دبلوماسية ودون المس بالحكومة العسكرية العراقية ولو ببتلة وردة، عن وضع الأكراد المعقد فى العراق، وهم يسعون - كما يقول - إلى تحقيق وحدتهم حول القائد الأسطورى مصطفى برزانى، من أجل التوصل إلى الحكم الذاتى.

جال الصحفى ياناسيك فى أنحاء كردستان العراق فى يونيو ١٩٦٢حيث قابل جماعة من القادة الأكراد من كل التيارات. ومن بينهم التقى - أحسست بالانقباض فى قلبى - «بضابط شاب فى جيش البرزانى الوطنى، له ملامح آسيوية خفيفة، ويدعى على معشوق، ويعرف اللغة التشيكية».

«تحدثنا مطولاً - كتب فى المقالة - وقد فاجأنى اتزانه، وثقافته، ووضوح أفكاره السياسية. وهو يرى أنه لا مفر من رفع وتيرة النضال، ولا يثق بإمكانية التوصل إلى اتفاق دائم مع مجلس الثورة الذى يترأسه العقيد عبد السلام عارف. ولا يرفض فى الوقت نفسه أى محاولة للتفاوض تتيح تعزيز بعض التقدم، ولو بصورة عابرة، وتجنب أى إهدار دم فيما بعد».

ويسأله ياناسيك بعد ذلك أين تعلم التشيكية. «فى براغ، بالطبع، يجيب على معشوق. ويتذكر بحنين بيرة بلزينى، وبعد أن يشد الحزام الكردى التقليدى المصنوع من قماش سميك حول خصره، وفيه يثبت

مدية طويلة ومسدساً من عيار ٤٥ متقاطعين، يبتسم، يصافحنى، ويصعد بقفزة واحدة إلى صهوة حصانه الأسود، واسمه بيلان، لا بد أنه اسم كردى».

ظللت أفكر فى تلك السفوح الصخرية التى لم ولن أراها أبداً، فى تلك الشعوب والمعارك المجهولة وفى الصحارى الحزينة والنائية التى ترقد فيها عظام الأمراء الموتى.

وقررت أن نعم: يجب محاولة نشر المخطوطة بأى حال من الأحوال. أم أنك تقول لا؟

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «ماری نیمییه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود .

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا .. قصص .. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

٢ ـ العار ـ ج. م. كوتسى ـ جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٣.

٣ ـ شلالات ـ جويس كارول أوتس ـ جائزة الفيمينا ٢٠٠٥

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم :

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبني الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف :

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى :

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين :

مدخل ٢ الباب الأخضر – الحسين

القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى:

الزمالك – نهاية ش ٢٦ يوليو من

أبو الفدا القاهرة

مكتبة المبتديان :

١٣ ش المبتديان – السيدة زينب

أمام دار الهلال – القاهرة

مكتبة ١٥ مايو :

مدينة ١٥ مايو – حلوان

خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة :

١ ش مراد – ميدان الجيزة – الجيزة

ت: ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة :

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى
الجيزة

مكتبة رادوبيس :

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون :

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية :

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية :

التمليك - المرحلة الخامسة
عمارة ٦ مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس :

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بور فؤاد :

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان :

السوق السياحى - أسوان

ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط :

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت: ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٠

مكتبة المنيا :

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت: ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة) :

مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا

المنيا

مكتبة طنطا :

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير

طنطا

ت: ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى :

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور :

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة :

٥ ش الثورة - المنصورة

ت: ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف :

مبنى كلية الهندسة الالكترونية

جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

بين ركام من الرسائل والنصوص
والمقالات التى لم تنشر قط ويغطيها
الغبار، وقبل أربعة أشهر من انقلاب
"بينوشيه" العسكرى ضد حكومة
الرئيس التشيلى المنتخب "سلفادور
الليندى" يجد مدير جريدة "السيجلو" فى
أحد أدراج مكتبه رزمة أوراق صفراء فى
مغلف، مضى على وجودها مهملة قرابة
عشر سنوات، وتحمل عنوان "بريد بغداد".



ISBN# 9789774204081



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٤ جنيهاً